الكتاب الذي باع منه الملايين في اليابان وأوروبا وأميركا

د. أوريزون سويت ماردن

سبيلك الى الشهرة والنجاح

دار الكاتب العربي
دار الشوّاف للنشر

د. أوريزون سويت ماردن

سبيلك الى الشهرة والنجاح

الكتاب الذي باع منه الملايين
في اليابان وأوروبا وأميركا

دار الكاتب العربي

الطبعة الأولى ١٩٩٢

دار الكاتب العربي

دار الكاتب العربي - مؤسسة عالم ألف ليلة وليلة

هاتف : ٣١٨٩٩٦ ــ ص.ب. ١١/٣١٥٧

مقدّمة

قصَدَ مؤلف هذا الكتاب من وضعهِ بثّ روح النشاط والاقدام في صدور الشبان والشابات الذين يتلهبون شوقًا الى ان يكون لهم في العالم شأنٌ ويطمحون الى القبض على ناصية[1] النجاح في اعمالهم، ولكنهم لا يفتأون يرون من مُعاكسات الاحوال، ومناوآت[2] الزمان، ما يشعرون معهُ أنّهم عاثرو الجدِّ[3] لم يُقسَمْ لهم نصيبٌ في السعادة ولا كُتِبَ لهم حظٌ في الفلاح. وقد رأى أنَّ خير منهجٍ ينهجهُ[4] لبلوغ هذا الغرض انما هو إيرادُ اخبار الرجال المفلحين، وإيضاحُ ما تذرَّعوا بهِ من الوسائل للتغلب على ما اعترضهم من الصعاب، وما قام في سبيلهم من العقاب[5]، حتى لانت لهم أعطاف[6] الأمور وألقت اليهم الرغائبُ مقاليدَها[7]، ووَصْفُ ما امتازوا بهِ من الاخلاقِ والصفاتِ وما اتبعوهُ من الطُّرق في معاملاتهم مع الناس، وسردُ ما يُؤثَرُ[8] عنهم من النصائح والارشادات ما يستفيد بهِ القارئُ عِبرةً[9] ويسترشد بهِ في بُنيان هيكل مُستقبَلهِ. وقد رأى أنّ الإكثار من ايراد الامثلة على هذه الصورة خير اساسٍ لتكوين الاخلاق، وانّ فيهِ من الفائدة في إيقاظ الهمم، وتحريك العزائم، ما ليس في ايراد الحقائق الجافة والبراهين المجرَّدة. وقد تعمَّدَ في ما كتبهُ تنبيهَ المرءِ الى ان يكتشفَ ما فيهِ من القوى الكامنة ويستخدمها، ولا يُكثِرَ من التأسف على الماضي ولا من التعلُّل بالمستقبل بل يحصرَ رجاءهُ في الزمن الحاضر ويستفيدَ منهُ ما استطاع، وان ينتهزَ كل فرصةٍ تسنح لهُ ويصيِّرَها فرصةً عظيمة، وان لا ينتظرَ

---

(١) اصل معناها شعر مقدَّم الراس (٢) المناوأة المعاداة (٣) الحظ

(٤) المنهج الطريق الواضح وينتهجون يسلكون (٥) المراقي الصعبة من الجبال

(٦) جمع عِطف وهو جانب الشيء (٧) جمع مِقلاد وهو المفتاح

(٨) يروى (٩) موعظة

الفرصة بل يوجدها بنفسهِ . ونظرَ في أمر الأحداث الذين يصرفون الى اعمالٍ ومهنٍ لا تتلاءم مع استعدادانهم وأميالهم الفِطرِيَّة(١) فحرَّضهم على التخلُّص مما هم فيهِ، والانصرافِ الى ما تدفعهم اليهِ نزعاتهم(٢) الغريزية ليتمكنوا من الحصول على المراكز التي أعدَّتها لهم الطبيعة في هذا الكون . وبيَّنَ أنْ ليس من حدٍّ محدود للنجاح والتقدُّم في هذا العصر الذي ارتقى فيهِ كثيرون من اهل الجدِّ والاجتهادِ من أحطِّ دركات(٣) الخمول الى أسمى مراتب النباهة والشرَف، وأنَّ قيمة المرء ليست بمالهِ ولا بمركزهِ بل بأخلاقهِ وقوَّتهِ الشخصية، وأنَّ في استطاعة المرء ان يكون غنيًّا ولو لم يكن ذا مالٍ، وأنَّ هنالك ما هو أعظمُ قدرًا، وأجلُّ شأنًا من الثروة والرفعة وهو الأخلاقُ النبيلةُ، معزِّزًا كلَّ ذلك بالأدلَّة الدامغة، والحجج البالغة

وقد كان لكتابهِ هذا حين ظهورهِ أجلُّ وقعٍ في اوربا واميركا . فكتبت اليهِ الملكة فيكتوريا والرئيس مكنلي والملك همبرت الايطاليُّ كُتُبًا خاصَّةً أجزلوا لهُ فيها الثناء واعترفوا بفضلهِ وحسن صنيعهِ، فضلاً عمَّا ترامى اليهِ من رسائل التهنئة والتقريظ من عُظَماء الأمم وقادةِ الافكار في جميع انحاء المعمور

وقد أقبل القوم على مطالعة كتابهِ إقبالاً عظيمًا حتى طُبِعَ في اميركا في السنة الاولى لصدورهِ اثنتي عشرة مرَّة . وتُرجم الى كثيرٍ من اللغات الاجنبية وأحرز مقامًا رفيعًا في جميع البلدان ولا سيما في بلاد اليابان حيث عمَّمت الحكومة تدريسهُ في جميع مدارسها بأصلهِ الانكليزيّ وترجمتهِ اليابانية . وكتب أحد نوَّاب ايطاليا الكسندر روسي رسالةً حرَّض فيها حكومتهُ على جعل مطالعة هذا الكتاب الزاميَّةً في جميع مدارسها

وقد حملتني الغيرة على أبناء هذا الوطن المحبوب على نقلهِ الى لغتنا العربية لما رأيتهُ من افتقارهم الى كتاب مثلهِ يحبّب اليهم والى النشء الجديد منهم خاصَّةً مزايا الجدِّ والإقدام والثبات، وقد توخيت في ذلك المحافظة على الاصل غير مجيزٍ لنفسي

(١) الطبيعية (٢) اميالهم (٣) الدركة المنزلة اذا اعتبرت النزول

الخروج عن هذه الخطة الاّ في حذف بعض فقراتٍ وأمثلة لم أرَ في ايرادها فائدةً كبيرة للشرقيين ، وقد أضفت اليهِ شيئًا من اخبار عظماء العرَب واقوالهم ما له علاقةٌ بالموضوع جاعلاً ما أوردتهُ من ذلك بين حواصر " " تمييزًا له عن كلام المؤلف . فعسى الله ان يفيض بهِ من النفع في الشرق ما فيض في الغرب ، ويجعله من اركان النجاح لأفراد هذه الأمة انه وليُّ التوفيق وعليهِ الاتكال



فهرس

صفحة الفصل الاول

٩ المرء والفرصة

لا تنتظر سنوح الفرصة لك بل أوجدها

الفصل الثاني

٣٦ ابناء الفقر

ان الحاجة هي المهاز الذي لا يعادله ثمن

الفصل الثالث

٥٤ الاستفادة من اوقات الفراغ

اذا كان رجل نابغة مثل غلادستون قد ظلّ كل حياته يحمل في جيبه كتيبًا لئلا تفوته دقيقة من اوقات الفراغ دون ان يستفيد منها فهل يليق بنا نحن اصحاب المواهب العاديّة ان ندع واسطة من الوسائط دون ان نستعملها للمحافظة على اوقاتنا الثمينة من الضياع

الفصل الرابع

٦٦ الأحداث والأعمال التي لا تلائم استعداداتهم واميالهم

ان من يشتغل بغير المهنة التي أعدّته لها الطبيعة مقضيٌّ عليه بالتأخر الدائم والفشل وانما يكسب رزقه بضعفه بدلاً من ان يكسبه بقوّته

صفحة الفصل الخامس

٧٧ انتخاب المهنة

ان موهبتك هي دعوتك والسؤال الذي يُسأَل في هذا العصر هو : "ماذا تستطيع ان تعمل ؟" وخيرٌ لك ان تعزّز مركزك الخاص من ان تطلّب مركز سواك

الفصل السادس

٩١ حصر القوّة

ليكن لك غرض واحد غير متقلقل ولا تتوانَ في السعي الى غايتك ولا تعمل اشياء عديدة بدون عناية بل اعمل عملاً واحداً بإتقان

الفصل السابع

١٠٣ اتيان الشيء في وقتهِ او فوز العجلة

لا تندم على الماضي ولا تُكثر من التعلُّل بالمستقبل بل انتهز الوقت الحاضر واستفد منهُ ما استطعت

الفصل الثامن

١١٤ النجاح بالآداب

ان اصحاب الآداب السامية يمكنهم الاستغناء عن الثروة فكل الابواب تفتح لهم وهم يدخلون الى حيث شاؤوا بدون مال ولا عِوض

الفصل التاسع

١٢٧ انتصارات الحماسة

ليست المشاقّ والتعييرات والاضطهادات والآلام والاسقام بشيء مذكور لدى النفس المختلجة بحماسة غالبة

صفحة الفصل العاشر
١٥٤ الدهاء او صحة التمييز
ان البراعة لا تضاهي الدهاء فاننا نشاهد فشلها في كل مكان . والدهاء هو الذي يحرز قصب السبق في مضمار هذه الحياة
الفصل الحادي عشر
١٦٨ احترام النفس والثقة بها
اننا نطبع على انفسنا قيمنا الخاصة ولا نتوقع ان نقوم باغلى منها
الفصل الثاني عشر
١٧٤ الأخلاق قوة
ان ثروات كثيرين من كبار متمولي الاميركان لا تعد شيئاً مذكوراً بجانب اخلاق كاخلاق وشنطن . فلا نجاح الا بالاخلاق
الفصل الثالث عشر
١٩٣ الشغف بالتدقيق
ان عشرين عملاً ناقصاً لا توازي عملاً واحداً منجزاً باتقان . وبين الاصابة التامة وارتكاب خطإ طفيف بون شاسع
الفصل الرابع عشر
٢٠٧ تعمد الإيجاز
خير الكلام ما قل ودل
الفصل الخامس عشر
٢١٠ جائزة الثبات
ان العبقرية الصرفة تثب وتستعجل ثم تكل وأما الثبات فانه يعمل بتدريج ويكسب

الفصل الاول

المرء والفرصة

لا يولد احد في هذا العالم الا يولد عمله معه — لويل

لا تحدث الاشياء في هذه الدنيا ما لم يحدثها احد — غارفيلد

ان التيقظ في مراقبة الفرص والحذق والجرأة في اقتناصها عند سنوحهـا والقوة والثبات في الاستفادة منها الى أقصى حدٍ ممكن هي المزايا الجوهرية التي تقود الى النجاح — اوستن فلبس

اريد ان أجد طريقي والاّ شققت لنفسي طريقاً جديداً

لم يأتِ على الناس يومٌ الاّ وقد جاءت معه فرصة خاصة لعمل شيء من الخير لم يمكن عمله من قبل ولن يمكن فيما بعد — بارلي

اذا كنت متشوقاً للعمل فابدأ من هذه الدقيقة وانظر اي عمل تقدر او تفكر انك تقدر ان تقوم به فباشرهُ حالاً

لمّا عاد المهندسون الذين ارسلهم نبوليون لتفحّص مضيق سان برنار المخيف سألهم قائلاً : "هل اجتياز المضيق ممكن" فأجابوا بتردُّد : "ربما" فقال : "ذلك اذاً في حيّز الممكن . فلنسر الى الامام" ولم يعبأ بما رَوَوهُ له عمّا في هذه المُغامرة(١) من المصاعب التي لا تُقاوَم . وقد هزئت انكلترا والنمسا بفكرة اجتياز جيش مؤلف من

(١) المقاتلة مع عدم المبالاة بالموت

سبعين الف مقاتل مع مدافعه الثقيلة وذخائره ومؤنه لجبال الالب " حيث لم يمرّ قط دولاب عربة ولا يمكن ان يمر " الأ ان مسينا (١) كان على وشك الهلاك مع جيشه جوعاً في جنوى ومدافع النمسا وبين المنتصرين ترعد على ابواب نيس ولم يكن نبوليون بالرجل الذي يتخلّى عن انجاد رفاقه القدماء في ساعة الخطر

و بعد ان تمّ هذا الامر "غير الممكن" أخذ كثيرون يرون انه كان في حيز الإمكان إتمامه منذ أمدٍ طويل واعتذر آخرون عن عدم تعرّضهم لامثال هذه العقبات بحسبانهم اياها مما لا يمكن التغلب عليه . والحقيقة ان كثيرين من القوّاد كانت في حوزتهم الجنود والادوات والذخائر اللازمة ولكنهم كانت تعوزهم عزيمة وإقدام بونابرت الذي لم ينثنِ تجاه المصاعب مع جسامتها بل استخرج من حراجة موقفه نفسها فرصةً احسن اغتنامها

وفي التاريخ الوفٌ من الأمثلة عن رجال اغتنموا الفرص وقاموا باعمال كان يحسبها كثيرون ممن هم أضعفُ منهم عزماً مستحيلة . فمضاء العزيمة والتفاني في العمل يذلّلان كلّ الصعاب

لا شك أنهُ لم يولد الأ نبوليون واحد ولكن جبال المصاعب القائمة في سبيل نجاح الشبيبة ليست أعلى ولا أشدّ خطراً من القُنَن التي اجتازها ذاك الكورسيكي العظيم

لا تنتظر ان تسنح لك فرصٌ خارقة العادة بل انتهز الفُرَص العاديّة واجعلها عظيمة

في صباح ٦ ايلول سنة ١٨٢٨ استيقظت فتاةٌ في منارة لونغستون الواقعة بين انكلترا وسكتلند على صيحـــات استغاثة متصاعدة فوق زمجرة الرياح والامواج . وكانت الزوبعة تعصف بشدّة ولم يكن في وُسع والديها ان يسمعا صراخ الاستغاثة . فتناولت النظارة ورأت بها تسعة اشخاص متشبثين بآلة رفع الاثقال في مركب محطّم

(١) احد قوّاد نابليون

لا يزال جانب منهُ عالقًا بالصخور على مسافة نصف ميل . فأخبرت والدها وليم دارلنغ بالامر فقال لها : "ليس في وسعنا ان نفعل شيئًا" فأجابت : "بل علينا ان نهرع لمساعدة الغرقى" وما زالت تتوسّل الى ابيها وامها والدموع تتناثر من عينيها تناثُرَ اللآلئ حتى قال الأب : "الك ما تشائين يا غرابس وان يكن هذا على غير رأيي" فركبوا قاربهم الصغير واندفع يتقلب بهم على متن ذلك البحر الهائج كريشة في مهبّ الرياح الاّ ان صرخات اولئك المساكين كانت كأنها تحوّل اعصابهم الضعيفة الى حبال من فولاذ وكأنّ قوّةً مجهولة المصدر حلّت على تلك الفتاة الباسلة فدفعت مجذافها في وقت واحد مع ابيها وإنْ هي الاّ هنيهةٌ من الزمن حتى كان الملاّحون التسعة سالمين على الشاطئ . ولم يتمالك احد اولئك المساكين ان قال وهو يحدّق بتلك الفتاة العجيبة باستغراب : "بورك فيكِ ايتها الانكليزية الحسناء" ولا مراء أنّ صنيعَ تلك الفتاة في ذلك اليوم قد أضاف الى مجد انكلترا اكثر مما اضافت اليه فتوحات كثيرين من ملوكها

وإنّ في الحادث الآتي الذي رواه جورج كاري اغاستون عبرةً وذكرى . كان السنيور فاليارو قد دعا عددًا من اصدقائهِ الى مأدُبةٍ واتفق ان بائع الحلوى الموكول اليهِ اعداد زينة شائقة للمائدة ارسل قُبيل ساعة المأدبة يقول ان القطعة التي أعدَّها تلفت . وبينا رئيسُ الخدَم حائرٌ لا يدري ماذا يفعل اذا بأحد الخدم يقول له : "هل لك ان تدعني أجرّب ولعلي أستطيع أن أصنع شيئًا يقومُ مقامَ المفقود" فصاح بهِ رئيسهُ بدهشة : "أأنت تفعل ذلك . ومن أنت ؟" فأجاب وهو مضطربٌ مصفرّ الوجه : "انا انطونيو كانوفا حفيد بيزانو قطاع الحجارة"

فقال له : "وماذا تستطيع ان تصنع"

اجاب : "اذا اذنت لي صنعت شيئًا يوضع في وسط المائدة لتزيَّن بهِ"

وكان رئيس الخدَم يكاد يُضيع رشدهُ فأمر انطونيو ان يباشر صنع ما يُحسنهُ .

فطلب كمية من السمن وسبكها على شكل اسد رابض ما رآهُ رئيسهُ حتى أُعجب بهِ إعجابًا شديدًا وزان بهِ المائدة

وحالما ازفت ساعة الغداء اقبل الى غرفة المائدة عددٌ كبيرٌ من اشهر تجار البندقية وامرائها وأشرافها و بينهم جماعةٌ من ارباب الخبرة والنقد في الأشياء الفنيةّ . فحالما وقع نظرُهم على الأسد المصنوع من السمن نسوا الغاية التي اجتمعوا لاجلها لفرط إعجابهم بهِ وجعلوا يطيلون النظر اليهِ ويتفحَّصونهُ بدقةّ سائلين السنيور فاليارو عن اسم النقاش النابغة الذي رضي ان يُضَيّع جانبًا من وقتهِ ومهارتهِ لاصطناع مثل هذا الاثر الوقتيّ . واذ لم يستطع فاليارو ان يُلبّي سؤلهم دعا اليهِ رئيس الخدَم وهذا جاءَ بانطونيو المثول بين ايديهم . فلما عرف اولئك الضيوف الممتازون ان الأسد صَنَعهُ هذا الخادمُ في وقت قصير تحوّلت مأدبتهم الى حفلة اكرام لهُ . وأعلن صاحب المنزل وهو من كبار الاغنياء أنهُ يتبرّع بدفع النفقات اللازمة لتلقّي الغلام هذا الفنّ على اشهر اربابهِ . وما لبث أن برَّ(١) بوعدهِ . أما انطونيو فلم تُبطرهُ النعمةُ بل ظلّ ذلك الفتى الطيّب السريرة الامينَ المجتهدَ الذي كان يحاول ان يتقن صناعة قطع الحجارة في معمل بيزانو . ولعلّ كثيرين لم يعرفوا قبل الآن كيف استفاد الغلام انطونيو من الفرصة العظيمة الاولى التي سنحت لهُ ولكن قلّ من لم يسمع باسم كانوفا الذي يُعَدُّ واحدًا من أشهر النقاشين الذين ولدهم الدهر

ان الرجال الضعفاء ينتظرون ان تسنح لهم الفُرص واما الاقوياء العزائم فانهم يُوجدونها

قال شابن : ليس خير الرجال هم الذين انتظروا الحظ ان يوافيهم بل هم الذين هاجموهُ وحاصروهُ وتغلّبوا عليهِ وجعلوهُ خادمًا لهم

ولربما لا يتاح لك ان تحصل على مساعدة غير معتادة الاّ مرّة في كل مليون

(١) صَدَقَ

مرّة . الاّ أنهُ في غالب الاحيان تعرض لك فُرَصٌ تستطيع ان تستخدمها لمنفعتك اذا شئت فقط ان تعمل

وما القول بعدم سنوح فرصةٍ إلاّ حجّةٌ يلجأُ اليها ذوو العقول السخيفة المترددة. فحياة كل امرىءٍ ملأَى بالفرص . لأنَّ كلَّ درس في المدرسة او في الجامعة فرصةٌ، وكلُّ امتحان فرصةٌ، وكلُّ مقالةٍ في جريدة فرصةٌ، وكل معاملٍ في التجارة فرصةٌ، وكلُّ عظة فرصةٌ، وكلُّ مهنة فرصةٌ . — تلك فرصٌ يستطيع فيها المرء أن يستكمل تهذيبه، او أن يصير رجلاً حقيقيًا، او أن يكون شريفًا، او أن يكتسب اصدقاء . وكل برهان تتلقاهُ على الثقة بك فرصةٌ، وكلُّ نعمةٍ تلقى على عائلتك سواء من حيث المقدرة او الشرف فرصةٌ لا يعادلها ثمن . وما الوجود الاَّ معترك جهادٍ فمن جاهد الجهادَ الحقَّ توالت عليهِ الفرص التي تتفق مع قواهُ واستعداداتهِ بأسرع ما يمكنهُ استخدامها . واذا كان زنجيٌّ مثل فريد دوغلاس قد تمكّن ان يرتقي الى درجة خطيب ومؤلف وسياسيّ فالى اي درجة يقدر ان يصل الغلام الابيض الذي هو غنيٌّ جدًّا بالفرص بالنسبة الى دوغلاس ؟

ولا يشكو من عدم سنوح فرصةٍ له الاَّ الرجل الكسول لا العامل العظيم . وإنَّ بعض الشبّان يستخرجون من بعض فضلات الفرص التي يطرحها غيرهم جانبًا بدون اكتراث نتائجَ أعظمَ جدًّا مما يستخرجهُ كثيرون سواهم من العمر بأسرهِ . فهم كالنحل يستخرجون عسلاً من كل زهرة . وكل شخص يصادفونهُ، وكل حادثة تقع لهم في يومهم، يضيفان شيئًا الى خزانة معلوماتهم النافعة او مقدرتهم الشخصية

قال احد الكرادلة : ما من احدٍ الاّ تزورهُ الثروة مرّة في حياتهِ، ولكنها اذا وجدتهُ غير مستعدٍ لاستقبالها فانها تدخلُ من الباب وتخرج من النافذة

وقد رأى كرنيليوس فندربلت الفرصة سانحةً له في الملاحة البخارية فقرر الانصراف اليها . وللحال ترك عمله الناجح ما دهش له جميع اصدقائهِ وتولّى قيادة إحد الزوارق البخارية في اوّل عهد انشائها براتب الف دولار في السنة. وكان ليفنستون

وفلتون قد احرزا من الحكومة حق الملاحة بالبخار وحدهما في مياه نيويرك ولكن فندربلت رأى هذا الامتياز جائرًا وما زال يحاربهُ حتى فاز بالغائه . ثم اشترى زورقًا بخاريًا لنفسهِ . واذ كانت الحكومة تدفع مبلغًا كبيرًا على سبيل الاعانة لنقل بريد اوربا عرض عليها ان ينقلهُ مجانًا وبطريقة افضل فأجابتهُ الى ما طلب وهكذا ما لبث ان انشأ بواخر كبيرة لنقل الركاب والبضائع

ثم رأى ان للنقل بالسكك الحديدية في بلاد كالولايات المتحدة مستقبلاً باهرًا فاندفع في انشاء خطوط عديدة منها وهكذا وضع اساس مشروع سكك فندربلت الحديدية

والشاب فيليب ارمور انضمَّ الى قافلة التسعة والاربعين واجتاز "صحراء اميركا الكبرى" على هودج تجرُّهُ البغال مستصحبًا كل ما يملكهُ . وقد تمكن بعد ست سنوات بعملهِ الشاقّ في المعادن وبما جمعهُ من المال بجدّهِ وحرصهِ ان ينصرف الى تجــارة الحبوب والمؤن في ميلووكي . فأحرز في تسع سنوات خمسمئة الف دولار . اما فرصتهُ العظمى فقد وجدها عندما اصدر القائد غرانت امرهُ سنة ١٨٦٤ بالزحف على رتشموند . ففي ذات صباح طرق باب بلانكتون شريكهِ في تجارة لحم الخنزير المقدَّد قائلاً لهُ : " انني عازم على السفر الى نيويرك في اول قطار لأبيع فيها لحم خنزير . فانني اعتقد ان القائدين غرانت وشرمان سيضربان الثوَّار الضربة القاضية وسيهبط ثمن البرميل من لحم الخنزير الى اثني عشر دولارًا " وفي الحال توجه الى نيويرك وعرض في السوق كميات كبيرة من لحم الخنزير المقدَّد باربعين دولارًا سعر البرميل . فأقبل التجار على المشترى منهُ إقبالاً زائدًا . وقد هزئ بهِ المضاربون هناك قائلين ان ثمن البرميل من لحم الخنزير سيرتفع الى ستين دولارًا لان الحرب لن تضع أوزارها[1] قريبًا . على ان هزءهم ما كان ليثني عزمهُ بل ظلّ يواصل البيع

(١) الاوزار الاحمال الثقيلة ووضعت الحرب اوزارها اي انقضت لان المحاربين يضعون اسلحتهم عندئذ .

بالسعر الذي حدّدهُ . وقد صحَّ تكهنهُ(١) فان الجنرال غرانت ما برح يتقدَّم وما لبثت رتشموند ان سقطت وسقط معها سعر لحم الخنزير حتى بيع البرميل منهُ باثني عشر دولارًا وبلغ ما ربحهُ المستر ارمور مليوني دولار

والمستر جون روكفلر وجد الفرصة الموافقة لهُ في البترول فقد رأى قسمًا كبيرًا من سكان الولايات المتحدة لا يزال يستعمل انوارًا ضئيلة جدًّا . وذلك لان البترول مع ان كميتهِ وافرة كانت طريقة تصفيتهِ لا تزال قاصرةً بحيث ان الكميات المستخرجة منهُ كانت منحطّة ولم تكن تسلمُ بتمامها . وملاحظتهُ هذه كانت بداءة حظهِ . فقد ضمَّ اليهِ صموئيل اندروز شريكًا وكان هذا رفيقًا لهُ في العمل في مستودع آلات وُفِّق الى اكتشاف طريقة لتصفية البترول افضل من الطرق المعروفة حتى ذلك الحين . فباشرا عملهما سنة ١٨٧٠ واخذا يُصدران كميات من الزيت تزيد شيئًا فشيئًا وحالفهما النجاح فضمَّا اليهما شريكًا ثالثًا اسمهُ المستر فلاغلر ولكن اندروز ما لبث ان أخذ يتذمر فسألهُ روكفلر : "بكم نبيع حصتك ؟" فتناول قلمًا وورقة وكتب بدون اكتراث : "مليون دولار" فلم تمضِ اربع وعشرون ساعة حتى دفع اليهِ روكفلر القيمة قائلاً : "خيرٌ ان آخذها اليوم بمليون من ان آخذها فيما بعد بعشرة ملايين" ولم تمضِ عشرون سنة على عمل التصفية الصغير الذي لم يكن يزيد ثمن بناياتهِ وآلاتهِ على الف دولار حتى صار يدعى "شركة ستندرد اويل" البالغ راس مالها تسعين مليون دولار ولديها مخزون بقيمة ١٢٠ مليونًا وهي تقدّم الى الاسواق ما تبلغ قيمتهُ مئة وخمسون مليونًا

هذا قليلٌ من كثير من الامثلة على اغتنام الفرص بُغيةَ كسب المال . على ان هنالك لحسن الحظ نشأً جديدًا من رجال الكهرباء والعلماء والممثلين والمؤلفين والشعراء يجدون فرصًا كثيرة جدًّا لعمل شيءٍ أشرف من مجرَّد جمع المال . فالثروة

(١) الإخبار بالغيب

ليست غايةً في ما يسعى اليهِ الانسان بل هي واسطةٌ تُمكّنهُ من تحقيق ما يسعى اليهِ من الغايات

فالسيدة اليصابات فري من شيعة الكوبكر وجدت الفرصة المناسبة لها في سجون انكلترا . فحتى سنة ١٨١٣ لم يكن للنساء الاَّ سجنٌ واحدٌ في نيوغايت لندن يُرى فيهِ دائمًا عددٌ من ثلاثمئة الى اربعمئة امرأة أنصاف عارياتٍ ينتظرن موعد محاكمتهنَّ . ولم تكن لهنَّ أسرَّةٌ بل كنَّ جميعًا من كبيرات وصغيرات وفتيات يضجعنَ على الارض بين الاوساخ والخِرَق . ولم يكن احدٌ يهتمُّ بأمرهنَّ ولكن الحكومة كانت تقدّم لهنَّ من الطعام ما يسدُّ رمقهنَّ . فالسيدة فري زارتهنَّ وهدَّأت روعهنَّ وقالت لهنَّ انها تريد انشاء مدرسة للحديثات السنّ منهنَّ وسألتهنَّ أن يختَرنَ واحدةً منهنَّ معلمةً لها . فوقع لديهنَّ هذا الامر موقع الاستغراب وانتخبنَ لهذه المهمة فتاة كان سبب سجنها أنها سرَقَتْ ساعةً . ولم تمضِ ثلاثة اشهر حتى صارت تلك الخلائق التي كانوا يحسبونها وحوشًا ضاربة على غاية من اللطف والسكينة . وقد انتشر هذا الاصلاح حتى ان الحكومة أجازته قانونيًا وتحرَّكت الشفقة في قلوب كثيراتٍ من السيدات المحسنات في انكلترا للاهتمام بتهذيب المسجونين واكسائهم . ولم تمضِ اربعون سنة حتى شاعت هذه الطريقة عند جميع الشعوب المتمدنة

واتفقَ أنَّ عربة نقل داست غلامًا في انكلترا فانقطع احد شرايينهِ وانفجر منهُ الدم ولم يكن هنالك من يعرف طريقةً لايقافهِ حتى تقدَّمَ غلامٌ اسمهُ استلي كوبر وتناول منديلهُ واوقف جريان الدم بربطهِ على الجرح . وقد كان ما تلقَّاهُ من الثناء على تخليصهِ حياة ذلك الولد منشطًا اياهُ ودافعًا له على مباشرة درس فن الجراحة منذ اليوم التالي

قال ارنولد : ان الجرَّاح الحديث العهد بعد ان يكون قد قضى مدَّة طويلة في الدرس والاختبار والانتظار لا يلبث ان يرى نفسهُ فجأةً تجاه اول عملية ذات خطر . ولا يرى بقربهِ جرَّاحًا كبيرًا يستعين بهِ ويجد أن لا وقت له للانتظار وأنَّ

الموت والحياة في كفتيْ ميزانٍ فهل يكون كفوًا للموقف فيسدّ مسدّ الجرّاح الكبير و يعمل عمله ؟ انه اذا فعل ذلك كان الوحيد الذي يحتاج اليهِ بين كثيرين. وهذه فرصة قد سنحت له وقابلته وجهًا لوجه. أو تراهُ يعترف بجهلهِ وعجزهِ ويقف في سبيل شهرتهِ وثروتهِ. هذا ما يتعين عليهِ ان يصرّح بهِ اذ ذاك

فهل أنت مستعدٌ لفرصة عظيمة ؟

قال جايمس فيلدز : تناول هوثورن يومًا طعام الغداء على مائدة لونغفلو[١] ومعهُ صديق له من ساليم. وبعد الغداء قال الصديق المذكور : انني عبثًا حاولتُ إقناع هوثورن بتأليف رواية يجعل موضوعها قصّةً لا تزال شائعةً في اكاديا حتى الآن وهي قصة فتاةٍ افترقت عن عشيقها عند تشتّت الاكاديّين وقضت حياتها في البحث عنهُ وانتظارهُ ولم تلتقِ بهِ الاّ وهو على فراش الموت في احد المستشفيات وقد بلغ كلاهما من الكِبَرِ عتيًا[٢] فعجب لونغفلو من عدم تأثير هذه القصة على مخيّلة هوثورن وقال له : " اذا كنت لا تنوي ان تُفرغ هذه الحادثة في قالب روايةٍ فاني قد عقدت عرى العزم على نظمها قصيدةً " فوافقهُ هوثورن على ما اراد وعاهدهُ على ان لا يسبكها نثرًا قبل ان يكون لونغفلو قد صاغها شعرًا. وهكذا اغتنم لونغفلو الفرصة وأبرز قصيدته المشهورة " اڤانجلينا او نفي الاكاديّين "

فالعيون المستيقظة تكتشف فرصًا في كل مكان ، والآذانُ الصاغية لا يفوتها سماع صراخ مستغيثين ممن هم في اشدّ الحاجة الى المعونة ، والقلوب الواعية لا تعدم الاهتداء الى اشخاص يستحقون ان يكونوا موضوع عطفها و إحسانها ، والايدي النشيطة لا تحرَم عملاً شريفًا تعمله

كلٌ يعلم انه اذا وُضع جسم جامد في اناء مملوء ماء لا يلبث ان يفيض قسمٌ من الماء ولكن لم يستنتج أحدٌ من ذلك ان الجسم يرفع الماء عما كان عليهِ بمقدار حجمهِ الاّ

(١) شاعر اميركي شهير امتازت منظوماته برقتها وعذوبتها (١٨٠٧—١٨٨٢)

(٢) كبر وولّى وبلغ غاية الكبر

ارخميدس(١) فانهُ لما انتبه الى هذه القضية استنتج منهـا طريقةً لمعرفة الثقل النوعي للاجسام مهما كانت اشكالها غير متناسبة

وقد لاحظ كلٌّ انهُ اذا عُلّق جسمٌ وحُرّك يأخذ في الخَطَران ذهابًا وإيابًا الى ان يدفعهُ الفرك وصدّ الهواء الى السكون الاّ انهُ لم يُعَلِّق احدٌ على هذه المسألة اهميّة عمليّة حتى تنبّه الغلام غاليلو(٢) الى هذا الامر بملاحظته مصباحًا يتمايل عَرَضًا في كنيسة بيزا الكاتدرائية فوجد في انتظام خَطَرانهِ مبدأ الرقاص. وما كانت ابواب السجن الحديدية نفسها لتصدّهُ عن متابعة البحث والتنقيب فواصل التجربة بعودٍ دقيق في حجرتهِ حتى وقف على حقائق ذات شأن في ما يتعلق بالقوّة النسبية للأنابيب والقضبان ذوات القطر المتوازي

وقد كان الفلكيون يعرفون حلقات زُحل منذ قرون ويعدّونها شواذّ غريبة لنظام تألف السيارات الى ان جاء لابلاس(٣) وبدلاً من ان يعدّها شواذّ رأى انها الآثار الباقية لبعض الطبقات في نظام تكوُّن الاجرام السماوية وهكذا اضاف من شهاداتها الصامتة فصلاً ثمينًا الى تاريخ الخليقة العلميّ

ولا شكّ انهُ لم يبقَ ملاح في اوربا لم يتساءل ما عساهُ ان يكون وراء المحيط الغربي الاّ ان كولمبس وحدهُ هو الذي اندفع للسفر بجرأةٍ في ذلك البحر المجهول فاكتشف عالمًا جديدًا

وإنّ تفاحات لا تحصى سقطت من الاشجار وكثيرًا ما كانت تصيب أشخاصًا غافلين على رؤوسهم كأنها تدعوهم الى الانتباه وإعمال الفكرة إلاّ انهُ لم يلاحظ أحدٌ قبل نيوتن(٤) ان سقوط هذه التفاحات الى الارض انما يحدث بالقانون نفسهِ الذي

(١) اعظم مهندسي العصور القديمة لهُ اختراعات جمة وُلد سنة ٢٨٧ وتوفي سنة ٢١٢ قبل المسيح (٢) عالمٌ رياضيٌ وطبيعيٌ وفلكيٌ ايطاليٌ (١٥٦٤-١٦٤٢) (٣) عالمٌ رياضيٌ وفلكيٌ افرنسيٌ شهير (١٧٤٩-١٨٢٧) (٤) فيلسوف انكليزي كبير اكتشف ناموس الجاذبية وتحلل النور (١٦٤٢-١٧٢٧)

يضبط سيارات السماء في سيرها ويمنع الحركة الخاصة التي في كل الجواهر الفردة في العالم من فصلها عن بعضها وإرجاعها الى حالة التشوُّش والاختلاط

وانَّ البرق طالما بهر الابصار ,والرعد طالما أصمَّ الآذان , وهما يحاولان عبثًا تنبيه البشر الى قوَّة الكهربائية الهائلة وتأثيرها الشديد. ولكنَّ الناس انما كانوا يقابلون طلقات المدافع السماوية هذه بالرُّعب والذُعر الى أن أثبت فرانكلن(١) بتجربةٍ بسيطةٍ ان البرق ليس إلاَّ مظهرًا من مظاهر قوَّة يمكن تقييدها وضبطها وهي متوفرةٌ في الهواء والماء

فهؤُلاء الرجال وكثيرون غيرهم مثلهم انما يُعتبرون عظماء لكونهم أحسنوا الاستفادة من فُرص شائعة بين جميع افراد الجنس البشريّ . اقرأ سيرة أيِّ رجل ناجحٍ شئت وانظر ما يُستنتَج منها من المغزى تجدهُ كما قال سليمان الحكيم منذ الوف من السنين : "أرأيت رجلاً مجتهدًا في عملهِ انهُ يقف امام الملوك." وانك لتجد مصداق هذا القول في سيرة فرنكلن النشيط فانهُ وقف امام خمسة ملوك وجلس الى مائدة ملكين

ومن ينتهز فرصة فانما يُلقي بذارًا ينتج عنهُ ثمر لهُ ولغيرهِ . فكل من عَمِلَ بجدٍّ وامانةٍ في الماضي فقد ساعد على تقريب منال العلم والسعادة على عدد من الناس يزداد يومًا فيومًا

وقد أصبحت اليوم ابواب التقدُّم اكثر عددًا واوسعَ مجالاً وأسهل ولوجًا(٢) من كل ما كان من نوعها سواء للعامل الميكانيكي النشيط والمتدرّب ام الشاب المهذَّب ام للمستخدَم ام الكاتب . وفي وسع كل من هؤُلاء اليوم التوصل الى نجاح اعظمَ مما توصل اليهِ من كان قبلهم في مثل مراكزهم منذ بدء الخليقة . فعدد الحِرَف لم يكن

(١) هو بنيامين فرنكلن العالم والسياسيّ الاميركي احد مؤَسسي استقلال الولايات المتحدة ومخترع الشاري (قضيب الصاعقة) واول سفير للولايات المتحدة في فرنسا , ١٧٠٦ — ١٧٩٠)

(٢) دخولاً

منذ مدّة يسيرة الاّ ثلاثًا او اربعًا اما اليوم فهو خمسون . ولم يكن الاّ تجارةٌ واحدة اما اليوم فان عدد التجارات قد بلغ المائة

دخل زائرٌ الى معملٍ ورأى فيهِ بين تماثيل الآلهة تمثال الهٍ وجههُ مغطًّى بالشعر واجنحة على قدميهِ فسأل : "ما اسم هذا الاله ؟" اجابهُ النقّاش : "هو الفرصة"

– ولِمَ هو مخفيٌّ وجههُ ؟

– لان الناس قلما يعرفونهُ حين يجيء اليهم

– ولِمَ اجنحة على قدميهِ ؟

– لانهُ يذهب حالاً واذا ذهب فلا أمل لأحد باللحاق بهِ

وجاء في مثل لاتيني : "ان الفرصة لها شعر في مقدمة رأسها واما في مؤخرتهِ فهي صلعاء . فاذا أمسكت بناصيتها استحوذتَ(١) عليها واما اذا تركتها تفلت منك فان جوبيتر نفسهُ لا يقدر ان يقبضَ عليها ثانيةً"

لكن ما قيمة أفضل فرصة عند من لا يقدر او لا يُريد ان ينتهزها ؟

حدَّث احد الربابنة قال : قُسِمَ لي الحظ ان التقيت بالباخرة "اميركا الوسطى" قبل نكبتها وكان الظلامُ قد أرخى سُدولَهُ(٢) والنوء يشتدُّ شيئًا فشيئًا . فحييت الباخرة وسألت ربانها القبطان هرندون هل هو في حاجةٍ الى المساعدة . فأجابني : اننا نكاد نغرق . فقلت لهُ : الافضل ان نعجّل بإنزال الركّاب الى البر . قال : هل لك ان تسير بجانبي حتى الصباح . قلت : سأحاول ذلك ولكنني أنصحك ان تُنزِل الركّاب الآن . قال : بل سِر بجانبي حتى الصباح

فحاولت ان أسير بجانبهِ ولكن النوء اشتدَّ في الليل اشتدادًا عظيمًا حتى لم يبقَ في طاقتي المحافظة على مركزي وكان ذلك آخر عهدي بالباخرة المذكورة فانها بعد ساعة ونصف من قول ربانها لي : "سر بجانبي حتى الصباح" ابتلعها اليمّ(٣) وذهب القبطان والبحارة والقسم الاعظم من الركّاب فرائس للامواج

(١) امتلكتها (٢) ستورهُ (٣) البحر

ولم يعرف القبطان هرندون قيمة الفرصة التي اضاعها إلاّ بعد أن فاتت. فما كانت فائدة ندمهِ حين أدركته الهلكة وكم من نفوس ذهبت ضحايا رجائهِ غير المعقول وتردُّدهِ وهكذا الضعيفُ الرأيِ الخوَّارُ العزيمةِ السائرُ لغيرِ هدَفٍ معيَّنٍ لا يرى لِأسعد الفرص معنًى ولا قيمةً إلاّ بعد أن تمرَّ فيعرف عندئذ صحَّة المثل القائل ان المطحنة لا تستطيع ان تطحن بعد أن يذهب عنها الماء

وإنك لترَى دائمًا هؤُلاء القوم في كل امر يحاولونهُ آتين قبل الميعاد أو متأخرين عنهُ. وقد كانوا في حداثتهم لا يذهبون الى المدرسة الاّ بعد الوقت المعيَّن ولم يكونوا يهتمون واجباتهم البيتيَّة بدقَّة فرسخت فيهم هذه العادات. والآن وقد أصبحت التَّبِعة ملقاة على عواتقهم لا تجدهم الاّ يفكّرون بأنهم لو ذهبوا امس لفازوا بمطلوبهم او انهم ربما يقدرون ان يفوزوا بهِ غدًا وتراهم يذكرون طرقًا عديدة لكسب المال ويعرفون كيف يمكن احرازهُ في اي وقت من الاوقات ما عدا الوقت الحاضر. ويعلمون الوسائل التي يرَقُّون بها انفسهم او يساعدون الآخرين في المستقبل اما الآن فلا يجدون الى ذلك سبيلاً. فأمثال هؤُلاء لا يقدرون ان يغتنموا الفرص

كان جوي ستوكر مستخدَمًا في احد القُطُر مركزهُ في المؤخَّرة وكان محبوبًا من جميع مستخدمي السكة ومن الركاب نظرًا للطف عشرتهِ واستعدادهِ دائمًا لاجابة سائليهِ الى ما يسألونهُ ولكنهُ لم يكن يُدرِك حقيقة التَّبِعة الملقاة على من كان في مثل مركزهِ بل كان يستخفُّ بالامور ويتناول المسكر احيانًا واذا وبخهُ احدٌ تلقى ذلك بابتسامة وأجاب ببشاشة: "شكرًا لك اني بخير فلا تزعج نفسك" بحيث يُخيَّل الى صديقهِ أنهُ قد استعظم الخطر اكثر مما هو

وحدَث ذات مساء ان هبَّت زوبعةٌ هائلةٌ وتساقط الثلج وتأخر قطارهُ عن موعدهِ فجعل جوي يتذمر لتراكم العمل عليهِ بسبب العاصفة ويتناول جُرعةً بعد جرعةٍ من قنينةٍ لديهِ. وللحال استخفهُ الطرب اما سائق القطار والمهندس فكانا متيقظَين وقلقَين. وما لبث القطار ان توقف عن المسير بين محطتين لخللٍ طرأ على

حدى الآنو وكان منتظرًا مرورُ قطارٍ مستعجلٍ على الخط نفسهِ بعد بضع دقائق فأسرع السائق الى العربة التي في المؤخرة وامرجوي بأن يرجع مسافة وهو حامل مصباحًا أحمر لتنبيه القطار القادم . اما جوي فقال ضاحكـــًا : "لاموجب للعجلة وها انذا ألبس دثاري واذهب"

فقال لهُ السائق بقلق : "لا تتأخر دقيقة فان قطارًا مستعجلاً آتٍ وراءنا"

فابتسم جوي واجاب بالموافقة فعاد السائق الى الآلة . على ان جوي لم يذهب على الفور بل تمهّل ريثما التفّ بدثارهِ ثم تناول جرعة من القنينة ليحفظ حرارتهُ بعد خروجهِ وبعد ذلك حمل المصباح الاحمر وسار مترنحـــًا . الاّ انهُ لم يبتعد عشر خطوات حتى سمع صفير القطار المستعجل فاخذ يعدو بملء قوتهِ ولكن بعد فوات الوقت وإن هي الاَّ هنيهةٌ حتى اصطدم القطاران واختلط انين الركاب وصراخهم بصفير البخار

ولما فتشوا عن جوي بعدئذٍ لم يقفوا لهُ على أثرٍ ولكنهم وجدوهُ في اليوم التالي في مستودع هالك وهو في حالة هذيان يحرّك مصباحًا احمر نحو قطار يتخيلهُ ويصيح "آه لو فعلت" فمضوا بهِ الى بيتهِ ثم نقلوهُ الى احد البيمارستانات ولم يكن يُسمع في ذلك المكان المحزن صوتٌ اشدُّ إثارةً للشجن من هذا الصراخ المتكرر: "آه لو فعلت . آه لو فعلت" المنبعث من هذا الرجل المنكود الطالع الذي سبّب هلاك عدد من الناس بتهاونهِ وإهمالهِ

وانك لتجدُ هذه الكلمات: "آه لو فعلت . آه لو لم افعل" تنبعث من صدور كثيرين ممن يودون لو خسروا حياتهم برمتها ليسترجعوا فرصةً أفلتت من ايديهم او يتداركوا هفوةً ارتكبوها ولكن أنَّى لهم ذلك وما فات لا يعود

قال دين الفورد : قد تأتي على المرء دقائق أثمنُ من سنين . وليس هذا الامر في ايدينا . وليس من تماثلٍ او تناسبٍ بين الاوقات في اهميتها ولا في قيمها . فقد تقع

في خمس دقائق حادثة تؤثر في الحياة بأسرها . ومن يعرف متى تعرض لنا هذه الفترة الشديدة الاهمية ؟"

وقال ارنولد : "ان ما نسميهِ انقلابًا في الحياة ليس الأ فرصةً تعطي نتيجةَ تربيةٍ سابقة . والاحوال العارضةُ ليست شيئًا مذكورًا الأ عند الذين تمرنوا على الاستفادة منها"

وما سبب بلائنا الأ كوننا نتوقعُ دائمًا ان يصادفنا حظٌ مدهشٌ لاكتساب الاموال او الشهرة او المجد . فكأننا نطلب ان نمهر في صناعة او فن بدون تمرنٍ او ان نحصّل العلم بدون درس أو الثروة بمجرد الثقة

فيا أيها الفتيان والفتيات ما لكم تقفون يومكم كله متكاسلين هل امتلأت الارض كلها قبل ان وُلدتم وهل كفّت عن تقديم ثمرها ؟ أكلُّ المراكز مشغولة وكل المناصب مفعمة(١) ؟ هل ذهبت الفرص كلها وهل أُفنيت كل موارد بلادكم الإنماء الكافي ؟ أتمّ اكتشافُ جميع اسرار الطبيعة ؟ أوَليس هنالك من واسطة تستطيعون بها استخدام وقتكم في ما ترقّون به انفسكم او تفيدون الآخرين . أحسبتم الجهاد الذي تتطلبهُ الحياةُ العصرية فوق طاقتكم حتى اكتفيتم بتحصيل معاشكم بشرفٍ . وهل مُختم موهبة الحياة في عصر التقدم هذا الذي اجتمعت فيهِ خلاصة اختبارات العصور الماضية بقصد إرشادكم وتمهيد سبيلكم لكي يكتفي كلٌّ منكم بان يزيد مجموع الوجود الحيواني واحدًا ؟

انكم قد وُلدتم في عصرٍ توفّرت فيهِ المعرفة والفُرص اكثر ما في كل العصور التي تقدمتهُ. فكيف تقفون مكتوفي الايدي طالبين معونة الله في العمل الذي سبق عزّ وجلّ واعطاكم المواهب والقوى اللازمة لإتمامهِ . فان شعب الله الخاص نفسهُ عندما اعتقد ان البحر الاحمر يعوق تقدمهُ ووقف قائدهُ يطلب المعونة من الله قال له الرب : "لماذا تصرخ اليّ . قل لبني اسرائيل ان يسيروا الى الامام"

(١) مملوءة.

وان كلّ دقيقة تأتي تُوقفُنـــا على عتبة فرصة جديدة في هذا العالم المملوء من النواقص الواجب سدُّها ، وازاء هذه الطبيعة البشرية المصنوعة على شكل نرى معهُ ان كل كلمة لطيفة او مساعدة زهيدة قد تحوّل البلاء عن احد اخواننا في الجنس او تفتح امامهُ سبيل النجاح ، وتجاه مواهبنا الخاصة المرتبة بحيث نستطيع الوصول الى خيرنا الأسمى باجتهادنا المتواصل ، وتجاه عددٍ لا يحصى من الامثلة التي تحرّضنا على العمل والاندفاع

لا تنتظرْ سنوح فرصتك بل أوجدْها كما أوجدها الراعي الذي فرغوسن عندما عدّ مسافات النجوم بسجيته ، وكما فعل جورج ستفنسن عندما تعلم قواعد الرياضيات بقطعة من الطباشير على جدران احدى مركبات الفحم في منجم ، وكما فعل نبوليون في مائة موقف كان يعدُّهُ الناس مستحيلاً ، وكما أوجد جميع قوّاد البشر في الحرب والسلم فُرَص النجاح لذواتهم. فالفرص الذهبية ليست شيئًا مع الكسل ولكنّ الاجتهاد يجعل الفُرَص العاديةَ ذهبيةً

قال الشاعر الانكليزي ما ترجمتهُ :

ان في حياة الناس مدًّا وجزرًا فمن استفاد من المدّ توصل الى الثروة واما من اهملهُ فانهُ يظلّ حياتهُ بأسرها في شقاء . فعلينا ان نستفيد من التيار عندما يخدمنـــا والاَّ ذهبت مساعينا سدًى

وان الفرصة لا تسنح مرّتين فاغتنم الحظ عندما يبتسم لك ويدلُّك الواجب على الطريق . وإياك ان تُحجِم تجاه شبح المخاوف الذي يتمثل لك او تتردد تلبيةً لداعي المسرّات الذي يناديك بل سر نحو غرضك بشجاعة وإقدام

وقد جاء في حديث نبويّ : "من فتح باب خير فلينتهزهُ فانهُ لا يدري متى يغلق عليهِ"

وقال الإمام علي : إضاعةُ الفرصة غُصَّة

وقال الشاعر :

اذا هبَّت رياحُك فاغتنمها — فان الخافقات[1] لها سكونُ
و إن وَلَدَتْ نياقُكَ فاحتلبها — فلا ندري الفصيل[2] لمن يكونُ



(١) يقال خفقت الريح اذا صوّتت بهبوبها وسمع لها حفيف ودوي
(٢) ولد الناقة اذا فصل عن امه.

ن.ث.

الفصل الثاني

ابناء الفقر

ان اجمل الازهار تنبت في التربة الأشدّ سوادًا واعلى الاشجار واقواها تنمو شامخةً الى العلاء بين الصخور – هولند

ان الفقر هائل وكثيرًا ما يخمد فينا كل عزيمة ولكن ريح الشمال القاسية هي التي تجعل الرجال يندفعون في البطولة واما ريح الجنوب الناعمة اللذيذة فانها تجعلهم يستغرقون في الاحلام – وهذا

الفقر هو الحاسة السادسة – مثل المدني

ليست كل مصيبة لعنة بل كثيرًا ما يكون الفقر في اول العمر بركة . فالمصاعب التي نجتازها ونتغلب عليها لا ينحصر نفعها لنا بتدريبنا واكسابنا خبرةً بل انها تُعطينا شجاعةً في معاركنا المقبلة – شارب

لا شك في ان القابضين على ازمة الصناعة في العالم اليوم انما هم رجال بدأُوا حياتهم على مهاد الفقر – ساث لو

ان المسكنة سلّم الطمع – شكسبير

بينما كان بعض الاحداث في دانمرك يلعبون ذات يوم نهضت فتاةٌ صغيرة جميلة منهم وقالت : " انا احدى بنات البلاط ووالدي احد الضباط الذين يشغلون فيه منصبًا عاليًا . واني اعتقد ان الاشخاص الذين في نهاية اسمائهم "سن" لا يقدرون

ان يكونوا شيئًا مذكورًا . فعلينا ان نبغي سواعدنا مخنيةً ومرافقنا[1] حادّةً لندفع هؤلاء الاشخاص عنا وندعهم على مسافةٍ بعيدة منّا"

فاجابتها ابنة التاجر الغني بترسن بغضب : "ان والدي يقدر ان يشتري بمئة دولار حلويات يوزعها على الاولاد فهل في طاقة ابيكِ ان يفعل ذلك ؟"

وقالت ابنة صحافيّ : "ان ابي يقدر ان ينشر اسم والدكِ واسم والد أيٍّ كان في جريدتهِ وقد قال انّ كل الناس يخافونهُ لانهُ يستطيع ان يفعل ما يشاؤهُ بالجريدة"

وكان غلامٌ صغيرٌ يُخالس هؤلاء الفتيانَ النظر من خلال شقّ الباب بعد الاستئذان من الطاهي الذي كان يحرّك له سفّودًا[2] على النار فقال في نفسهِ : "يا ليتني واحدٌ من هؤلاء". ولكن أنّى له ذلك ووالداهُ لا يملكان شروى نقير[3] وفي نهاية اسمهِ "سن"

ومَضَتْ على هذا الحادث سنون صار في خلالها اولئك الاولاد الصغار رجالاً ونساء ففي ذات يوم ذهب فريق منهم لرؤية قصرٍ فخمٍ جديد مزدان بفاخر الاثاث والرياش فرأوا هناك صاحبهُ ايضًا . وما كان صاحب القصر الاّ ذلك الولد الذي كان يخالسهم النظر من خلال شقّ الباب بينما هم يلعبون . وقد اصبح نقّاشًا عظيمًا وهو ثوروالدسن المعروف

وقد ذُكرت هذه القصة في تاريخ وضعهُ رجلٌ دانمركيٌّ كان والدهُ مصلح احذية فلم يمنعهُ عن بلوغ اوج الشهرة فقرهُ واسمهُ الذي هو هانس كريستيان اندرسن

والولد الأصمُّ كيتو توسّل الى والدهِ ان يأخذهُ من الملجإ ويمكّنهُ من المجاهدة لاكتساب العلم والتهذيب قائلاً : "لا تخشَ عليّ يا أبتِ من الهلاك جوعًا . فنحن في يُسر والحمد لله وعندي وسائل عديدة ادفع بها عن نفسي شرّ الجوع . فان رجال الهوتنتوت يعيشون مدّة طويلة دون ان يتناولوا طعامًا الاّ قليلاً من الصمغ . واذا

---

(١) المرفق موصل الذراع في العضد (٢) حديدة يشوى عليها اللحم

(٣) الشروى المثل والنقير نكتة في النواة يكون منها منبت النخلة وهو مثل يضرب في الفقر

برّح(١) بهم الجوع ربطوا بطونهم بحزام متين . أفلا استطيع ان أحذو حذوهم؟(٢) ثم ان الوُشُع(٣) فيها كثيرٌ من ثمر العلّيق والبندق والحقول ملأى من اللفت . اما في الليل فان كومة من التبن تكون لي فراشًا وثيرًا(٤)"

فهذا الغلام الأصمّ الذي كان والده رجلاً سكيرًا وقد كان يُظَنُّ انه خيرٌ له ان يعيش في احد الملاجئ يصنع احذية من ان يعيش متسوّلاً صار من أعظم علماء الكتاب المقدس وقد ألّف كتابه الاول في المشغل الخاص بالفقراء

وكان كربون عبدًا يونانيًا الاّ انه كان ايضًا عبدًا لإلاهة الفنّ والنبوغ . وكان اليونان بعد ان صدّوا غارة الفرس عن بلادهم قد وضعوا شريعة حظروا بها الاشتغال بالفنون الجميلة على غير الرجال الاحرار . وكان كربون اذ ذاك منهمكًا في صنع مجموعة تماثيل يأمل ان ينال عليها تقريظ فيدياس اعظم نقاشي ذلك العصر وثناء بريكليس(٥) ايضًا

فحار في أمرهِ لانه كان قد أذاب في المرمر الذي بين يديهِ رأسهُ وقلبهُ ونفسهُ وحياتهُ ولطالما جثا على قدميهِ ضارعًا الى الآلهة مستمدًا منها الإلهام حتى بات يعتقد بافتخار ان الاله ابولون استجاب صلواتهِ وحرّك يديهِ وكأنهُ نفخ في تلك التماثيل روحًا حتى اصبح الناظر اليها يحسبها مخلوقات حية . لكنهُ في ذلك الموقف بات يعتقد أن جميع الآلهة قد تخلّت عنهُ

وقد شعرت شقيقتهُ المخلصة كليون بشدة الصدمة كما شعر اخوها فرفعت صوتها بالصلاة الى الالاهة عفروذيت قائلةً : " يا عفروذيت الخالدة يا ابنة زفس ذات العرش الرفيع يا ملكتي وإلاهتي وشفيعتي التي كل يوم أُقدّم الى هيكلها القرابين

(١) آذاهم إيذاء شديدًا (٢) أفعل فعلهم (٣) جمع وشيع وهو ما جُعِل حول الحديقة من الشجر والشوك منعًا للداخلين (٤) لينًا (٥) احد مشاهير رجال السياسة في أثينا وكبار خطبائها كان عظيم النفوذ على مواطنيهِ وقد نشّط الفنون والآداب بينهم وزين آثينا بكثير من الابنية الفخمة ويُعدّ عصرهُ أزهى العصور التي مرّت على بلاد اليونان وقد توفي سنة ٤٢٩ ق.م

منكِ أسأل المعونة والحماية لي ولأخي"

ثم خاطبت اخاها قائلة: "هلمَّ يا أخي الى السرداب الذي تحت بيتنا فهو مظلمٌ ولكنني سأُقدّم لك ما تحتاج اليهِ من نورٍ وغذاء وهناك تفرّغ لانجاز عملك والآلهة تساعدنا"

ففعل كما قالت وأكبَّ في ذلك السرداب على عملِهِ المجيد المحفوف بالخطر وعناية شقيقتهِ وسهرها برافقانهِ ليلاً ونهارًا

وفي تلك الاثناء أُقيم معرضٌ للفنون في اثينا دُعي اليهِ كلُّ اليونان وقد تمَّ ذلك في ساحة الاغورا برئاسة بريكليس وكانت جالسةً الى جانبهِ زوجتهُ اسباسيا وبالقرب منهُ فيدياس وسقراط وسوفوكليس وغيرهم من العظماء . وقد عُرِضت هنالك بدائع من آثار كبار رجال الفن ولكن الذي اجتلب الانتبـــاه العام من الزائرين ومن رجال الفن ايضاً انما هو مجموعة تماثيل كانت تظهر أجمل من سواها حتى كأنَّ صانعها ابولون نفسهُ. فتعالت الاصوات قائلة: "من هو صانع هذه المجموعة؟" فلم يكن من مجيب . فتكررت السؤالات ولكن على غير جدوى . فاخذ الجميع يرددون: "ان في الامر لسرًا . ألعلَّ هذه المجموعة صُنعُ عبد؟" واذا بالضباط يسوقون الى الأمام عذراء جميلةً مشوّشة الثيـــاب منبوشة الشعر ذات نظرةٍ ثابتة وشفتين مقفلتين وهم يقولون: "ان هذه المرأة تعرف النقّاش الذي صنع هذه المجموعة ولكنها تأبى ان تبوحَ باسمهِ"

فسئلت كليون ولكنها لم تُحر جوابًا فأُعلن لها ان اصرارها هذا يجرُّ عليها عقابًا شديدًا فلم يؤثر فيها ذلك وظلت ملازمة الصمت فقال بريكليس: "ان القانون صريح في مثل هذه الحالة ولما كنتُ المطالَبَ بإنفاذهِ آمُر بأخذ هذه الفتاة الى السجن"

وما كاد يُتمُّ كلامهُ حتى اندفع الى الامام شاب منبوش الشعر ذو عينين سوداوين تنبثق منهما اشعَّة الحذق والنبوغ فوقف امــــام بريكليس قائلاً: "أي

بريكليس اعفُ عن الفتاة وأطلق سراحها فأنا المذنب وهي شفيقتي . ان المجموعة هي صنع يديَّ اللتين هما يدا عبد "

فأخذ الجمع بناطعةٍ باشمئزازٍ و يصيح : " الى السجن . الى السجن " أمَّا بريكليس فوثب عن مقعدهِ صارخًا: " كلاَّ . ان ذلك لايكون وانا حيٌّ . انظروا الى هذه التماثيل . أن الاله ابولون يحكم لنا بواسطتها أنَّ هنالك شيئًا أعلى من شريعةٍ جائرة في اغريقية . فالغرض الاسمى من الشريعة انما هو انماء الجمال وترقيتهُ . واذا خلدَت اثينا في ذاكرة البشر وأحرزت محبتهم فلا شيء يُخلِّدها الاَّ نكريها الفنَّ والنبوغ . فليس الى السجن يمضي بالشاب بل الى جانبي "

واذ ذاك وضعت اسباسيا اكليل الزيتون الذي كانت تحملهُ بيديها على جبين كريون امام الجمهور المحتشد ثم قبَّلت شقيقتهُ المخلصة الشفوقة بحنوٍّ عظيم بين تصدية الايدي والهتاف العام

وقد نَصَب الاثينيُّون تمثالاً لايسوب الحكيم وهو عبدٌ ليعلِّموا الناس ان طريق الشرف مفتوحٌ للجميع . وكانت الثروة وخلود الذكر عند اليونان الجائزة المحققة لكل من يتفوَّق في الفنون او الآداب او الحرب . ولم تفعل بلادٌ اخرى ما فعلتهُ تلك البلاد لتنشيط ارباب الجدارة المجاهدين و إيقاظ هممهم

وهاك ما رواهُ نائب الرئيس هنري ويلسن عن نفسهِ قال : وُلدت فقيرًا ولازمتني الفاقة منذ كنت في المهد . وقد ذقت طعم سؤال الأمّ قطعةً من الخبز في حين ليس لديها شيء لتعطيهُ . وتركتُ البيت في العاشرة من سِنيَّ واستُخدِمتُ في الحادية عشرة وكنت ادرس شهرًا في كل سنة و بعد احدى عشرة سنة من العمل الشاقّ كان لديَّ زوج ثيران وستة خراف أكسبتني اربعة وثمانين دولارًا ولم أُنفق في عمري فلسًا واحدًا على ملذاتي بل كنت اوفّر كل درهم أُحصِّلهُ من يوم نشأت الى ان بلغت الحادية والعشرين من العمر . وقد عرفت معنى السفر امیالاً عديدة لسؤال اخواني من البشر كي يسمحوا لي بعمل اعيش منهُ . وقد ذهبت في الشهر الاول

بعد بلوغي الحادية والعشرين الى الغابات سائقًا عربة تجرُّها الثيران لِأقطع حطبًا للمطحنة . وكنت انهض كل يوم قبل الفجر وأظلُّ مكبًا على عملي الصعب الى ما بعد الغَسَق (١) لأقبض ستة دولارات مرتبًا شهريًا . فكان كلٌّ من تلك الدولارات يظهر لي كأنهُ البدر في جنح الدجى

وصمَّمَ المستر ويلسن على ان ينتهز كل فرصة تسنح لهُ لاكتساب التهذيب والتقدُّم وقلَّ من عرف مثلهُ قيمة اوقات الفراغ القصيرة فانهُ كان يغتنمها كما لو كانت ذهبًا ولا يدع دقيقة منها تمرُّ دون ان يستفيد منها كلَّ ما يستطيع استفادتهُ وقد تمكّن ان يطالع الف كتاب مفيد قبل ان بلغ الحادية والعشرين وتلك عبرةٌ جليلة للغلمان الذين ينشأُون في المزارع . ولما ترك المزرعة توجَّهَ الى ناتيك ماس ماشيًا على قدميهِ مسافة مائة ميل ليتعلم السكافة واجتاز ببوستن ليشاهد بناية بنكر هيل وغيرها من المعالم التاريخية وبلغ كل ما انفقهُ في رحلتهِ هذه دولارًا وستة سنتات ولم تمرّ عليهِ سنة هناك حتى صار رئيسًا لأحد اندية المباحثات في ناتيك وقبل مُضيّ ثماني سنوات ألقى خطابهُ المشهور ضدَّ الاسترقاق في مجلس ولاية ماساشوست الاشتراعيّ . وبعد اثنتي عشرة سنة جلس في مجلس الشيوخ الاميركيّ بجانب صامنر الاديب . فعندهُ ان كل فرصة هي فرصة عظيمة وقد اتخذ من كل حال من احوال حياتهِ وسيلة للنجاح

وهوراس غريلي عندما كان يكتب في صحيفة "الغازيت" وجاء ليقبض رواتبهُ المستحقة من المستر ستريت قال لهُ هذا : "دعني أُسلّمك كتابة الى المخزن لاعطائك ثيابًا جديدة لانهُ لا يليق بك التجوُّل بين الناس بهذه الأثواب الأخلاق (٢)" فأخذ يُجيل نظرهُ في تلك الثياب كأنهُ لم يرَ قبل ذلك الحين ما هي عليهِ من الرثاثة ثم اجاب : "لا يخفى عليك يا مستر ستريت ان والدي قد انتقل الآن الى مدينة جديدةٍ وعليَّ ان أُساعدهُ جهد الطاقة" وكان كل ما انفقهُ هوراس في خلال سبعة

(١) ظلمة اول الليل (٢) البالية

اشهر ستة دولارات وهو مزمعٌ ان يقبض مئة وخمسة وثلاثين دولارًا فاستبقى منها لحاجاتهِ الخاصة خمسة عشر دولارًا ودفع الباقي الى ابيهِ الذي كان قد انتقل واياهُ من ڤرمونت الى بنسلفانيا الغربية وقضى ليالي عديدة ساهرًا في العرآء[١] حارسًا الهُ غنمهُ من الذئاب . ومع انهُ كان طويل القامة ذا شعر بلون القنَّب ووجه اصفر وصوت مترجرج عزم ان يسعى لكسب رزقهِ في مدينة نيويرك . فمشى ستين ميلاً في غابات بفَلو حاملاً صرَّة ثيابهِ بعصًا فوق كتفهِ واجتاز الترعة على قارب صغير الى ألبَني ثم قطع نهر الهدصن على زورق وبلغ نيويرك عند طلوع الشمس يوم ١٨ آب لسنة ١٨٣١

وقد وجد لنفسهِ غرفة يقدَّم لهُ فيها طعامهُ مقابل دولارين ونصف في الاسبوع . ولم يكن قد انفق في رحلتهِ البالغة ستماية ميل الاَّ خمسة دولارات . وظلَّ اياماً عديدة يطوف الشوارع ويدخل الى المخازن والمكاتب سائلاً عن محلّ للعمل دون ان يظفر بغيتهِ . وقد خالهُ الكثيرون نظرًا لغرابة مظهرهِ مستخدَمًا فارًّا من محل عملهِ . ففي يوم أحدٍ سمع في المنزل الذي كان مقيمًا فيهِ أنَّ احدى المطابع في حاجة الى طبَّاعين. فما قُرِعت الساعة الخامسة صباحًا حتى كان على باب تلك المطبعة وفي السابعة طلب من المدبر عملاً . فلم يدُر في خَلَد المدبر ان هذا الغلام القرويّ يستطيع ان يمارس طبع الكتاب المقدس بلغاتٍ عديدة وهو العمل الذي يحتاجون اليهِ بل قال لمن معهُ: "عينوا لهُ خدمة وسنرى هل يستطيع ان يقوم بعملٍ ما" ولما جاء صاحب المطبعة اعترض على ادخالهِ وطلب من المدبر ان يلقي حبلهُ على غاربهِ عند المساء . الاَّ ان هوراس اظهر في ذلك اليوم دقة واجتهادًا لم يظهرا من سواهُ

وبعد مضيّ عشر سنوات صار شريكـــًا في مطبعة صغيرة ثم أسس جريدة اسبوعية سمَّاها "النيويوركي" كانت افضل صحيفة من نوعها في الولايات المتحدة الاَّ انها لم تصادف الرواج المطلوب . ولما تولَّى هريسن رئاسة الجمهورية سنة ١٨٤٠

(١) الفضاء لا يستتر فيهِ بشيء

أسس جريدةً يوميةً بلغ عدد ما يطبع منها تسعين الف نسخة وهو عدد لم يسبق له مثيل حتى ذلك العهد الاّ انهُ لم يكسب مالاً فقد كان ثمن النسخة منها نصف غرش. فاصدر بعدها جريدة " النيويرك تريبون " وجعل ثمن النسخة منها سنتًا . وقد أضطرَّ ان يستدين الف دولار ليتمكَّن من اصدارها وطبعَ من العدد الاول منها خمسة آلاف نسخة فلم يتمكن من توزيعها كلها وكان عدد مشتركيها في البداءة ستماية الاّ انهم زادوا حتى بلغوا بعد ستة اسابيع احد عشر الفًا . ثم زاد الاقبال عليها قبل ان يتمكن من ايجاد آلاتٍ طابعة جديدة لتلبية الطلب. فكانت صحيفةً يتوخى صاحبها دائمًا ان يصيب المرمى و إن أخطأ احيانًا

وجيمس غردون بنيت كان قد فشل في جريدتهِ "نيويرك كورير" سنة ١٨٢٥ وفي جريدتهِ " الغلوب" سنة ١٨٣٢ ثم في جريدتهِ " البنسلفانيان " والمعروف عنهُ انهُ كاتبٌ صحافيٌّ مجيد وقد حصَّل باجتهادهِ واقتصادهِ مدَّة اربع عشرة سنة عدَّة مئات من الدولارات . ففي سنة ١٨٣٥ سأل هوراس غربلي ان يشاركهُ في اصدار جريدة يومية جديدة باسم " النيويرك هرلد " فلم يجبهُ هوراس الى ما طلب ولكنهُ أوصى بهِ اثنين من صغار اصحاب المطابع فشاركاهُ وصدرت " الهرلد " في ٦ ايار سنة ١٨٣٥ وليس لديها من راس المال إلاّ ما يكفي لدفع نفقاتها مدَّة عشرة ايام فقط . وقد استأجر بنيت قبوًا في وول ستريت وكان ما جهزهُ بهِ من الاثاث كرسيًا ومنضدةً هي عبارة عن لوحة موضوعة على برميلين . وهناك اخذ يقوم بنفسهِ بكل الاعمال ما عدا الطباعة وباشر اصدار جريدة يومية كبرى مستوفية كل الشروط وهو ما لم يكن قد سبق لهُ مثيلٌ في اميركا . وما برح هذا الشاب يجاهد في الوصول الى غرضهِ مهتمًّا في السبق في ابراد الاخبار وتوسيع نطاقها شيئًا فشيئًا حتى اشتهرت جريدتهُ بايرادها اخبار العالم اليومية باستيفاء وسرعة تضاهي بها اكبر رصيفاتها بل تزيدها احيانًا في التفاصيل وتسبقها في ابراد الانباء . ولم يكن يضنُّ بسعيٍ ولا بمالٍ في سبيل استفاء الاخبار بسرعة وتلقّيها عن مصادر وثيقة في كل موضوع يهمُّ الجمهور. ولا ريب ان

ذلك مركبٌ خشنٌ ولكن نجاحهُ قد ظهر اخيرًا بافتتاحهِ اكبرَ واتمّ بناية معروفة للصحافة في برودواي وانّ ستريت

وأَوّلُ شيء يسترعي انتباه من يزور مكتب جورج تشيلد الخاص في فيلادلفيا عبارةٌ اتخذها شعارًا له منذ كان فتى لا يملك شيئًا فكانت سبب نجاحهِ وهي: "لا شيء بدون جدٍ" فقد وضع نصب عينيهِ منذ صباهُ امتلاك جريدة "فيلادلفيا لدجر" وبنايتها الكبرى. لكن أنى لغلامٍ بائسٍ مرتبهُ دولاران في الاسبوع ان يتوصّل الى تحقيق هذه الامنية . على انهُ كان قويّ الارادة ماضيَ العزيمة فلم يحفل بالمصاعب وحالما تمّ له جمع بضع مئات من الدولارات من عملهِ في احد مخازن الكتب بصفة كاتب افتتح له عملاً خاصًّا بطبع الكتب ونشرهـــا . فاصاب في بعض الكتب التي نشرها (كرحلة كابن الى القطب) نجاحًا مذكورًا لانهُ كان ذا رأيٍ صائبٍ في انتقاء ما يروق الجمهور من المؤلفات

ومع ان جريدة (لدجر) كانت تخسر خسارة متزايدة يومًا فيومًا لم يستطع اصدقاؤُهُ ان يُقنعوهُ بالعدول عن مشتراها. وفي سنة ٨٦٤ا تحققت تلك الامنية التي طالما صبا اليها وكان اوّل ما اتاهُ عندئذٍ أنْ ضاعف بدل الاشتراك وأنقص اجرة الاعلانات فاستغرب الجميع منهُ ذلك ولكنّ الجريدة دخلت اذ ذاك في عهدٍ جديدٍ من النجاح والرواج حتى ان ارباحها صارت تبلغ احيانًا اربعمائة الف دولار في السنة . وكان يرفض انقاص مرتبات عمّالهِ ولو أجمعت كل الادارات في فيلادلفيا على مثل ذلك

وفي ما يأتي ايضًا عبرةٌ لمن اعتبر . حدث في مأدبة في ليون منذ قرن ونصف أنْ ثارت مناقشةٌ حادّة بشأن تفسير المعنى المقصود من صورة تمثّل بعض الحوادث الميثولوجية او التاريخية اليونانية . فلما رأى رب المنزل تفاقُمَ الجدال التفت الى احد الخدم وسأله ان يفسّر معنى الصورة . وَلَشَدّ ما كان دَهشُ الحاضرين عندما سمعوا ذلك الخادم يُفيض في الشرح والتفصيل بطريقةٍ أقنعت الجميع وكان كلامهُ فصل

الخطاب . فالتفت احدهم الى الخادم وخاطبهُ باحترامٍ عظيم قائلاً : " في اي مدرسة تلقيتَ دروسك ؟ " فاجاب : " انني قد درستُ يا مولاي في مدارس عديدة ولكن المدرسة التي قضيت فيها أطول مدَّة واكتسبت منها اعظم الفوائد هي مدرسة البؤْس " وقد اصاب في قولهِ انهُ استفاد اجلّ الفوائد من مدرسة البؤْس فمع انهُ لم يكن في ذلك الحين الاَّ خادمًا حقيرًا لم تلبث اوربا بأسرها ان تجاوبَتْ في انحائها اصداءُ كتابات جان جاك روسو[1] اعظم نوابغ عصرهِ وبلادهِ

وقد وضع سبنسر وهو غلام فقير حافي القدمين المبادئ الاساسية للاسلوب المعروف باسمهِ في الكتابة وهو ابدع معرض لفنّ الخطّ والرسم على رمال شاطئ بحيرة اري الناعمة بدلاً من الورق

ووليم كوبت ظلّ مدة ثماني سنوات تابعًا المحراث ثم نزح الى لندن حيث اخذ يتعاطى نسخ الاوراق الشرعية مدة ثمانية او تسعة اشهر وبعد ذلك انتظم في سلك الجندية وانضمّ الى احدى فرق المشاة . وقد اشترك اثناء السنة الاولى من خدمتهِ العسكرية في مكتبةٍ في شاتهام وطالع كل ما فيها من الكتب وأكبَّ على الدرس والتحصيل وهاك ما رواهُ عن نفسهِ :

تعلمت الغراماطيق وانا جنديٌّ بسيط براتب ستة بنسات في اليوم مقعدي الذي ادرس عليهِ حافة سريري ومزودي قِمَطري[2] ومِنضدتي لوحة أضعها في حِجري . ولم يكن لديَّ مال أشتري بهِ مصباحًا او زيتًا وكان من النادرِ في ليالي الشتاء ان احصل على نور ما عدا نورَ النار وذلك اثناء نوبتي في الخدمة فقط . وكنت أُضطرُّ ان اتخلى عن مشترى قسم من القوت الضروريّ لي لاشتري قلم رصاص او طلحية ورق ولو بقيت متحملاً آلام الجوع الشديد . ولم يكن لي دقيقة من الوقت استقلّ بها

(١) هو كاتب وفيلسوف افرنسي شهير من مؤلفاتهِ " الميثاق الاجتماعي " و" اميل " وقد كان لكتاباتهِ تأثير عظيم على الثورة الافرنسية الكبرى (١٧١٢–١٧٧٨)

(٢) القِمطَر وعاءٌ تصان فيهِ الكتب

لنفسي فكان عليَّ ان اقرأ واكتب بين حديثٍ وقهقهةٍ وغناء وجلبةِ عددٍ لا يقلّ عن عشرين جنديًّا من لا يفكّرون بشيء وذلك حين هم بمعزلٍ عن كل مراقبة . اما الفلس الذي كان عليَّ ان انفقهُ من حين الى آخر لمشترى قلم رصاص او حبر او ورق فقد كان مبلغًا باهظًا جدًّا بالنسبة اليَّ . فقد كنت على ما انا عليهِ اليوم من طول القامة وامتلاء الجسم وحسن الصحة ومواصلة الرياضة البدنية . وكان مجموع ما يوفرهُ كلٌّ منا بعد نفقاتهِ بنسين في الاسبوع . واذكر انني احتلت مرّةً لتوفير نصف بنس بعد نفقاتي الضرورية اليومية وصممت على ان اشتري بهِ سمكةً في الصباح وكان الجوع قد بلغ مني مبلغهُ ولكنني لما خلعت ثيابي في الليل وجدت ان نصف البنس قد ضاع فغطّيت رأسي بملاءتي الحقيرة وجعلت أبكي كالطفل " الاّ أن كوبت جعل بؤسهُ واحوالهُ الحرجة نفسها تخدم شغفهُ الزائد بالعلم والنجاح . وقد قال : " اذا كنت في وسط هذه الاحوال الصعبة امكن من تحصيل العلم فهل يبقى في العالم كلهِ شابٌّ يجد لنفسهِ عذرًا في القعود عن الدرس والتحصيل "

وهمفري داڤي لم تكن احوالهُ تساعدهُ على احراز قسطٍ وافرٍ من العلم الاّ انهُ كان ممتلئًا عزمًا ونشاطًا فجعل المراجل والقدور والقناني تساعدهُ على التحصيل والكسب بينما كان يُجرّب ويدرس في علية الصيدلية التي كان مستخدمًا فيها

وقال ثرلو ويد : ان كثيرين من اولاد المزارعين وجدوا خير الفرص للترقي العقلي في اوقات فراغهم . وهذا ما اختبرتهُ بنفسي . فانهُ ليس على المرء في الليل من عمل الاّ تقديم العلف للمواشي وإيقاد النار لانّ اللبن يُجمع والحطب يُقطع قبل وقوع الغسق . وفي اثناء النهار يجمعون عادةً كومة كبيرة من عيدان الصنوبر كثيرًا ما قضّيت الليل في المطالعة على ضوءها اللامع . واني أتذكر اني طالعت في مثل هذه الحالة تاريخًا للثورة الفرنسية وقفتُ منهُ على حقائق متعلقة بحوادثها وفظائعها أدقّ واوسع من كل ما وقفتُ عليهِ في مطالعاتي التالية . واني لأذكر ايضًا ما كنت أشعرُ بهِ من السرور لتمكني من استعارة بعض الكتب من رجل اسمهُ مستر كابن كان مقيمًا

على مسافة ميلين منّا فكنت اذهب اليهِ ماشياً على الثلج وانا حافٍ رابطٌ قدميَّ ببقايا خِرَق سجاد

وثيودور باركر كان الابنَ الاصغرَ لبنّاء مطاحن في لكسنكتون . فذاتَ يومٍ من شهر آب بعد الظهر قال لابيهِ: "هل لك يا أبتِ ان تجعلَ لي نهار غد يوم عطلة ؟" فعجب ابوهُ لان الوقت كان وقتَ عملٍ لكنهُ رأى في ملامح ابنهِ الدالّة على الرغبة الشديدة أنَّ لديهِ سبباً غيرَ عاديٍّ بحملهِ على هذا الطلب فاجابهُ اليهِ . ففي الصباح التالي نهض ثيودور من فراشهِ باكرًا جدًّا ومشى في وسط الغبار الثائر مسافة عشرة اميالٍ الى كلية هارڤرد وتقدم للامتحان بقصد الانخراط في سلك التلامذة . ولم يكن قد تمكّن من الدخول الى احدى المدارس ومتابعة الدروس فيها بصورة مطّردة منذ كان في الثامنة من عمرهِ ولكنهُ كان يذهب اليها ثلاثة اشهر في الشتاء ويراجع دروسهُ في ذاكرتهِ بينما هو سائرٌ وراء السكّـة والمحراث او منهمكٌ في خِدَمٍ اخرى .

وكان يشغلُ كلَّ اوقات فراغهِ بمطالعة كتب مفيدة يستعيرها . الاَّ انهُ كان في حاجة الى كتاب لم يتمكن من استعارتهِ فجعل ينهض صباح كل يوم من ايام الصيف ويجمع من ثمر التوت والعليق سلالاً يرسلها الى بوستن للبيع وهكذا توفر لديهِ من المال مبلغ كافٍ اشترى بهِ معجماً للغة اللاتينية وهو الكتاب الذي كان يودّ الحصول عليهِ

فلما عاد في المساء متأخرًا الى البيت وأخبرَ والدهُ أنهُ نجح في تقديم الامتحان قال لهُ والدهُ : "أحسنتَ يا بُنيَّ ولكنني لا استطيع الاستغناء عنك لتبقى هناك" فاجابهُ : "انني لن أبقى هناك بل سأدرس في البيت في اوقات فراغي وأستعد للامتحان وهكذا أتمكّن من الحصول على الشهادة النهائية" وهذا الذي فعلهُ . ولما ترعرع زاول حرفة التعليم ردحًا من الزمن ريثما جمع مبلغًا من المال تمكن بهِ من متابعة الدروس سنتين في الجامعة المذكورة ونال احدى رتبها العلمية . وبعد عدّة سنين صار من اصدقاء سيوارد وشابز وصامنر وغريسون وهوراس مان ووندل فيلبس وباتوا يعتمدون

على رايهِ ومشورتهِ. وكان لهُ تأثيرٌ في سبيل الخير شعرَ بهِ جميع مواطنيهِ . وطالما كان يُسرّ بتذكرهِ جهاداتهِ في ايام صباهُ وانتصاراتهِ على المصاعب بين صخور لكسنكتون وغاباتها

قال اليهو بوريت : انني لم أشعرْ في حياتي قطُّ بسَوْرة الفخر[1] كما شعرت حين فهمت للمرّة الاولى معاني الخمسة عشر بيتًا الاولى من الياذة هوميروس[2]. وقد فقد اليهو بوريت والدهُ وهو في السادسة عشرة من عمرهِ فوُضع عند حدّاد في قرية ليتعلم صناعتهُ. وكان عليهِ ان يزاول[3] الحدادة عشر ساعات او اثنتي عشرة ساعة كلَّ يوم الاَّ انهُ كان وهو يضرب بالمطرقة يحلُّ في ذهنهِ بعض المسائل الحسابيَّة الصعبة . وفي يوميتهِ المحفوظة في ورسستر حيث ذهب بعد عشر سنوات للمطالعة في مكتبتها تجد بين ما تجدهُ السطور الآتية : "الاثنين في ٨ حزيران صداع — ٤٠ صفحة من كتاب كوفيه عن الارض — ٦٤ صفحة بالفرنسية — ١١ ساعة حدادة . الثلاثاء في ١٩ حزيران ٦٠ سطرًا بالعبرنيَّة — ٣٠ بالدنمركية — ١٠ بالبوهيمية — ٩ بالبولونية — ١٥ اسمًا من اسماء الكواكب — ١٠ ساعات حدادة . الاربعاء في ٢٠ حزيران ٢٥ سطرًا بالعبرية — ٨ بالسريانية — ١١ ساعة حدادة". وقد أتقن ١٨ لغة . وأحرز مقامًا رفيعًا بمآتيهِ النبيلة في خدمة الانسانية وعُرِف "بالحداد المتعلم" وقد قال ادورد اثرت عن النهج الذي نهجهُ هذا الغلام الفقير حتى تمكن من احراز العلوم: "ان ذلك وحدهُ يكفي لان يجعل الشخص المتوفرة لديهِ وسائل التحصيل والاكتساب يُطرِق برأسهِ خجلاً"

والفتاة كريستين نلسن نشأَت بين مخالب الفاقة في بلاد اسوج البعيدة ولكنها اكتسبت إعجاب العالم بأسرهِ بموهبتها العجيبة في الغناء مضافةً الى جمالها الفتان

قال الدكتور نلماج مخاطبًا الشبان : دعوني أُذكِّركم شيئًا يتعلق باحوالكم

(١) أثرهُ وعلامتهُ وارتفاعهُ (٢) اشهر شعراء اليونان صاحب الالياذة والاوذيسة
(٣) يعالج

الصعبة في هذا العالم وهو أنكم في الوقت الحاضر في احوالٍ مماثلةٍ كلَّ المماثلة لأحوال الاشخاص الذين سيقبضون على ناصية النجاح في النهاية . فاحفظوا كلماتي هذه وتذكَّروها بعد ثلاثين سنة . فانكم ستجدون في ذلك الحين أنَّ الذين صاروا من كبار اصحاب الملايين ، ومن مصاقع(١) الخطباء ، ومن مشاهير الشعراء ، ومن اكابر التجّار ، ومن المجلِّين(٢) في اعمال الخير – ومن ارفعِ الناس شأنًا في الدين والدولة انما هم من الاشخاص الذين انتم وإياهم الآن في مستوى واحدٍ لا يعلونكم قيراطًا واحدًا ولا تمتاز احوالهم على احوالكم بشيء

تقولون ان لا رأسَ مالٍ لديكم لتباشروا عملاً . فاذهبوا الى احدى المكاتب واشتروا منها بعض الكتب واقرأوا عما اعطاكم الله من الجهاز العجيب في ايديكم وارجلكم وعيونكم وآذانكم ثم سلوا احد الاطباء ان يمضي بكم الى غرفة التشريح ويريكم صُوَر ما قرأتم ولا تعودوا فتجدِّفوا بقولكم أنْ لا رأسَ مالٍ لديكم لتباشروا عملاً . إنَّ في حَوْزة أفقر شاب منكم جهازًا لا يقدِرُ أن يجهِّزَهُ بمثلهِ الاَّ خالق الكون العظيم

وان بائع الصحف من اقلّ الناس املاً بالنجاح في اي خُطَّة من خُطَط هذه الحياة . اذ لا يمكن ان يبدأ شابٌ جهادهُ في الدنيا بحظٍ أقلَّ مما يبدأ بهِ بائعُ الصحف لكسب معيشتهِ . ومع ذلك نرى أنَّ الرجل الذي توقَّفَ عليهِ اكثر ما على كل احد سواهُ تقدُّمُ اميركا الصناعيُّ قد بدأ جهادهُ في الحياة بصفة بائع جرائد في السكك الحديدية . ذلك هو توماس الفا اديسن حين كان في الخامسة عشرة من سنيهِ . وكان هذا الغلام قد بدأ في ذلك الوقت ايضًا يخوض في مباحث علم الكيمياء وقد نظَّم مختبرًا صغيرًا نقّالاً . فبينما هو ذات يوم يقوم باختبارٍ سرّيّ تعوَّج القطار وانكسرت قنينة الحامض الكبريتي فانبعثت منها رائحةٌ كريهةٌ جدًّا وحدث اختلاطٌ غير طبيعي وكان سائق القطار قد احتمل طويلاً فنفدت جعبةُ(٣) صبره

(١) بلغاء (٢) السابقين (٣) اصل معناها كنانة السهام

والحال قذف بالغلام الى الخارج بعد ان أصابه بلكمة شديدة على أُذُنهِ

ومرّت باديسن بعد ذلك ايضاً حالاتٌ مُجِعة[1] ولكنهُ احتملها كلها بجَلَد وثبات الى ان تسنم ذَروة[2] العرش العلميّ في العالم وهو لا يزال في مقتبل الشباب. وعندما سُئل مؤخراً عن سرّ نجاحهِ أجاب انهُ ينحصر في مبالغتهِ في اجتناب المسكر والاعتدال في كل شيء ما عدا العمل

ثم ان دانيال مانتغ وهو الذي ادار الحركة الانتخابية الاولى للرئيس كليفلند ثم صار سكرتيراً للخزينة بدأ جهادهُ في الحياة بصفة بائع صحف وكلُّ ما في العالم معاكسٌ له . ومثلهُ ثرلو ويد ودافيد هيل . ويظهر ان نيويرك أنجبت[3] كثيرين من باعة الجرائد وموزّعيها الذين طمحوا الى المعالي وكان الفوز نصيبهم

وما القولُ في شابين خاملَي الذكر لم يحرزا من العلم نصيباً يُذكَر جمعها الاتِّفاق في احد بيوت بوستن حيث كان كلٌّ منهما مكترياً غرفة لمأواهُ فتعاهدا وتعاقدا على مُقاومة قانونٍ مبنيٍّ على الدستورِ الاميركيِّ نفسهِ يؤيدهُ علماء ومشترعون وكنائسُ ومتموّلون وارستوقراطيون على اختلاف المذاهب الدينية والسياسية . وأنى علّقا آمالهما بالفوز والتغلب على اعتقادات أمةٍ كاملةٍ واميالها ؟ الاّ ان هذين الشابين كانا متحمّسَين لمبدإ نبيل مستعدَّين للتفاني في سبيلهِ . وكان احدهما بنيامين لندي قد انشأ في اوهايو جريدة سماها "موهبة الحرية العامة" كان يحمل جميع نسخها من المطبعة الى بيتهِ على ظهرهِ كل شهر والمسافة تبلغ عشرين ميلاً . وكان قد جاء الى تنيسي ماشياً مسافة اربعمئة ميل للسعي في زيادة عدد مشتركيهِ . فهو ليس كأيّ رجل غيرهِ من الناس . وقد وضع يدهُ في يد وليم لويد غريسون عازماً على متابعة مسعاهُ بعزمٍ أشدَّ في بلتيمور . اما غريسون فكان شاباً لم تتمكن والدتهُ نظراً لضيق ذات يدها من ارسالهِ الى المدرسة ولكنها غرست في صدرهِ كَرَاهِيَةَ الظلم والاستبداد . وكان منظرُ حظائرِ العبيد المقامة في الشوارع الكبرى والقوافلِ المجلوبة من هؤلاء

(١) موجعة (٢) تسنم ارتقى وذروة الشيء اعلاهُ (٣) ولدت

البؤساء المبعدين عن بيوتهم وعيالهم بقصد الارسال الى المرافئ الجنوبية ، والمشاهد الممزقة للقلوب في بيوت الدلالة ، كلٌّ ذلك قد أثّر على عقلهِ تأثيرًا لا يُمحى فوطّد عزمهُ على ان يخصص حياتهُ للسعي من اجل تحرير هؤلاء المنكودي الحظّ

وقد دعا غريسون في اول عدد من جريدتهِ الى إبطال الرقّ فثارت عليهِ ثائرةُ الجمهور وقُبض عليهِ وسيق الى السجن . فتأثر لهذا الحادث صديق لهُ اسمهُ جون هو يتيار مقيمٌ في الشمال الّا انهُ لم يكن في سعةٍ من العيش تمكّنهُ من دفع الغرامة عنهُ فكتب الى هنري كلاي متوسلاً اليهِ لتأدية الغرامة عنهُ او السعي لإطلاق سراحهِ . فأُفرج عنهُ بعد تسعة واربعين يومًا قضاها في السجن . وقد قال عنهُ وندل فيلبس : " انهُ سُجن من اجل اعتقادهِ وهو في الرابعة والعشرين وقاوَمَ أُمّةً باسرها وهو لا يزال في اوّل العمر "

ثمّ أنشأ غريسون في بوستن جريدةً دعاها " الليبراتور " ولا مالَ لديهِ ولا اصدقاء ولا نفوذ واستأجر لإدارتها وتحريرها غرفةً صغيرة في طبقة علويّة . وهاك ما اعلنهُ في اوّل عدد اصدرهُ منها : " انني سأكون قاسيًا فظًّا كالحقيقة ، بعيدًا عن اللين كالعدل ، حارًّا ، ولن ألجأ الى الابهام ، ولا أعذر ، ولا اتراجع عن خطتي قيراطًا واحدًا ، وأُريد ان يسمعَ الناسُ كلامي " ولعمري انها لجُرأةٌ تُذكَر من شابٍ رطب العود يرى العالمَ كلّهُ متألبًا ضدّهُ

وقد كتب القس روبرت هاين من كارولينا الجنوبية الى اوتيس محافظ بوستن يسألهُ عن اسم منشئ " الليبراتور " لأنّ بعض اصدقائهِ كان قد ارسل اليهِ عددًا منها فاجابهُ : " ان منشئ هذه الجريدة شابٌّ فقير يُصدر وُرَيقتهُ الخالية من المعنى في كوخ مظلم ولا مساعد لهُ الّا غلامٌ زنجيٌّ وأنصارهُ اشخاص قلائل من الوان مختلفة لا نفوذ لهم على الاطلاق "

ولكنّ هذا الشابّ الفقير الذي كان يأكل وينام ويُصدرُ جريدتهُ في " كوخ مظلم " قد نبّه الافكار الى الموضوع الذي يدعو اليهِ ورأى خصومهُ من الواجب

القضاء عليهِ. فوضعت جمعية اليقظة في كارولينا الجنوبية جائزة الف وخمسمئة دولار لإيقاف ومطاردة كل من ينشر جريدتهُ و يروِّجها ، ووضعَ حكّام ولاية او ولايتين جائزةً للفتك بهِ ، ووضع مجلس جيورجيـــا الاشتراعي جائزة خمسة آلاف دولار لايقافهِ واثبات الجرم عليهِ . واشتدَّت الحملة عليهِ وعلى اتباعهِ ومريديهِ في كل انحاء الولايات المتحدة حتى ان الرعاع قتلوا قسيسًا اسمهُ لوفجوى في ايلينويز لانهُ جاهر بالانتصار لمبداءِهِ . واصبحت الامة الاميركية كلها تغلي من اجلهِ كأنها في حرارة الحمى . وكان الصراعُ طويلاً وعنيفًا بين ابناء الشمال وابناء الجنوب حتى في ولاية كاليفورنيا البعيدة . وبلغت المأساة أشدَّها في اثناء الحرب الاهلية . ولما وضعت تلك الحرب اوزارها وكان ذلك بعد جهاد باسل دام خمسًا وثلاثين سنة دعا الرئيس لنكلن غريسون باسم الامة لمشاهدة راية النجوم مرفوعة ثانيةً على حصن صامتر وهناك وقف احد العبيد الذين نالوا الحرية بمساعيهِ وتكلم مرحبًا بهِ ثم جاءت ابنتاهُ وقدمتـــا لغريسون اكليلاً من الزهر اعترافًا بجميلهِ

ونحو ذلك الوقت توفي في لندن ريشرد كوبدن وهو رجلٌ آخر كان من اكبر نصراء المظلومين . مات والد ريشرد عن اولادٍ تسعةٍ دون ان يترك لهم من حُطام[1] الدنيا شيئًا يستعينون بهِ على معيشتهم . فجعل ريشرد يحرس غنم جارهِ لتحصيل قوتهِ . ولم يُتَح لهُ الذهاب الى المدرسة الاَّ لمَّا بلغ العاشرة فأُرسل اذ ذاك الى مدرسة داخلية وهناك أُسيئت معاملتهُ جدًا ولم يكن يُعطى الاَّ قليلاً من الطعام ولا يُؤذَن لهُ بالكتابة الى اهلهِ الاَّ مرَّة في كل ثلاثة أشهر . ولما صار في الخامسة عشرة دخل مخزن عمهِ في لندن بوظيفة كاتب وقد تمكن من تعلُّم اللغة الفرنسية بنهوضهِ باكرًا وإكبابهِ على الدرس بينما سائرُ رفقائهِ نيامٌ . ثم جُعِل وكيلاً متجوِّلاً وأُرسل ليطوف البلاد في عربة

وقد زار جون بريت مستنهضًا هِمَّتهُ لمكافحة قانون الحنطة المخيف الذي كان من

(١) حطام الدنيا ما فيها من مال قليل او كثير

مقتضاهُ سلب القوت من الفقير واعطاؤُهُ للغنيّ . فوجدهُ في اشدّ حالات الحزن لان امرأتهُ كانت ملقاةً في البيت ميتةً . فقال لهُ : "ان في انكلترا اليوم الوفًا من البيوت تموت فيها زوجاتٌ وأُمهاتٌ واولادٌ من الجوع . فالآن وقد مضت سورة الحزن الاولى أرى الأفضل ان توافي معي لنواصل جهادنا ولا نذوقنّ طعم الراحة قبل ان يلغى قانون الحنطة الجائر" فقد نفد(١) صبر كوبدن ولم يبقَ لهُ طاقة على ان يرى خبز الفقير محجوزًا في الجمرك ومضروبةً عليهِ الرسوم الفادحة خدمةً لمصلحة الملاَّك والمزارع فحصر قواهُ في السعي الى اصلاح هذه الحالة قائلاً : "ان هذه المسئلة لا تختصُّ بحزب من الاحزاب بل ان جميع افراد الامة على اختلاف احزابهم متفقون عليها فهي مسئلةُ مؤونةٍ بل هي خلافٌ بين الطبقة العـــاملة التي تُعدّ بالملايين وطبقة الارستوقراطيين" وقد أَلّفَ كوبدن وبريت حزبًا باسم "العصبة المقاومة لقانون الحنطة" وساعدتهما المجاعة التي تفاقم امرها في ابرلندا ففازا بالغــاء القانون المذكور سنة ١٨٤٦ وقد قال جون بريت : "لا بيتَ بين بيوت الفقراء في بريطانيا العظمى الاَّ وقد أَصبح يحصل على رغيفٍ أكبر حجمًا وأَرخصَ ثمنًا بمساعي ريشرد كوبدن"

وجون بريت نفسهُ كان ابن عاملٍ فقير وقد كانت ابواب المدارس العالية في ذلك الحين موصَدَةً(٢) في وجه من كان في مثل حالتهِ . ولكنّ القلبَ النبيل الذي في صدر هذا الفتى العالي الهمة تأثر تأثرًا عظيمًا لحالة الملايين من الفقراء في انكلترا وابرلندا الذين كانوا يهلكون جوعًا من جرَّاء قانون الحنطة . ففي اثناء المجاعة الهائلة التي ذهبتْ بحياة مليونَيْ نفس في ابرلندا في خلال سنة واحدة كان جون بريت أعظمَ حولاً(٣) من كل اعيان انكلترا . وكان جميع الارستوقراطيين يرتجفون تجاه قوّة حجتهِ وتأثير بلاغتهِ واخلاقهِ الموجبة الاحترام . وما عدا كوبدن لم يفعل احد ما فعلهُ بريت في سبيل جعل يوم العامل أقصر ورغيفهِ أرخص وأُجرتهِ أكبر

ودونك قُصّةَ غلامٍ فقيرٍ اسمهُ ميخائيل فارادي كان يعيش في احد اصطبلات

(١) فرغ (٢) مقفلة (٣) قوة

لندن ويحمل نسخًا من الجرائد في الشوارع يعيدها لزُبُن معيّنين لقاء بنس يأخذهُ من كلّ منهم . وقد ظلّ يتمرّن مدّة سبع سنوات عند مجلِّدٍ وبائعِ كتب . وبينما كان يعمل ذات يوم في تجليد دائرة المعارف البريطانية وقع نظرهُ على مقالة في الكهربائية فطالعها بتمامها. ثم جاء بقارورةٍ من زجاج ومِرْجَل[1] قديم وبعض موادّ بسيطة وجعل يجري بعض الاختبارات . وكان أنّ احد الزُبُن اهتمّ بأمر هذا الغلام لما رآهُ من شغفهِ بالعلم ومضى بهِ لسماع محاضرة للسر همفري داڤي عن الكيميـــاء . فتشدّدت عزيمتهُ وجعل يكتب ما يقولهُ العالم المذكور ثم ارسل المذكرات التي اخذها عن المحاضرة الى احدى الصحف . فحدث بعد قليل انهُ بينما كان ذات ليلة يتأهب للرقاد اذا بعربة السر همفري داڤي وقفت امام بيتهِ الحقير ونزل منها خادم دفع اليهِ رسالةً من العالم المذكور يدعوهُ فيها لزيارتهِ في صباح الغد . فلم يكد ميخائيل يُصدّق نظرهُ وما انبثق الصباح حتى بادر لتلبية الدعوة فعهد اليهِ السر داڤي في تنظيف بعض الادوات ونقلها الى غرفة المحاضرة وإرجاعها منها. وقد صرَف همّهُ الى مراقبة كل حركة من حركات داڤي بينما كان هذا يجري اختباراتهِ ببعض المواد الانفجارية وعلى وجههِ قناعٌ زجاجيٌّ. ثمّ انصرف ميخائيل الى الدرس والتجربة بنفسهِ ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى دُعي الى القاء محاضرة لدى الجمعية الفلسفية الكبرى . وبعد ذلك عُيِّن استاذًا في الاكاديمية الملكية في ولويخ وصار أُعجوبة زمانهِ في العلم وقد قال عنهُ تندل انه اكبر فيلسوف اختبـــاريّ عرفهُ العالم . ولما سُئل السر همفري داڤي ما هو اعظم اكتشاف وُفِّق اليهِ اجاب : " هو ميخائيل فارادي "

ويُؤثَر عن الغلام الفقير دزرائيلي الذي صار فيما بعدُ لورد بيكنسفيلد وكبيرَ وزراء بريطانيا انهُ قال : " ان ما أُجري في الماضي يمكن ان يُجرَى في المستقبل . فما انا بعبدٍ ولا اسيرٍ وفي وُسعي ان أَتغلّبَ بالثبات والعزم على مصاعب اعظم من التي انا فيها " فالدم الاسرائيلي كان يجري في عروقهِ وكل الاحوال كانت معاكسة لهُ ولكنهُ

(١) قِدْر

تذكَّرَ مثال يوسف الذي صار وزيرًا لفرعون ملك مصر منذ اربعة آلاف سنة ، ودانيال الذي صار وزيرًا اوّل لاعظم ملك مستبدّ في العالم لخمسة قرون خلت قبل ميلاد المسيح ، فاندفع في الجهاد واخذ يرتقي بين صفوف الطبقة الدُنيا ثم بين صفوف الطبقة العليا الى ان تسلّق(١) قمة السيادة وبلغ أوجَ القوّة السياسية والاجتماعية. ولما كان بعض النوّاب يحتقرونهُ ويهزأُون بهِ ويصفرون له في مجلس العموم اكتفى بأن قال لهم : " سيأتي يوم تسمعونني فيهِ " . وقد جاء ذلك اليوم وذلك الفتى البائس الذي لم يكن لهُ من مساعدٍ الاّ ارادتهُ الثابتة قبَضَ على صولجان انكلترا مدّة ربع قرن

وكان هنري كلاي واحدًا من سبعة اولاد لارملة مسكينة لم يمكنها ضيق ذات يدها من ارسالهِ إلاّ الى مدرسة قرويّة تُعلّم العلوم الابتدائية فقط . الاّ أنهُ أكبَّ على الدرس دون استاذ في اوقات الفراغ حتى صار بعد سنوات احد افراد الرجال الذين ارتقوا باجتهادهم الشخصيّ . وهذا الغلام الذي تمرّن على الخطابة في احد الاهراء(٢) ولبس امامهُ الاّ فرسٌ وبقرةٌ صار من اعاظم خطباء اميركا وسياسييها

وكذلك سي كپلر الذي غالَبَ البُؤْس والشقاء وأُحْرِقَتْ كتبهُ علنـًا بأمر الحكومة وأُقفِلَتْ مكتبتهُ بيد اليسوعيين ونُفِي من البلاد لسُخط العامة وهياجها عليهِ . وقد واصل العمل سبع عشرة سنة بهدوءٍ لإثبات القواعد العلمية الكبرى عن ان السيارات تدور على شكل اهليلجي مع الشمس حول نقطة مركزية واحدة ، وان خطًّا يصل مركز الارض بمركز الشمس يقطع مسافات متساوية في اوقات متساوية ، وأنْ مربعات اوقات دوران السيارات حول الشمس تعادل مكعباتِ متوسِّطِ أبعادها عن الشمس . فهذا الغلام الفقير صار أحَدَ أقطاب(٣) علم الهيئة في المعمور!

وقال اسكندر دوماس : لما وجدتُ انني اسود صمّمت على ان اعيش كما لو

---

(١) تسوّر (٢) جمع هُرْي وهو بيت كبير تجمع فيهِ المؤن

(٣) الرؤساء الذين يرجع اليهم في المسائل

كنتُ ابيض وأرغمَ الناس بهذه الطريقة على صرف النظر عن لون بشرتي

وما أشدَّ الضيق الذي كان فيه جيمس شاربلز الحداد الذي صار من اشهر رجال الفنّ في انكلترا . فقد كان من العوز على جانب عظيم ولكنهُ اعتاد ان ينهض كل يوم الساعة الثالثة صباحًا ويُكِبّ على نسخ كُتُب لا قِبَلَ(١) له بشرائها . وكان يمشي احيانًا مسافة ثمانية عشر ميلاً الى منشستر ثم يعود منها بعد ان يشتري موادّ فنية بقيمة شلن واحد . وكان يطلب أشقّ الاعمال في معمل الحدادة لِأنّ إحماءها في الكور يقتضي وقتًا أطوَل يتفرّغ فيهِ لدِراسة الكتاب الثمين الذي كان يُسْندُ الى المدخنة . ونظرًا لقلّة اوقات الفراغ لديهِ كان يستعمل كلاً منها كأنهُ لن يحصل على مثلهِ فيما بعدُ وقد وضع في اوقات فراغهِ على مدّة خمس سنوات كتابًا نادر المثال سمّاهُ (الكور) تُرى نسخة في أكثر بيوت اميركا وانكلترا

وهل كان لغليلو حظٌّ بإحراز قصب السبق في الطبيعيات او علم الهيئة مع إرغام اهلهِ له على الذهاب الى مدرسة طبية ؟ الّا انهُ بينما كان اهل البندقية مستغرقين في رقادهم كان هذا النابغة يقف في برج كاندرائية القديس مرقس حيث اكتشف اقار المشتري واوجه الزُّهرة بواسطة مرصدٍ صغير صنعهُ بيدهِ . ولما أُجبر وهو منحني الركبتين على المجاهرة بانكار بدعتهِ بدوران الارض حول الشمس لم تقوَ كل فظائع ديوان التفتيش على منعهِ عن ان يردّد لنفسهِ : "بل انها تدور". وبعد أن زُجّ في السجن ظلّ مندفعًا برغبتهِ الحارة في الابحاث العلمية حتى برهن بواسطة عود صغير في حجرتهِ الضيقة على ان الأنبوبة الجوفاء لها من القوّة النسْبيّة اكثرُ مما لقضيبٍ مصمَتٍ(٢) من الحجم نفسهِ . وقد ظلّ يجاهدُ بنشاطٍ وثبات حتى بعد فقدانهِ بصرهُ

وليتصوّر المرء فرط ما أحدثهُ من الدَّهش في الجمعية الملكية في انكلترا التقرير الذي قدّمهُ اليها هرشل وهو اذ ذاك رجلٌ بائسٌ غير معروف معلنًا فيهِ اكتشافهُ للسيّارة اورانوس وفلكها وسرعةِ سيرها وحلَقاتِ زُحَلَ واقمارهِ . ذلك

---

(١) طاقة (٢) لا جوف له

الغلام الذي كان يضرب على المزمار لتحصيل قوته والذي اصطنع بيده مرصداً تمكن بواسطته من اكتشاف حقائق غير معروفة عند فلكيي العصر المجهزين بأفضل الآلات وأحدثها . وكان قد سحق مئتي نظارة قبل ان توصّل الى صنع نظّارة وافية بالمراد

وجورج ستيفنسن كان واحداً من ثمانية اولاد لأبوين مُدقِعَين[1] يعيشون معها في غرفة واحدة . وكان جورج يرعى بقراً لأحد جيرانه الاّ انه كان في اوقات فراغه يصنع آلات من الطين وغلايين من قضبان الشوكران . وفي السابعة عشرة عُهد اليه بالاعتناء باحدى آلات الاطفاء مع ابيه الذي جُعِل من رجال المطافئ . لم يكن يُحسِنُ القراءة ولا الكتابة ولكنّ الآلة كانت له خير استاذ وهو لها خير تلميذ . فكان في ايام الاعياد يفككها وينظّف قِطَعها ويدرس كلاًّ منها على حدةٍ ويقوم باختبارات عديدة بينما سائر العملة يتلهّون بالعاب متنوعة او يسترسلون الى البطالة والشرب في الحانات . ولما علا شأنه وعُدّ مخترعاً عظيماً بما احدثه من التحسينات في الآلات صار رفاقه الذين كانوا يقضون اوقاتهم في اللهو والطرب ينسبون نجاحهُ الى سعده وحسن طالعه

وشرلوت كشمان مع انها لم تكن على شيء من جمال الصورة اقدمت على الانخراط في سلك الممثلات والوقوف في مقدمتهنّ حتى في ما كان من الادوار كادوار روزالند والملكة كاترين . وحدث ان الممثلة الاولى مرضت يوماً فحلّت محلّها الآنسة كشمان التي كانت تدرس عليها . فأدهشت الحاضرين بفرط ذكائها وقوّة ارادتها حتى نسوا خلوّها من المحاسن النسائية وحالما أُنزل الستار وبدأت في التمثيل للمرة الاولى في ملعب لندن احرزت الشهرة التي تستحقها مع انها فقيرة لا صديق لها ولم تكن معروفة من قبل . ولما أنبأها الاطباء في السنين التالية انها مصابة بمرض مخيف غير قابل الشفاء لم تخُرْ عزيمتها بل قالت بهدوء : " لقد تعلمتُ ان اعيش مع اضطراباتي "

(1) المدقع الفقير الملتصق بالتراب

وكانت امرأة مسكينة زنجيَّة في احدى ولايات اميركا الجنوبية تعيش مع فتيانها الثلاثة في كوخ خشبيّ . ولم يكن في وسعها ان تقدِم الاَّ ثوبًا واحدًا للثلاثة . على انها كانت شديدة الاهتمام بتعليمهم وتهذيبهم فجعلت ترسلهم الى المدرسة بالتناوب . فلاحظت المعلمة وهي فتاة من احدى الولايات الشمالية أنّ كلاًّ منهم يجيء الى المدرسة يومًا من كل ثلاثة ايام وأنّ جميعهم يلبسون الثوب نفسهُ . فهذه الأُم المسكينة قد علّمت اولادها بقدر ما مكّنتها حالتها . وقد صار احدهم استاذًا في احدى الكليات والآخر طبيبًا والثالث قسيسًا. فما أعظم هذه العبرة للفتيات الذين يعتذرون بفاقتهم عن تضييعهم حياتهم سُدًى

وسام كونارد الغلام السكتلندي من غلاسكو حفر اشكالاً ورسومًا غريبة مختلفة بمُدْيَتِهِ[1] بذكاء مفرط ولكنهُ لم يكسب بشيء منهـا مالاً ولا شهرة وظل على هذه الحالة الى ان قصدت شركة برنز وماك ايفور للملاحة ان تزيد في التسهيلات لجلب البُرُد الاجنبية فاصطنع لها بناء على طلبها رسمًا بنت بموجبهِ اول باخرة لشركة كونارد الكبرى ثم اصبحت تلك الباخرة انموذجًا لكل البواخر الفاخرة التي أُخذت تلك الشركة تنشئُها من ذلك الحين

وكرنيليوس ڤندربلت لم يكن لديهِ في المدرسة من الكتب الاَّ العهد الجديد وكتاب مبادئ القراءة فتعلَّم بها ان يقرأ ويكتب ويخطَّ الارقام قليلاً . وكان يوَدُّ ان يشتري قاربًا ولكنهُ كان صِفرًا[2] اليدين من المال . فحاولت امهُ ان تُثبِّط[3] عزمهُ وتثنيهُ عن هذا الغرض فقالت لهُ انهُ اذا شـاء ان يحرث عشرة فدادين عيَّنتها لهُ من مزرعة ابيهِ وهي أَصلبُ تلك الارض وأصعبها وأكثرها صخورًا وان يَعزِقَها[4] ويبذُرَها حنطةً في خلال سبعة وعشرين يومًا فانها تُقرِضهُ المال اللازم لهُ . فأكبَّ على ذلك العمل بهمَّة لا تعرف الملل وانجزهُ قبل حلول الأجل المضروب واشترى قاربًا يوم عيد ميلادهِ عند بلوغهِ السنة السابعة عشرة من العمر . الاَّ انهُ بينما كان

(١) سكينة (٢) خالي (٣) تعوق (٤) يشقها

عائدًا بهِ الى المرفإ اصطدم بقارب غريق فغرق قاربهُ وقد أوشك ان يبلغ بهِ الشاطئ.
ولكن كرنيليوس لم يكن ممن تثنيهِ المصاعب فعاود تجربتهُ ولم تمرَّ عليهِ سنوات ثلاثٌ حتى جمع ثلاثة آلاف دولار وكثيرًا ما كان يعمل الليل بطولهِ وقد حصل في اقرب وقت على عطف جميع الملاحين الذين في المرفإ ورعايتهم. وفي خلال حرب سنة ١٨١٢ اتفق مع الحكومة على جلب المؤن الى المحطات العسكرية بقرب العاصمة. فكان يتمّم المطلوب منهُ ليلاً ويسيّر قاربهُ نهارًا بين بروكلن ونيويورك. ومع انهُ كان يقدّم لوالديهِ كلَّ ما يكسبهُ في النهار ونصف ما يكسبهُ في الليل بلغت ثروتهُ وهو في الخامسة والثلاثين ثلاثين الف دولار. ولما مات بعد ان صار شيخًا طاعنًا في السن ترك لاولادهِ الثلاثة عشر ثروةً من اكبر الثروات في اميركا

واللورد الدن كان في حداثتهِ في حالة شديدة جدًّا من العوَز والضيق ولم يكن في طاقتهِ ان يذهب الى المدرسة او أن يشتري كتبًا. ولكنهُ كان مقدامًا ماضي العزيمة فصمّم على ان يجاهد الى ان يقبض على ناصية النجاح. فكان ينهض كل يوم الساعة السابعة صباحًا وينسخ كتب قانون يستعيرها. وقد بلغ من نشاطهِ في الدرس أنهُ كان يَظَلُّ مكبًّا على المطالعة أحيانًا حتى يكلَّ دماغهُ ويتولاَّهُ الإعياء فيعمد عندئذٍ الى منديل مبلّل فيعصب بهِ رأسهُ ليظلَّ مستيقظًا ومتابعًا العمل. ولم يكسب في السنة الاولى التي قضاها متمرّنًا الاَّ تسعة شلنات الاَّ ان ذلك لم يحملهُ على اليأس. ولما ترك الدن مجلس العموم ربت(١) مندوب الحكومة في المجلس على كتفهِ قائلاً: ايها الشاب ان خبزك مضمون على مدى الحياة". فهذا الغلام الذي نشأ في أشدّ حالات الفاقة أحرز لقب لورد وصار مستشارًا للدولة الانكليزية واحد اعاظم رجال القانون في زمانهِ

"وكان ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف العربي الشهير على جانب عظيم من العوَز فكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف ويستضيء بقنديل الحرّاس وبقي على

(١) ضرب بيدهِ

ذلك الى ان عظم شأنهُ وظهر فضلهُ وكَثُرَت تلاميذهُ"

وستيفن جيرارد ترك بيتهُ في فرنسا وهو في العاشرة من سنيهِ وجاء الى اميركا بصفة خادم للركاب في الباخرة . وقد وضع نُصْبَ عينيهِ ان يتسلّق ذروة النجاح مهما اعترضهُ من العقبات وأعلن استعدادهُ لقبول اي عمل يتيسر لهُ مهما كان شاقًا مزعجًا. فكان كميداس(١) يحوّل كل شيء يلمسهُ الى ذهب حتى صار من اغنى تجار فيلادلفيا . وليست محبتهُ المفرطة لجمع المال ما يجدُرُ اقتفاء آثارهِ فيهِ الاَّ أنَّ إتقانهُ لكل عملٍ يعملهُ وتفانيهُ في خدمة المصلحة العامة في اوقات الحاجة ومخاطرتهُ بحياتهِ لتخليص الغرباء المصابين بالحمى الصفراوية كلُّ ذلك صفاتٌ نبيلةٌ يحسن التشبُّهُ بهِ فيها

ويوحنا وانا ميكر كان يمشي كل يوم اربعة اميال الى فيلادلفيا ويعمل في مخزن كتب بمرتب دولار وخمسة وعشرين سنتًا في الاسبوع ثم انتقل الى مخزن ملابس واخذ يعمل فيهِ بزيادة خمسة وعشرين سنتًا في الاسبوع . وظلَّ يرتقي السُلَّم درجةً فدرجةً حتى صار من اكبر التجار وفي سنة ١٨٨٩ عيّنهُ الرئيس هريسون ناظرًا عامًا للبريد فاظهر من المهارة العمليّة في هذه المهمة ما استحق بهِ الاعجاب

وادمونيا لويس الزنجية لم يصدَّها استخفاف الناس بلونها الاسود وأُنثويتها عن مباراة الأقران في صناعة النقش حتى فازت بالشهرة والمجد

وفريد دوغلاس بدأ جهادهُ في معترك الحياة من اقلّ من لا شيء . فانهُ لم يكن يملك شيئًا من حطام الدنيا ولا جسدهُ ايضًا لانهُ كان مرهونًا من قبل ان يُولَدَ لإيفاء ديون سيدهِ . وحتى يصل الى المركز الذي يبدأ منهُ أفقرُ ولدٍ أبيضَ جهادهُ كان عليهِ ان يتسلق الأكَمَةَ التي يتعيَّنُ على الآخر أن يتسلقها لكي يصل الى مركز رئاسة جمهورية اميركا . ولم يقيّض لهُ ان يرى والدتهُ الاَّ مرّتين او ثلاثًا لانها كانت

(١) هو ملك فريجية جاء في الاساطير القديمة انهُ طلب من الاله باخوس ان يتحوَّل كل شيء يلمسهُ الى ذهب فكان لهُ ذلك ولكنهُ لما رأى ان كل الأشياء التي كان يلمسها حتى الطعام الذي قدَّم اليهِ وابنتهُ التي قبَّلها قد تحوَّلت الى ذهب سأل ان تنزع منهُ هذه النعمة

قُطرٌ ان تجتاز في الليل مسافة اثني عشر ميلاً لتبقى معهُ ساعةً من الزمن ثم تسرع في رجوعها بحيث تكون عند انبثاق الفجر في الحقل . ولم يُتحْ لهُ ان يدرس اذ لم يكن لهُ من يعلّمهُ وقانون الزراعة كان يحظر على العبيد تعلُّمَ القراءة والكتابة . الاّ انهُ تمكن من تعلم الحروف الهجائية خفيةً عن سيدهِ من قطع اوراقٍ وتقاويمَ طبيّة واضحة وبعد ذلك لم يقف تقدُّمهُ عند حدّ . فقد سبق الوفًا من الاولاد البيض وألبسهم ثياب الخجل . وفرَّ من العبودية عندما بلغ الحادية والعشرين وذهب الى الولايات الشمالية وأخذ يعمل في نيو يرك وبدفورد في تفريغ البواخر وتحميلها . وسنحت لهُ فرصة للتكلم في نانتكت اثناء اجتماع معقود لمقاومة الاسترقاق فكان لكلامهِ وقعٌ عظيمٌ حتى جُعِل وكيلاً لجمعية مقاومة الاسترقاق في ماساشوست . وكان منصبًّا على الدرس بكل ما أُوتيهِ من عزمٍ وقوةٍ أثناء تنقُّلهِ من مكان الى آخر لإلقاء محاضرات. ثم أُرسل الى اوربا للخطابة وهناك اكتسب صداقة بعض كبراء الانكليز فأعطوهُ مبلغ ٧٥٠ ليرة سترلينية اشترى بها حرّيتهُ . وقد أصدر جريدةً في روشستر نيويرك ثم تولى ادارة جريدة (النيوايرا) في وشنتن . ولبث جملة سنوات مرشالاً لمقاطعة كولمبيا

وثَمَّةَ غلامٌ وُلد في كوخ خشبي ولم يُتحْ لهُ الدخول الى المدارس ولا الحصول على كتب ولا الدرس على معلم ولا غير ذلك من الوسائل العاديّة وقد كسب اعجاب الجنس البشري بأسرهِ بحكمتهِ العمليّة اللطيفة لما كان رئيسًا للولايات المتحدة اثناء الحرب الاهلية وقد أعتق أربعة ملايين نفس من قيد العبودية . تمثَّلهُ وهو شابٌ طويلٌ نحيفٌ غريب الشكل يقطع الاشجار ويبني كوخهُ الخشبي دون بلاط ولا نوافذ يتعلم الحساب والغراماطيق لنفسهِ في المساء على نور الموقدة ، وهو لشدّة شوقهِ الى الاطلاع على شروح بلاكستون(١) مشى على قدميهِ مسافة اربعة واربعين

(١) قانونيّ انكليزي كبير وضع شروحًا جليلة للقوانين والشرائع وكتبهُ كثيرة الرواج في انكلترا واميركا

مهلاً لإحراز هذه المجلدات الثمينة وطالع منهـــا مائة صفحة حال رجوعهِ . ذلك هو ابرهيم لنكلن الذي لم يرث شيئًا ولم يحصل على شيء بطريقة الحظ . وسرّ نجاحهِ محصورٌ في ثباتهِ العجيب واستقامة قلبهِ

وفي كوخ خشبي آخر في غابات اوهايو كانت ارملة مسكينة حاملة بين يديها طفلاً لهُ من العمر ثمانية عشر شهرًا وهي تفكّر في طريقة لصدّ غائلة الذئاب المفترسة عن اطفالها الصغار . وقد نما ذلك الطفل وبعد سنوات صار يقطع حطبًا ويحرث الارض لمساعدة والدتهِ ويقضي كل دقيقة من اوقات فراغهِ في مطالعة الكتب التي يستعيرها اذ لم تكن لهُ طاقة على مشتراها . ولما بلغ السادسة عشرة قبل بملء السرور ان يسوق بغالاً على طريق فوق ترعة . وبعد قليل أُنعم لهُ ان يكنس الارض ويقرع الجرس في احدى المدارس العالية مقابل نفقات تلقيهِ العلوم فيها

ثم دخل مدرسة جوغا اللاهوتية وقد اقتضت سنتهُ الاولى فيها من النفقات سبعة عشر دولارًا . ولما عاد في السنة التالية لم يكن في جيبهِ الاّ ستة بنسات وهذه القيمة لم يلبث ان وضعها في الغد في صندوق التبرعات في الكنيسة . ثم اتفق مع احد النجارين على ان يعمل عندهُ في جلاء الالواح وغسل الثياب والوقود والضوء باجرة دولار وستة بنسات في الاسبوع على أن يكون لهُ الحق بالعمل ليلاً وفي ايام السبوت بقدر ما يمكنهُ . واتفق ان وصولهُ كان يوم سبت فجلا واحدًا وخمسين لوحًا تناول اجرة عنها دولارًا وسنتين . ولما انتهت المدّة المدرسية كان قد دفع كل نفقاتهِ وبقي في جيبهِ ثلاثة دولارات. ثم انهُ في شتاء السنة التي بعدها علّم في احدى المدارس الابتدائية لقاء اثني عشر دولارًا مرتبًا شهريًا مع مبيتهِ وطعامهِ بالتناوب في بيوت التلامذة . فاجتمع لديهِ في الربيع ثمانية واربعون دولارًا . ولما عاد الى المدرسة تناول مع احد البيوت على مبيتهِ وطعامهِ ببدل قدرهُ واحد وثلاثون سنتًا في الاسبوع

ولم يلبث ان دخل كلية وليم فاحرز رتبتها العلمية مع لقب الشرف بعد سنتين. وما زال يتقدّم حتى صار عضوًا في مجلس الشيوخ وهو في سن السادسة والعشرين ثم

دخل مجلس الكونغرس وهو في سن الثالثة والثلاثين . ذلك هو جيمس غارفيلد .
وقد كانت الفسحة بين حصولهِ على وظيفة قرع الجرس في كلية حيرام وصيرورتهِ رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة سبعاً وعشرين سنة . وان في هذا المثال ما يوقظ عزائم الشبان اكثر مما في كل الثروات التي جمعها آل استور وآل ڤندربلت وآل غولد

ثم ان بين أبطال الانسانية وأكابر المحسنين اليها عدداً آخر غير يسير ممن نشأُوا على مهاد الفاقة في أحقر الأكواخ وخاضوا معامع الدهر غير متكلين الاَّ على الله وعلى عزائمهم الشخصية

قال مؤلف انكليزي كان يراجع كتاباً يتضمن تراجم مشاهير الاميركان :
"يظهر أنَّ الأكواخ الحقيرة هي مهادٌ لكل رجال اميركا العظماء"

فليس لولدٍ مهما كان بائساً ان ييْأَسَ ما دام في يدهِ خمسة حظوظ ونصب عينيهِ غرضٌ لا يتزعزع . وان في الدنيا سبلاً للكسب والنجاح امام كل شاب بشرط ان يكون صادق العزيمة مستعداً لاغتنام الفرص التي تسنح لهُ . ولا فرق بين ان يكون قد وُلد في كوخ خشبي او في قصر شامخ فانهُ اذا كان موطناً نفسهُ على النهوض الى العلى فلا الناس ولا الشياطين تقدر على إبقائهِ في الحضيض



الفصل الثالث

الاستفادة من اوقات الفراغ

اذا كنت تحب الحياة فلا تُضع الوقت سدًى لان الوقت هو المادة المصنوعة منهـا الحياة — فرنكلن

ان الخسارة الحادثة في دقيقة قد لا يعوضها الزمان باسره — شاعر قديم

ان الساعات تمرّ ولكنها مقيَّدة على حسابنا — كتابة منقوشة على ساعة شمسية في اكسفرد

قد ضيَّعت الوقت والآن الوقت يضيعني — شكسبير

صدّقني اذا قلت لك ان محافظتك على الوقت تنيلك في مستقبل حيـاتك فوائد اعظم جدًّا مما تتمناهُ ، وان تضييعك اياهُ يجعلك تنحطّ انحطاطاً عقلياً وادبياً فوق ما تتصوّر — غلادستون

بين شروق الشمس وغروبها ساعتان من ذهب مرصعتان بستين دقيقة من الالماس . وهما قد أُضيعتا في مكان ما . ولم توضع جائزة للبحث عنهما لانهما لا ترجعان — هوراس مان

وقف رجلٌ ساعةً امام مخزن الكتب التابع لادارة جريدة بنيامين فرنكلن ثم سأل المُستخدَمَ قائلاً : ما هو ثمن هذا الكتاب ؟

اجابهُ المستخدم : دولار

فقال الرجل : ألا يمكنك اعطاؤهُ بأقلّ من هذه القيمة

اجاب المستخدم : كلاّ

فأخذ الرجل يجيل نظرهُ في الكتب المعدّة للبيع و بعد ان تأمل فيها طويلاً

قال : هل المستر فرنكلن هنا ؟

اجابهُ المستخدم : نعم ولكنهُ مشغولٌ جدًّا في غرفة الطباعة

فقال الرجل : أَوَدُّ ان أَراهُ

فدُعي فرنكلن ولما جاء سألهُ الرجل : ما هو آخر سعر لهذا الكتاب يا مستر فرنكلن

فاجابهُ فرنكلن على الفور : دولار وربع

فقال الرجل : هذا المستخدم قد طلب منذ دقيقة دولارًا فكيف نطلب دولارًا وربعًا

اجاب فرنكلن : ان ما تقولهُ صواب ولكنني كنت أُفضّل لو أخذت دولارًا فقط حين ذاك ولم أترك عملي

فظهرَت على محيَّا الرجل علاماتُ الاستغراب وودَّ ان يختم مفاوضةً كان هو الطالب لها فقال : هلمَّ الآن واذكر لي آخر سعر لهذا الكتاب

اجابهُ فرنكلن : دولار ونصف

فقال الرجل : أدولارٌ ونصف وانت نفسك طلبت منذ هنيهة دولارًا وربعًا

اجابهُ فرنكلن ببرودة : نعم ولكنني كنت أَوَدُّ لو قبضت ذلك المبلغ عندئذٍ ولا أقبضُ الآن دولارًا ونصفًا

فوضع الرجل المبلغ على المنضدة صامتًا وتناول كتابهُ وخرج بعد أَن تلقَّى درسًا مفيدًا على أُستاذٍ خبيرٍ في فنّ تحويل الوقت الى ثروةٍ او الى حكمةٍ حسب الإرادة

وان الذين يُضيّعون الوقت سُدًى كثيرٌ عديدُهم في كل مكان

وعلى البلاط في غرفة سكّ النقود الذهبية من دار السكّة في فيلادلفيا خشب مشبَّكٌ يُرفَع عند ما يُراد كنسُ الارض وبهذه الطريقة يُحفَظ ما هو متساقطٌ عليها من

ذرّات التبر ما يُساوي الوفًا من الدولارات في السنة . وهكذا كلُّ رجلٍ ناجحٍ لديهِ نوعٌ من الشِّباك يلتقط بهِ نحاتات وقُراضاتِ الزمان ونعني بها فَضَلات الايام والاجزاء الصغيرة من الساعات ما يَكنِسُهُ معُظمُ الناس بين مُهمَلات الحياة . وان الرجل الذي يذخر كل الدقائق المفرَدة وأنصاف الساعات والاعياد غير المنتظرة والفُسحات التي بين وقت وآخر والفترات التي تنقضي في انتظار اشخاص يتأخَّرون عن مواعيد مضروبةٍ لهم ويستعملُ كلَّ هذه الاوقات ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرة يَدْهَش لها الذين لم يفطنوا لهذا السرّ العظيم الشأن

قال البهو بريت : ان كل الاعمال التي انجزتها والتي أتوقع أو آمُلُ أن أنجزها انما سرتُ وسأسيرُ فيها على طريقة جمع أشياء متفرّقةٍ ببطء وصبرٍ وثباتٍ كما يبني النملُ قريتهُ ضامًا ذرّةً الى ذرّةٍ وخاطرًا الى خاطر وحقيقةً الى حقيقةٍ . واذا كنت أطْمَع بشيء من الاشياء فان أقصى ما تطمح اليهِ نفسي هو أن اكون للشبان من مواطنيَّ قدوةً ومثالاً في حسن استعمال تلك الاجزاء العظيمة القيمة من الوقت المدعوة دقائق

ووُجد احد اشقاء بارك[1] منصبًا على الدرس بعد سماعهِ خطبة له في البرلمان فسُئل في ذلك فقال : "كنت اعجب من (ناد) كيف احتكر لنفسهِ كلَّ ذكاء أُسرتنا ولكنَّ عجبي زال عندما تذكّرت أنَّهُ كان يظلُّ مكبًا على الدرس اثناء انصرافنا الى اللَعِب"

وإنَّ الايام لتأتي الينا بصفة اصدقاء متنكّرين جالبةً لنا معها هبات سنيّة جدًا من يد غير منظورة . فاذا نحن لم نقبل تلك الهبات تذهب بها سريعًا وهي صامتةٌ ولا نُعيدُها الينا على الاطلاق . وكلما جاء صباحٌ جلبَ لنا هباتٍ جديدةً ولكننا اذا كنا لم نقبل الهبات التي جُلبَت أمس وأوّل من امس تقلُّ مقدرتنا شيئًا فشيئًا على

(١) خطيب انكليزي مشهور وُلد في دبلن (عاصمة ايرلندا) وعُرف بمعاداتهِ للثورة الفرنسية (١٧٣٠ – ١٧٩٧)

الانتفاع بالهبات الجديدة الى أن يجيء يوم تتلاشى فيه قوتنا على إدراكها والاستفادة منها . ولقد قال الحكماء انه يمكن استرجاع الثروة المفقودة بالاجتهاد والاقتصاد، والمعرفة المفقودة بالدرس، والصحة المفقودة بالحمية والدواء، وأمّا الوقتُ المفقودُ فلا يمكن استرجاعهُ ابدًا

وكثيرًا ما تُقال في البيت هذه العبارة: "لم يبقَ الى ميعاد الطعام الأخمس او عشر دقائق فلا وقت لعمل شيء الآن". والحقيقة أنّ اعمالاً عظيمة اتمّها فتيان فتراه في فَضَلات زهيدة من الوقت قلّما يكترث غيرهم لعمل شيء فيها . وان الساعات نفسها التي تضيّعها قد تضمن لك النجاح اذا احتقدتها

ولقد انت ماريون هارلند بالمعجزات وما استطاعت ذلك الاَّ بتوفيرها دقائق معدودات كانت تصوغ فيها رواياتها ومقالاتها للصحف في حين أولادها نيامٌ وأيّانَ تيسّر لها وقت فراغ . وقد اتمّت كل هذه الأعمال مع ان حياتها قوطعت بحوادث جمة لو وقعت لغيرها من النساء لثبّطت عزائمهنّ وحملتهنّ على العدول عن كل عمل ما عدا واجباتهنّ البيتية . وقلّ من النساء من فعلَتْ ما فعلته هذه المرأة مما يدعو الى الافتخار . وهاريت بتشر ستو وضعت روايتها الممتازة (كوخ العم توما) في وسط مشاغلها البيتية المتراكمة . وبتشر طالع كتاب فرود الذي موضوعهُ "انكلترا" اثناء انتظارهِ الغداء كل يوم. ولونغفلو ترجم "الجحيم" لدانتي في فترة الدقائق العشر التي كان ينتظر فيها غَليانَ قهوتهِ كل يوم وما زال مثابرًا على هذه الخطة عدة سنين الى ان انهى العمل

وبينما كان هوغ ميلر يُمارسُ صناعته الشاقة وهي البناء بالحجارة وجدَ الوقت الكافي لمطالعة عددٍ من الكتب العلمية وكتابة ما أملتهُ عليهِ الحجارةُ التي بين يديهِ من الدروس

ومدام دي جنليس[1] قد ألفت عددًا من كتبها البديعة لما كانت في رفقة ملكة

(١) كاتبة افرنسية ألفت عدة كتب في التربية (١٧٤٦ — ١٨٣٠)

فرنسا العتيدة وذلك اثناء انتظارها لتلك الاميرة لتُلقي عليها دروسها اليومية . وبرنز انشأ عددًا من اجمل قصائده اثناء عمله في مزرعة . ومؤلف (الفردوس المفقود[١]) كان معلمًا ومستخدمًا في بعض اعمال الحكومة بوظيفة كاتب سر فكان ينظم قصيدته الخالدة أبّان تسنّى له اختلاس بعض دقائق من خلال اعماله المتراكمة . وقد أتمّ جون ستورت ميل الجانب الأعظم من افضل مؤلفاته بينما هو يعمل كمستخدَم في مكتب الهند الشرقيّة . وكان غاليلو طبيبــــًا ولكنهُ أتمّ اكتشافاتهِ العظمى الجزيلة الفائدة للعالم في أوقات فراغهِ

وإذا كان رجلٌ نابغةٌ مثل غلادستون[٢] قد بقي كلّ حياتهِ يحمل في جيبهِ كتيبًا يطالع فيهِ كلّما سنحت له دقيقةُ فراغٍ لئلا تذهب سدًى فهل يليقُ بنا نحن اصحاب المواهب العاديّة ان ندع واسطةً من الوسائط دون ان نستعملها للمحافظة على اوقاتنا الثمينة من الضياع . ألا ان في حياتهِ لموعظةً وتوبيخًا للألوف من الشبان والشابات الذين يُضيعون شهورًا بل سنين برمّتها ما كان ذلك "الشيخ العظيم" يضنّ بأصغر دقيقة من دقائقهِ . وإنّ كثيرين من عظماء الرجال قد وضعوا أُسّ شهرتهم في الدقائق الزهيدة التي يُهملها الآخرون ممن يتعجّبون من إخفاقهم وعجزهم عن تحصيل ما حصّله اولئك . وقد كان كلُّ رجال الادب في ايطاليا في عهد دانتي[٣] إمّا تجّارًا اهل جدٍّ ونشاط أو أطباء او سياسيين او قضاةً او جنودًا

ولما كان ميخائيل فارادي[٤] مستخدَمًا في معمل تجليد الكتب خصّص كل اوقات فراغهِ للتجربات العلمية وهاك ما كتبهُ الى صديق له : "ان كل ما أتمنى الحصول عليهِ هو الوقت . ويا ليت لي أن أشتري بثمنٍ بخس ساعات أو أيام الفراغ التي يسادها العصريين"

(١) هو الشاعر الانكليزي الشهير ملتن (١٦٠٨—١٦٧٤)
(٢) من أعاظم رجال السياسة في انكلترا واحد زعماء حزب الاحرار فيها
(٣) شاعر ايطاليٌّ شهير ألَّف (الرواية الالهية) ويعدّ ابا الشعر الايطاليّ (١٢٦٥—١٣٢١)
(٤) عالم طبيعيّ وكيماويّ انكليزي شهير اكتشف عدة اكتشافات جليلة (١٧٩١—١٨٦٧)

ولكم بصنع الاجتهاد والمواظبة من المعجزات . فان اسكندر فون همبولد[1] كانت كل اوقاتهِ في النهار حافلة بالعمل فكان عليهِ ان يتابع اختباراتهِ العلمية وينجز تآليفهُ في الليل او في الصباح باكرًا بينما الآخرون راقدون

وان ساعة تُنتزَع كلَّ يوم من اوقات اللهو وتستعمل في ما يفيد تمكّن كلَّ امرىء ذي مقدرة عقليةٍ عاديةٍ ان يتضلَّع من علمٍ بتمامهِ . أجل ان ساعة في النهار تخوِّل من هو غير متعلم ان يصير تامَّ التهذيب والمعرفة في غضون عشر سنوات ، وبها يكسب المرء ما يكفيهِ لدفع بدلات اشتراك جريدتين يوميتين وجريدتين اسبوعيتين ومجلتين راقيتين واثني عشر كتابًا على الأقل . وفي وُسْع اي فتى او فتاة مطالعة عشرين صفحة بتمعُّن في ساعة من النهار اي سبعة آلاف صفحة او ثمانية عشر مجلدًا كبيرًا في السنة . وانَّ ساعةً في النهار قد تجعل كل البَوْن[2] الشاسع بين حياةٍ فارغةٍ وحياةٍ مفيدة . ويمكنها ان تُصيِّر من هو غير معروف شهيرًا ومن هو غيرُ مفيد محسنًا الى ابناء جلدتهِ . هذا ما تفعلهُ الساعة الواحدة فتأمَّلْ في ما تفعلهُ الساعتان بل الاربع بل الستُّ ساعاتٍ ، وهذا معدَّل ما يُبدِدهُ الشبان والنساء يوميًّا لإرضاء ميلهم الشديد الى التفكُّه واللهو

ولا بأسَ من أن يكونَ لدى كل شاب ليشغل أوقات فراغهِ مَلهاةٌ هي عبارة عن شيء نافع يحوّل انتباههُ اليهِ بلذّة .ولا فرق بين ان تكون ذاتَ صِلَةٍ بعملهِ أو لا بشرط أن يميل قلبهُ اليها . فاذا أحسن انتخابها فان ما تولِّدهُ عندهُ من الدرس والبحث والاهتمام بروِّض طباعهُ ويحسّن العيشة البيتيَّة

قال بارك : ان الكسل الزائد على ما لاحظت يَشْغُلُ اوقات المرء ويجعلهُ غيرَ حرٍّ في تصرفاتهِ اكثرَ من ايِّ نوع من الاعمال والمهن

وإنَّ كثيرين من الفتيان يكتسبون التهذيب اللازم في فَضَلاتٍ من الوقت

(١) عالم طبيعي وكاتب الماني شهير (١٧٦٩ — ١٨٥٩)

(٢) مسافة ما بين الشيئين ويستعمل بمعنى البعد والفضل والمزيَّة

لا يكترث غيرهم في ان يستخدمها لشيء كما يجمع بعض الناس ثروةً بتوفيرات زهيدة لا يتنازل غيرهم الى ممارستها . وأيُّ شابٍّ تمنعهُ مشاغلهُ عن تخصيص ساعةٍ في اليوم لاكتساب التهذيب . فان تشارس فروست الاسكاف الشهير في فرمونت خصَّص كلَّ يوم ساعةً للدرس فصار من المشار اليهم بالبنان بين علماء الرياضيات في الولايات المتحدة وأحرز في غيرها من العلوم مقامًا رفيعًا يحسدهُ عليهِ كثيرون.وجون هنتر حذا حذوَ نبوليون فلم يكن يسمح لنفسهِ بالرقاد اكثر من اربع ساعات كل يوم ، وقد رتَّب الاستاذ اوفن نماذج علم التشريح التمثيلي التي جمعها هنتر باجتهادهِ وهي تبلغ الاربعة والعشرين الفًا عدًّا فاقتضى ذلك العمل عشر سنوات . فما أعظم ذلك من غلام باشر دروسهُ وهو يمتهن التجارة

وكان جون ادمس[١] يشكو مُرَّ الشكوى من الذين يسلبونهُ وقتهُ وهم لا حقَّ لهم بذلك . وكتَبَ عالمٌ ايطاليٌّ فوق بابهِ هذه الجملة : "يجب على كل من يتأخر هنا ان يساعدني في اعمالي" وكارليل وتنيسن وبرونن وديكنس[٢] وقَّعوا عريضة شكوى ضد الذين يتخذُون[٣] الآلات لإزعاجهم ايام في اعمالهم

وكثيرون من أعاظم رجال التاريخ أحرزوا مقامهم الرفيع باستفادتهم من اوقات الفراغ القليلة التي يبدِّدها مُعظَم الناس وذلك علاوةً على اعمالهم القانونية . فسبنسر[٤] نال ما نالهُ من الشهرة في اوقات فراغهِ وهو كاتب سر مندوب ايرلندا . والسر جون لبوك اشتهر بابحاثهِ عما قبل زمن التاريخ وقد قام بهذه الابحاث خارج ساعات عملهِ الذي هو الصيرفة . وسوذي الذي قلَّما مرَّت بهِ دقيقةٌ وهو متكاسل قد ألَّف مائة مجلَّد . ويتبيَّن من مذكرات هوثورن انهُ لم يترك خاطرًا من الخواطر التي مرَّت ببالهِ او حالة من الحالات التي وُجد فيها دون تدوين . ولم يكن فرنكلن

(١) الرئيس الثاني لحكومة الولايات المتحدة انتخب للرئاسة سنة ١٧٩٧ (١٧٣٩ — ١٨٢٦)

(٢) من مشاهير الكتَّاب والشعراء الانكليز (٣) يسنون (٤) فيلسوف انكليزي مشهور

بملء العمل وقد أنقص اوقات نومهِ ومآكلهِ الى أقل حدّ ممكن ليكسب وقتًا كافيًا للدرس . وقد ألَّف بعضًا من اجمل كتبهِ وهو على متن الباخرة ككتابهِ في " تحسين فن الملاحة " وكتابهِ الآخر " المداخن "

وان في ما أتاهُ رافائيل [1] في حياتهِ القصيرة التي لم تتجاوز السبعة والثلاثين ربيعًا لَعِبرَةً للذين يعتذرون عن تضييعهم حياتهم عبثًا بأنهُ ليس لديهم وقت

وإنّ اوقات الفراغ لدى عظماء الرجال قليلة دائمًا . وقد قال شيشرون [2] : " ان ما يُخصِّصهُ غيري من الوقت للولائم والحفلات العمومية او للراحة العقلية والجسدية أُخصّصهُ انا لدرس الفلسفة " . وقد كسب اللورد باكون [3] شهرتهُ العلمية بعملهِ في اوقاتِ فراغهِ وهو في منصب مستشارية الدولة البريطانية. وكان غوث [4] مرَّة يقابل احد عظماء الملوك فاعتذر فجأة ودخل الى غرفة مجاورة ودوَّنَ خاطرًا عنَّ لهُ لروايتهِ " فوست " وذلك خوفًا من ان يغيب هذا الخاطر عن ذهنهِ . والسر همفري داڤي [5] أتمّ اشياء جليلة في اوقات فراغهِ في عليَّة صيدلية . وكان پوپ [6] ينهض في الغالب ليلاً من فراشهِ ويسجّل افكارًا قد لا تخطر ببالهِ في نهارهِ الحافل بالمشاغل . وغروت [7] وضع مؤلفهُ النادر المثال عن (تاريخ اليونان) في اوقات فراغهِ علاوةً على عملهِ في الصيرفة

وكان جورج ستيفنسن [8] ينتهز الدقائق كأنها من ذهب وقد حصَّل العلم وأنجز قسمًا كبيرًا من افضل ما عملهُ في اوقات فراغهِ . وقد درس الحساب اثناء التنقلات

---

(١) هو مصوّر ونقاش ومهندس ايطاليّ شهير يُعدّ من اعظم رجال الفن في العالم وقد ترك آثارًا بديعة تشهد بسمو مواهبهِ (١٤٨٣ — ١٥٢٠) (٢) هو أعظم خطباء الرومان وأفصحهم لسانًا ولهُ عدا خطبهِ الرنانة رسائل فلسفية ممتازة (١٠٦—٤٣ق.م) (٣) فيلسوف انكليزي مشهور وهو الذي بيَّن اغلاط الطريقة المدرسية (١٥٦١ — ١٦٢٦) (٤) هو اشهر شعراء الالمان ويعدّ من اكابر الكتَّاب والعلماء ايضًا وتمتاز كتاباتهُ بعذوبة انشائها وسموّ تصوّراتها (١٧٤٩ —١٨٣٢) (٥) من علماء الكيمياء الانكليز لهُ اختراعات جليلة (١٧٧٨—١٨٢٩)

(٦) فيلسوف وشاعر انكليزي شهير (١٦٨٨—١٧٤٤) (٧) مؤرّخ انكليزي (١٧٩٤ —١٨٧١) (٨) عالم انكليزي اشتهر في علم الميكانيكيات وهو مخترع القواطر (١٧٨١—١٨٤٨)

الليلية لما كان مهندساً . ولم يكن موزار[١] يدع دقيقة تمرّ دون ان يستفيد منها . ولم يكن يتوقف عن عملهِ لينام النوم الكافي بل كثيرًا ما اتفق لهُ ان ظلّ يكتب نهارًا وليلتين بدون انقطاع . وقد أنشأ نشيدهُ المشهور "ترنيمة الموتى" وهو على فراش الاحتضار

"وقال رجل للحسن بن علي بن ابي طالب : اني أنشر مُصحَفِي فاقرأهُ في النهار كلهِ . فقال لهُ : اقرأهُ بالغداةِ والعشيّ ويكونُ يومُك في صنعتك وما لا بدَّ منهُ"

"ورُوي عن ابي يوسف انهُ قال : مات لي ولدٌ فأمرتُ من يتولّى دفنهُ ولم أَدَعْ مجلس ابي حنيفة خوفًا ان يفوتني منهُ يوم"

وقد قال قيصر : "انني ما برحت وانا في سرادقي في أهول معامع الحرب أجد وقتًا كافيًا للتفكير في امور اخرى عديدة" . وقد غرق مركبهُ مرّة وتحتم عليهِ ان يدرك الشاطئ سباحةً ولكنهُ ابى الّا ان ينقذ معهُ نسخة "شروحه" التي كان يدقق فيها على متن المركب قبل غرقهِ

وقد ترجم الدكتور ماسون غود "لوكريتيوس" وهو راكب جوادهُ وذاهب لعيادة مرضاهُ في لندن . وألّف الدكتور داروين[٢] معظم كتبهِ بتدوينهِ ما يخطر لهُ من الافكار على قصاصات من الاوراق حيثما اتفق لهُ ان يكون . وتعلّم وط[٣] الكيمياء والرياضيات اثناء ممارستهِ حرفة صانع آلات رياضية. وهنري كيرك هويت تعلّم اليونانية أثناء ذهابهِ الى مكتب المحامي الذي كان يدرس عليهِ وايابهِ منهُ . والدكتور بارني أتقن الايطالية والفرنسية وهو على متن جوادهِ . وماثيو هيل كتب "تأملاتهِ" في الأسفار اثناء تجولهِ بسبب كونهِ قاضيًا

ان الوقت الحاضر هو المادّة الخام[٤] التي يمكننا ان ننسج منها ما نشاءه . فلا

(١) موسيقيّ المانيّ مشهور (١٧٥٦–١٧٩١) (٢) عالم طبيعي انكليزي لهُ مؤلفات عديدة اشهرها كتابهُ في اصل الانواع بطريقة الانتخاب الطبيعيّ (١٨٠٩–١٨٨٢)

(٣) عالم ميكانيكيّ سكتلنديّ أتقن الآلات البخارية (١٧٣٦–١٨١٩)

(٤) التي لم تمتدّ اليها يد الصناعة

تأسف على ما مضى ولا تحلمْ بالمستقبل بل اقبض على الساعة التي انت فيها واستخرج منها درسك . قال الشاعر

" ما مضى فات والمؤمَّلُ غيبٌ   ولك الساعة التي أنت فيها "

ولم يولد بعدُ من يُدرِكُ قيمة ساعة من الوقت و يعرف منزلتها معرفة حقيقية. قال فنلون : ان الله عزَّ وجلَّ لا يُعطي الاَّ دقيقةً واحدة في وقت واحد. فهو لا يُعطي الدقيقة الثانية الاَّ بعد ان يسترجع الاولى

ولم يكن اللورد برغام يُطيق ان يُضيِّعَ دقيقة سدًى الاَّ انهُ كان من الترتيب والانتظام في معيشتهِ بحيث كان يظهر دائمًا كأنَّ لديهِ من اوقات الفراغ اكثر مما لكثيرين ممن لم يعملوا معشار ما عمل . فقد أتى بالبدائع في السياسة والقوانين والعلم والادب

وقد ألَّف الدكتور جونسون رواية " راسلاس " ليلاً في خلال اسبوع ليكسب بها ما يدفع بهِ نفقات مأتم والدتهِ

ولنكلن[1] درس الشريعة في اوقات فراغهِ اثناء اشتغالهِ بالمساحة وتعلَّم الفروع العاديَّة بدون استاذ اثناء استخدامهِ في مخزن . والمسز سمرفيل درست علم النبات والهيئة وألَّفت عدَّة كتب بينما كان جيرانها يلهون بتافه الأحاديث والبطالة وقد نشرت كتابًا لها موضوعهُ " علم الذرّات والدقائق المجهريَّة " وهي في سنّ الثمانين

وإنَّ أشدَّ ما في إضاعة الوقت من الضرر ليس في خسارة الوقت نفسهِ بل في خسارة القوَّة. فان الأعصاب تصدأ بالبطالة والعضَلات تقرقر[2]. فان العمل نظامًا معيَّنًا واما الكسل فليس لهُ نظام

وقد كان الرئيس كنسي لا يذهب للرقاد ليلةً قبل ان يضع خطتهُ لما سيعملهُ في اليوم التالي

(1) احد روَساء حكومة الولايات المتحدة حدثت في ايامهِ الحرب بين الولايات الشمالية والجنوبية سنة ١٨٦٠ وتمَّ الغاء الاسترقاق (١٨٠٩–١٨٦٥)

(2) تصوَّت

ودالتون[١] لم يكن له شَغَف في هذه الدنيا الاَّ بالكدّ والاجتهاد . وقد أجرى ودوّن نحو مائتي الف ملاحظة متيورولوجية

وإن خيطًا واحدًا اذا انقطع في معامل النسج يُتلف ثوبًا كاملاً . ولذلك تجازى الابنة التي ارتكبت الخطأ وتُجَسَّمُ ثمن الثوب من مرتبها. لكن من يدفع الخسارة عن الخيوط التي تنقطع في ثوب الحياة العظيم ? اننا لا نستطيع ان نلقي وَشيعةً[٢] فارغةً الى الامام والوراء فان خيوطًا من نوع من الانواع تتبع كل حركة من حركاتنا بينما نحن ننسج ثوب حظنا . فقد يجيء خيط بالٍ هو عبارةٌ عن ساعات مضاعة أو فُرَص مُهمَلة فيتلف العمل ويقضي على العامل قضاء مبرمًا ، وقد يجيء خيطٌ ذهبيٌّ فيزيد الثوب رونقًا وجمالاً . وليس في وُسعنا ان نُوقف الوشيعة وننتزع الخيط البالي من الثوب بل انهُ يبقى هنالك شاهدًا دائمًا على حماقتنا

وما من احد يُساوِرُهُ[٣] القلق لحالة شابٍ اثناء انهماكهِ في عمل نافع وانما الذي يهمُّ معرفتهُ اين يتناول هذا الشاب طعام الظهر ، واين يذهب حين يترك منزله ليلاً ، وماذا يفعل بعد تناولهِ العشاء ، واين يقضي ايام الآحاد والأعياد . فان الطريقة التي يقضي بها اوقات فراغهِ تدلُّ دلالةً صريحةً على اخلاقهِ . ولا شبهة في ان معظم الشبان الذين يسترسلون الى الفساد يتلفون أنفسهم بعد العشاء ، كما ان مُعْظَمَ الذين يَطمحون الى ارتقاء سلَّم المجد والشهرة يقضون سهراتهم في الدرس والعمل او في معاشرة من يقدر ان يساعدهم ويزيدهم تهذيبًا وكمالاً . فالشاب يقف موقفًا حرجًا في كل مساء . وقد قال الشاعر هو ينبه ما معناهُ : اننا في هذا اليوم نعيّن حظنا ونقرّر مصيرنا بيدنا لاننا فيهِ نختار لأنفسنا إمَّا برًّا أو اثمًا على طول الحياة وقد قيل ان الوقت من فضة . فعلينا ان لانكون بُخَلاءَ أشحّاء بهِ ولكن لا ينبغي

(١) من علماء الطبيعيات والكيمياء الانكليز له مباحث جليلة في مواضيع متنوّعة (١٧٦٦–١٨٤٤)

(٢) قصبة يجعل فيها النساج لحمة الثوب المنسج

(٣) يأخذ برأسهِ ويوائبهُ

ان نضيعّ منه ساعة سدًى كما لا ينبغي ان نطرح دولارًا في الهوآء . فإضاعة الوقت معناها إضعاف العزيمة وملاشاة القوة الحيوية وإفساد الاخلاق في الخلاعة والملذات ، كما ان من معناها ايضًا خسارة الفرص التي اذا ولّت لا تعود. فتنبّه للطريقة التي تنفق بها وقتك لان كل مستقبلك يتوقف على ذلك

وان في وسع كل امرىءٍ —كما قال ادورد اڤرت —ان يجعل نفسه مفيدًا ومحترمًا وسعيدًا وذلك بترقية ما آتاه الله من المواهب و بمراقبة كل فرصة تسنح له المتقدم بعين يقظة كعين النسر و بمحافظتهِ على الوقت و بُعدِهِ عن التجربة واحتقارهِ الملاذّ الحسيّة



الفصل الرابع

الأحداث والاعمال التي لا تلائم استعداداتهم واميالهم

ان افضل جائزة للحياة واكليل توفيق الرجل وجود ميل في صدره منذ ولادته الى مهنة معينة ما يوجد له العمل والسعادة — امرسن

قلما قام شاعر او رجل فنّي او فيلسوف او عالم من المعروفين في تاريخ التقدُّم البشري دون ان يتصدّى ابواهُ او أولياء امرهِ او معلموهُ لوضع العراقيل في سبيل نبوغهِ . الا انهُ يظهر ان الطبيعة قد تغلبت في مثل هذهِ الاحوال بتدخلها في الامر مباشرةً وانها أبت الآن تدع أحبّاءها يمنعون بخوفهم محرضة اياهم على العصيان والتكتم والتزوير وعلى الفرار من البيت في بعض الاحيان والتشرُّد الموقت مؤثرةً كل ذلك على ان يخسر العالم ما قاست في إنتاجهِ عناءً جزيلاً — هوبيل

انني اسمع صوتاً لا يمكنك ان تسمعهُ يدعوني الى الذهاب وانظر يداً ليس في وسعك ان تراها تومئ اليَّ بالابتعاد — تيكل

لما كان جيمس وط مكتشف قوة البخار يقوم بتجاربهِ وهو غلامٌ انتهرتهُ جدّتهُ قائلةً . "انني لم أرَ فتى يعادلك في الكسل يا جيمس . تناول كتاباً واهتمَّ في ما يفيد . فقد مرَّ عليك نصف ساعة دون ان تَنبِسَ ببنت شفة [1] .وهل تعلم ماذا كنت تفعل. لقد رفعتَ غطاء ابريق الشاي ثم وضعتهُ ثم عدتَ فرفعتهُ وحملت في وسط البخار

(١) تتكلم

المتصاعد صحفة صغيرة ثم ملعقة ، وجعلت تهتم بفحص وجمع قطرات البخار الصغيرة التي تكوّنت على الخزف والفضة . فلِمَ هذا أوَ لا تخجل من اضاعتك الوقت بهذه الصورة الشائنة ؟"

ولا شكَّ أنَّ العالم قد استفاد فائدة عظيمة جدًّا من إخفاقِ هذهِ العجوز في مسعاها لحمل جيمس على استعمال وقتهِ في ما هو أفيد وأفضل بحسب اعتقادها

وقصد تاجرٌ اخراجَ شابٍّ مستخدَمٍ في مخزنهِ من الخدمة لِبُطءِ فهمهِ وغلاظة ذهنهِ . فاخذ الشاب يتوسل اليهِ قائلاً : "انني أصلحُ للقيام ببعض الاعمال". فقال له التاجر: "ولكنك لا تحسن البيع". قال الشاب : "انني على ثقةٍ من اني اقدر ان انفع". فسأله التاجر: "بأي طريقة ؟" قال الشاب: "لا اعلم". فقال التاجر ضاحكاً: "ولا انا اعلم ايضاً". قال الشاب : "انوسل اليك يا مولاي ان لا تطردَني من الخدمة بل جرّبني في عملٍ غيرِ البيع فاني عارفٌ بانني لا أحسِن البيع". قال التاجر : "انني عارف ذلك ايضاً وهذا هو النقص الذي فيك". فقال الشاب: "ولكنني عارف ايضاً انني قادر على ان أفيد بطريقة اخرى". فجعل التاجر عمله في الكتابة والحسابات وما لبثت أن ظهرَتْ مقدرتهُ فيها ولم تمضِ سنواتٌ قليلةٌ حتى صار صرّافًا أوّلَ في ذلك المخزن واصبح يُعدّ من اشهر كُتّاب الحسابات

وانك لا تقدر بمجرّد نظرك الى سرير طفلٍ أن تقرأ الرسالة التي خطّتها يدُ المنية وجعلتْ غلافها تلك الكُتْلةَ من الطين اكثر مما تقدر ان تستدلّ بالحُكّ (١) على نجمة القطب . فان الله قد جهّز حُكّ تلك الحياة الفتيّة بما يجعله يُشير الى نجمة مصيرها وقسمتها . وقد تستطيع ان تجذب ذلك الحك وتُدبرهُ الى جهات شتّى بواسطة النصائح المُصطنعة والتربية التي لا تلائم الفطرة وتضطرّه ان يشير الى نجمة الشعر او الفن او الشريعة او الطب او غير ذلك من المِهَن التي تفضّلها وبذلك تُضيع سنواتٍ من حياة ثمينة ولكنهُ حالما يتخلّص من قبضتك يعود مشيراً الى النجمة الخاصة بتلك الحياة

(١) الابرة المغناطيسية التي تشير دائماً الى نجمة القطب ويهتدي بها الملاّحون في اسفارهم

قال روبرت وترس: ان رجل العبقرية (١) يُجذَب بدافع لا طاقة له على مقاومته الى مزاولة المهنة أو الصناعة التي خُلق لها ولئن شكا من سوء حظهِ فيها وانتحب كما يفعل غالبًا . وتلك المهنة هي الوحيدة التي يمارسها بلذَّةٍ وسرور مهما كانت المصاعب التي يلاقيها فيها جزيلةً , ومهما كانت آماله بالكسب والنجاح فيها ضئيلةً . وهو عندما لا يكسب فيها ما يكفي لمعيشتهِ ويجد نفسهُ فقيرًا مُهملاً قد يلتفت الى ما وراءهُ متنهدًا ويتمنَّى لو انصرف عنها الى مهنة أُخرى تكون اوفر جدوًى واكثر ريعًا له ولكنهُ لا يلبث ان يعود الى الانصباب على مهنتهِ المحبوبة برغم كل ذلك

وان الحضارة تبلغُ ارفع درجاتها عندما ينصرف كل امرىء الى مزاولة العمل الذي خُلق له. وما من احدٍ يُدرك قمة النجاح كما يتصوّر ما لم ينصرف الى عملهِ الخاص. فهو كالآلة القاطرة قويٌّ في طريقهِ الخاص وضعيفٌ في اي مكانٍ آخر. قال امرسون: " ان كل غلام في هذه الدنيا أشبهُ بقاربٍ في النهر يعدو فيجد الحواجز مُقامةً في وجههِ من كل الجهات الا من جهة واحدة يرى فيها الطريقَ مفتوحًا أمامهُ فيسير فيهِ بهدوء في مجرى عميق يُوصلهُ الى بحر لا قرار له "

وقد ألَّف ديكنس كتابهُ تاريخ " عبودية ولد " فاودعهُ من الحقائق ما لا يعرفهُ احدٌ مثلهُ عن الاولاد الذين جنى عليهم آباؤهم بقصر نظرهم وقضوا على نزعاتهم الفطرية قضاء مبرمًا , وقد رموهم بالتواني او البلادة او الطيش وما ذنبهم الاَّ أنهم صُرفوا الى مهن او اعمال لا تتلاءم مع ميالهم الغريزية , كأَنْ أُرغموا على درس كتب اللاهوت الجافة مثلاً في حين أنَّ في داخلهم صوتًا ينادي على الدوام : الشريعة او الطب أو الفنون او العلوم او الصناعة , وكم أُذيقوا من العذابات لعدم نشاطهم في اعمالهم التي كانوا يكرهونها وكلُّ عصب من اعصابهم يحتجُّ على وجودهم فيها احتجاجًا دائمًا

ومن الانانية الخرقاء في الاب ما يحاولهُ احيانًا من جعل ابنهِ نسخةً عنهُ طبق الاصل . قال أمرسون : " انك تحاول جعل ابنك شخصك الثاني في حين ان شخصًا

(١) التفوُّق في كل شيء

واحدًا يكفي " وقد كان جون جاكوب استور يحاول والدهُ ان يجعلهُ جزّارًا ليخلفهُ في مهنتهِ ولكن نزعة الابن الشديدة للتجارة تغلّبتْ وجعلتهُ في المستقبل من اكابر التجار

وما كانت الطبيعةُ لِتَصُوغَ رجلين صيغةً واحدةً فهي كلّما أنشأت رجلاً أتلفت الأنموذج الذي أبدعتهُ بوجبهِ فلا تستعمل مزيجها السحريّ الأ مرّةً واحدة . وقد كان فريدريك الكبير يُلاقي أشدَّ التوبيخات لميلهِ الى الفنون الجميلة والموسيقى خاصةً وعدم اكتراثهِ بالفنون العسكرية وقد سجنهُ والدهُ مرة عقابًا له على ذلك حتى لقد فكَّر في اماتتهِ ولكنَّ وفاة الاب قضت بجلوس فريدريك على العرش وهو في سن الثامنة والعشرين . فكانت النتيجة أنَّ هذا الشاب الذي كانوا يحسبونهُ غير نافع لشيء لفرط شغفهِ بالفنون والموسيقى جعل بروسيا من اعظم دول اوربا

وان النسر الجاثِمَ المبهورَ بصرُهُ بضياء الشمس ليبدو بليدًا أخرق ، لكن ما أحدَّ بصرهُ وأقدرهُ على التحليق في الفضاء عند ما يدبر جناحهُ القويّ ضدَّ الجَلَد الازرق الصافي

فوالدا الغلام اركربت اجبراه لغباوتها على التمرن تحت يد مزيّن ولكن الطبيعة زينت له تدبير حيلة كانت نتيجتها بركةً على الانسانية وايجاد اعمال للملايين من فقراء انكلترا . فكأن لسان حال كان يقول حتى لذويهِ انفسهم : " إرفعوا أيديكم كما قال السيد المسيح لامهِ : " ألا تعلمين انهُ ينبغي لي ان اكون في ما لِأبي "

وكان غاليلو قد صُرِف لدرس الطب الاَّ انهُ كان عندما يُضطَرّ الى درس التشريح والفسيولوجيا يخبئ كتب اقليدس وارخميدس ويعمد الى حلّ المسائل العويصة سرًّا وقد اكتشف مبدأ الرقاص وهو في الثامنة عشرة من العمر بواسطة مصباح وجدهُ يتمايل في كاندرائية بيزا . وقد اخترع المجهر (المكروسكوب) والمرقب (التلسكوب) مسهلاً الوسائط لمراقبة الاجرام الكبيرة والصغيرة معًا

ووالدا ميخائيل انجلو كانا قد حظرا على اولادهما الانصراف الى الفنون الجميلة المذلة وكثيرًا ما قاصاه لما كان يرسم من الرسوم على الجدران وامتعة البيت الاان

النار التي أوقدها في صدره المصوّر الالهي لم تدعهُ يأخذ لنفسهُ راحة حتى خلّد ذكره بما ابقاهُ من الآثار في كنيسة القديس بطرس وتمثال موسى وعلى جدران معبد سستين

وبسكال كان قد أوجب عليهِ ابوهُ ان يمارس تدريس اللغات الميتة ولكن نزعتهُ الى العلوم الرياضية تغلبت على كل ما سواها وما زالت بهِ حتى ترك الفراماطيق جانبًا وأكبَّ على مطالعة كتب اقليدس

ويشوع رينولدس طالما وبخهُ والدهُ لولعهِ بالتصوير وقد كتب مرّة تحت احدى صورهِ: "رسمها يشوع مدفوعًا بمجرد كسلهِ" الا ان هذا الولد الكسلان صار احد مؤسسي الندوة الملكية

وترنر أُريد تعليمهُ الحلاقة في مايدن لين ولكنهُ صار من اشهر المصوّرين في العصور الحديثة

والمصور كلود لورين كان يتمرن عند صانع حلويات. وموليار المؤلف كان منجدًا. والمصور غيدو الشهير كان يدرس في مدرسة موسيقية

وشيلر أُرسل لدرس فن الجراحة في مدرسة ستوتغارت العسكرية ولكنهُ ألَّف سرًّا رواية "اللصوص" وحضر تمثيلها لاول مرّة متنكرًا. وقد دفعهُ انزعاجهُ من مدرستهِ الشبيهة بالسجن وشوقهُ الى خوض غمار التأليف على ترك المدرسة والنزول الى سوق الادب القليل المكاسب وهو صفر (١) اليدين. وقد اشفقت عليهِ احدى السيدات فأمدّتهُ ببعض المساعدة فأنشأ في الحال الروايتين البديعتين اللتين نشرتا اسمهُ وأكسبتا ذكرًا خالدًا

وكان الطبيب هندل يودُّ تعليم ابنهِ مهنة المحاماة فحاول ان يصرفهُ عن الموسيقى التي كان مولعًا بها الا ان الغلام اشترى قيثارةً قديمةً واخذ يتمرّن عليها سرًّا في مستودع تبن. واتفق ان ذهب الطبيب يومًا لزيارة اخٍ لهُ في خدمة الدوق اوف ويزنفلد مستصحبًا ابنهُ فانسلّ الغلام خفيةً الى كنيسة القصر وجعل يضرب على الارغن

(١) خالي

الذي فيها فسمع الدوق التوقيع وأُعجب بما فيهِ من الاتقان واتفاق الانغام مع ان الظواهر كانت تدلّ على حداثة عهد الموقّع بتلك الآلة . فجُلب اليهِ الغلام وبدلاً من ان يؤنّبهُ أثنى عليهِ وأقنع والدهُ بان يدعهُ يتبع ميلهُ

ودانيال ديفو تقلّب في اعمال شتّى فكان بياعًا وجنديًا وتاجرًا وكاتب سر ومدير معمل وكاتب حسابات لاحد السماسرة ومعتمدًا ومؤلفًا لجملة كتب لا شأن لها قبل ان ألّفَ روايتهُ الشهيرة "روبنصن كروزي"

وو يلسن العالم بطبائع الطير فشل في خمس مهن مختلفة قبل ان وجـد المركز المناسب لهُ

وارسكين قضى اربع سنوات في سلك الجنود البحرية ثم انضم الى الجيش البري طمعًا في الترقي السريع وبعد ان خدم فيهِ اكثر من سنتين دفعهُ حب الاستطلاع يومًا الى حضور جلسة في محكمة المدينة التي فيها فرقتهُ . وكان رئيس المحكمة من معارفهِ فدعاهُ الى الجلوس الى جانبهِ وقال لهُ في اثناء المحاكمة ان المتكلمين هم من اشهر المحامين في بريطانيا العظمى . فرسخ في ذهنهِ الاعتقاد بانهُ يستطيع ان يتفوّق عليهم فشرع في درس القانون على الفور ولم يمضِ زمن قليل حتى صار أعظم خطيب قانوني في بلادهِ

وستيوارت درس اللاهوت وصار معلّمًا قبل أن اطاع دعوتهُ الخاصة وهي تعاطي التجارة وقد سبق اليها مرغمًا لان صديقًا لهُ استدان منهُ مالاً ثم اوشك ذلك الصديق ان يفلس فلم يرَ وسيلة لإيفائهِ دينهُ الاّ اعطاءهُ المخزن

ولما علم المستر نشايز أن ابنهُ قد اوشك ان ينهي استعدادهُ لدخول الكلية قال لهُ : "انك ستنزل يوم الاثنين يا بوناثان الى معمل الآلات" وقد قضى بوناثان سنوات عديدة في معمل الآلات قبل ان افلت وسار في خطتهِ الخاصة التي توصل بها الى مركز عضوٍ ذي نفوذ عظيم في مجلس الشيوخ الاميركي عن رود ايلند

ولقد قيل وهذا القول حقٌّ انهُ لو بعث الله مَلَكين وعهد الى احدهما ان يكنس

شارعًا والى الآخر ان يسوس مملكةً فليس من الممكن إقناعها بتبادُل مركزيها. ولا يقلْ عن ذلك صوابًا أنّ الرجل الذي يشعر بان الله خلقهُ لعملٍ معيّن لا يهنأ له عيشٌ الاّ بالاكباب على ذلك العمل بنشاط وهمّة . فسعيدٌ الشاب الذي يجد المركز الذي ينزع اليهِ من فطرتهِ فانهُ اذا كان لا يملأ ذلك المركز فليس في وسعهِ ان يملأ أيّ مركز آخر ما يرضي بهِ نفسهُ او الآخرين. وإنّ الطبيعة لا تدع احدًا يقرُّ على حال حتى يحصل على مركزهِ الخاص ، فهي تظلُّ مطاردةً اياه الى ان تصبح قواهُ راضيةً و يحلّ في عشّهِ الملائم . وان تقرير الاب ما هي المهنة التي يتبعها ابنهُ لهو كما لو قرّر ان الحُكَ سيُشيرُ الى الزُهرَة او المشتري دون ان يجرّبَ ذلك

ولا شكّ أن اطلاق فرس ضخم الجثة من خيل العربات في ميدانِ سباقٍ لَهُو من الامور المضحكة ، ولكنّ ذلك ليس أغربَ من الفكرة السائدة بين الناس من ان الحقوق والطب واللاهوت هي المِهَن الوحيدة الحريّة بالاتباع . أوَليس من المضحك ايضًا ان يُقبل اثنان وخمسون في المائة من متخرجي الكليّات في اميركا على درس الحقوق. وكم من شبان تراهم في مرتبة حقيرة بين القسوس أو الاطباء او المحامين لانهم تعمدوا السير على خُطط آبائهم الذين كانوا من خيرة ارباب هذه المهن . وان البلاد ملأى اليوم برجال هم في غير المراكز الملائمة لهم فتراهم خائبين سيّئي الاخلاق معوزين لا مال لهم ولا نفوذ وقد خارت عزائمهم . والحقيقة أنّ كل متخرج من احدى الكليات ينجح النجاح المطلوب انما يستعدّ في المدرسة استعدادًا ثمّ ينشئُ نفسهُ بعد خروجهِ منها . وافضلُ ما يُعلمُهُ اياهُ اساتذتهُ هو أن يدرس . الاّ انهُ حالما يصير خارج جدران المدرسة يكفّ عن استعمال الكتب والمساعدات التي لا يحصّل بها قوتهُ و يلجأ الى الوسائل التي تمكّنهُ من ذلك

واذا اقدم رجل على مزاولة عمل ما يملءُ فؤادهُ ولم يفلح فيهِ فلا ينبغي لنا ان نستنتج انهُ لا يُفلح في عملٍ ما . انظر الى سمكةٍ تخبطُ على الشاطىء كأنها تودُّ ان تمزّق نفسها تمزيقًا ، ثم انظر اليها وقد جاءت موجةٌ عظيمةٌ مندفعةً الى الشاطىء فغطّت تلك

المخلوقة المنكودة الحظّ فما كادت زعانفها[1] تحسّ بالماء حتى عادت اليها قوّتها ووثبت كالسهم في وسط الامواج . وما ذاك الاّ لأنّ زعانفها اصبحت تفيدها الآن في حين انها كانت قبلاً تلطمُ التراب والهواء على غير جدوًى فكانت لها عائقةً لا مساعدةً

فاذا فشلْتَ بعد أن بَذَلْتَ جَهْدَك فافحص العمل الذي تزاولهُ اترى هل هو مما تنزِع اليهِ وتستطيع القيام بهِ. فان كوبر[2] قد فشل في المحاماة لانهُ كان من الجُبن بحيث لا يستطيع ان يرافع في دعوى من الدعاوي ولكنهُ نظم قصائد يعدُّها الانكليز والاميركان من أرفع الشعر . وموليار[3] لم يرَ من نفسهِ مقدرةً على تعاطي المحاماة ولكنهُ أحرز مقامًا ساميًا في عالم الادب . وڤولتير[4] وبترارك[5] هجرا الشريعة فاختار اولهما الفلسفة والآخر الشعر . وكرومويل[6] ظلَّ مزارعًا حتى الاربعين من عمرهِ

وقليلون منا الذين يُظهرون نبوغًا كبيرًا او ذكاء يستحق الذكر في ايِّ نوعٍ من انواع العمل أو الدرس قبل ادراكهم سن الكهولة . والسواد الأعظم من الفتيان والفتيات يصعب عليهم جدًّا مهما أُفسح لهم المجال أنْ يُقرِّروا العمل الذي يعتنقونهُ لكسب معاشهم قبل الخامسة عشرة من العمر ولربما قبل العشرين فيعمد كلٌّ منهم الى البحث في زوايا عقلهِ لعلهُ يجد ثمةَ استعدادًا فائقًا لمهنةٍ معيَّنة فلا يرى شيئًا من ذلك. الأ ان هذا ليس بسبب يحدو بهِ الى ترك العمل الذي بين يديهِ أو التهاون في اتمام واجباتهِ في المهنة التي هي من نصيبهِ. فان صموئيل صيلز لم تكن الحرفة التي مرَّن عليها

(١) زعانف السمك أجنحتها (٢) روائي اميركيٌّ مشهور (١٧٨٩—١٨٥١)

(٣) روائي افرنسيٌّ اشتهر برواياتهِ الهزلية البديعة التي تُعدُّ من افضل ما انتجتهُ القرائح من نوعها (١٦٢٢—١٦٧٣) (٤) كاتب وشاعر افرنسيٌّ شهير كان لكتاباتهِ تأثير كبير على الافكار في القرن الثامن عشر (١٦٩٤—١٧٧٨) (٥) شاعر ايطاليٌّ كبير (١٣٠٤—١٣٧٤)

(٦) هو زعيم الثورة الانكليزية التي قتل فيها الملك شارل الاول وقد دُعي حاميًا الجمهورية الانكليزية سنة ١٦٥٣ ولهُ حوادث مشهورة في تاريخ انكلترا (١٥٩٩—١٦٥٨)

منطبقة على ذوقهِ ولكنهُ زاولها بامانة واخلاص فساعدتهُ على التوصُّل الى مهنة التأليف التي ناسبتهُ كل المناسبة

فأمانتنا في إتمام ما بين أيدينا من العمل وما علينا من الواجبات اليومية وشعورنا الصحيح بالتبِعات الملقاة على عواتقنا نحو ذوينا ومستخدِمينا وانفسنا وربّنا كلُّ ذلك ممّا يُوصل كثيرين منا الى المراكز المناسبة لهم في الوقت المناسب

ولم يكن غارفيلد ليرتقي الى منصَّة رئاسة الجمهورية الاميركية لو لم يسبق لهُ ان كان معلّمًا ذا حميَّة متّقدة وجنديًّا قائمًا بواجبهِ وسياسيًّا حسنَ الذمَّة. ولا كان للنكلن وغرانت وهما في المهد سبقُ استعدادٍ للجلوس في البيت الابيض[1] ولا دهاءٌ نادرٌ لإدارة امور الناس. ولذلك ليس لاحد ان يقنطَ لعدم حصولهِ على مواهبَ ساميةٍ منذ ولادتهِ. بل عليهِ ان يعمل بأفضل ما يمكنهُ اينما ألقاه حظُّهُ ويتقدَّم في كل فرصة شريفة تسنحُ لهُ الى الجهة التي يدلُّهُ عليها المنبّه الداخلي الذي فيهِ. فليكن إتمام الواجب رائِدَنا[2] ولا شك ان النجاح يكلّل مساعينـــا على مقدارِ مهارة كلٍّ منّا واجتهادهِ

ما هي المهنة التي أعتنقها في حياتي ؟

اذا كانت غريزتُك وقلبُك يدعوانك الى النجارة فكن نجارًا وإنْ الى الطب فكن طبيبًا. فمع الاختيار الثابت والنشاط في العمل لا بدَّ للشاب والفتاة من ان ينجحا. أما اذا لم يكن للمرء من نزعة غريزيَّة او كانت لهُ نزعةٌ ضعيفةٌ خفيةٌ فعليهِ ان ينتخب شيئًا من المهَن التي هي أكثر اتفاقًا مع جدَارتهِ وفُرَصهِ. ولا يشكُّ احدٌ في ان للعالم مصلحةً من وجودهِ. والنجاحُ الحقيقيُّ ينحصر في ان تعمَل جيدًا ما عليك وهذا ما يقدرُ عليهِ كلُّ انسان. وخيرٌ للمرء ان يكون فاعلاً ينقل الطين من الدرجة الاولى من ان يكون في اي مهنة اخرى من الدرجة الثانية

(١) القصر الذي يقيم فيهِ رئيس حكومة الولايات المتحدة الاميركية (٢) الرائد هو الذي يتقدَّم القوم باحثًا عن الكلإ

ولقد أظهر العالم عطفاً شديداً على كثيرين ممن كانوا يُعدُّون حمقى ومغفلين وذلك بعد أن تسنموا ذروة النجاح . الاّ أنهُ كان شديد القسوة عليهم عندما كانوا يجاهدون وليس حولهم الاّ ما يُثبّط⁽¹⁾ عزائمهم . فأوجدْ لكل شابٍ أو فتاةٍ مجالاً للسعي ونشّطها تنشيطاً معقولاً ولا تعبث بهما ولو كانا على جانب عظيم من السذاجة والبلادة . فإنّ كثيرين من الأحداث المعدودين غير صالحين لشيء واغبياء وحمقى ليس ذنبهم الاّ أنهم قد صُرفوا الى اعمالٍ غير متلائمةٍ مع استعداداتهم الفطرية

ان ولنكتون كانت والدته تعدهُ أبله . وكان يُدعى وهو تلميذ في مدرسة اتون أحمق كسولاً بليداً وكان في مؤخرة التلاميذ وقلما رُجي منهُ خيرٌ . الاّ أنهُ كانت لهُ مزيتان تشفعان بهِ لدى معلميهِ ووالديهِ وهما الاجتهاد والثبات . وقد انتصر وهو في السادسة والاربعين على أعظم قائدٍ في العالم

وغولدسمث كان أُضحوكة لأساتذتهِ وقد حاول ان يدخل صفَّ الجراحة فرُفض فتحوّل الى الأدب . على انهُ اذا كان قد وجد نفسهُ غير صالح لتعاطي الطب فمن غيرهُ كان يقدر ان يكتب رواية "قسيس ويكفيلد" أو "القرية المهجورة" وقد كان في حالة شديدة من العوَز وكاد يقبَض عليهِ ويُسجَن بسبب ما عليهِ من الديون فلقيهُ الدكتور جونسون واخذ منهُ نسخة رواية "قسيس ويكفيلد" وباعها لاحد ارباب المطابع وبذلك مكّنهُ من ايفاء ديونهِ . وكان نشر هذه الرواية سبباً لاكتسابهِ شهرةً طائرةً

وروبرت كليف كان في المدرسة يلقَّب بالأحمق والمنبوذ الاّ أنهُ في سن الثانية والثلاثين تغلَّب بثلاثة الاف رجل على جيشٍ مؤلَّف من خمسين الفاً في معركة بلاسي ووضع اساس امبراطورية الهند البريطانية . والسر ولتر سكوت⁽²⁾ كان معلمهُ يدعوه بالأبله . وبيرون⁽³⁾ لما اتفق لهُ ان صار مرةً الأوّل بين تلامذة صفهِ

(1) يعوق (2) كاتب روائيّ انكليزي شهير (1771–1832)
(3) شاعر انكليزيّ كبير (1788–1824)

قال له معلمه: "أرني الآن كيف تعود سريعًا الى الأسفل"

وكان لينوس يدعوهُ معلموهُ غرًا. ولما وجدهُ والداهُ غير أهل للعلوم الدينية أرسلاهُ لدرس الطبّ الاّ ان الاستاذ الصامت الذي في داخلهِ وهو أعظم وأحكم من كلّ من سواهُ قادهُ الى الحقول. ولم يمنعهُ عن التوغّل في درس علم النبات الذي يتزع اليهِ مرضٌ ولا فقرٌ ولا شقاءٌ حتى نبغ فيهِ وصار من اعظم علماء النبات في زمانهِ

وريشارد شريدان حاولت امهُ عبثًا ان تلقنهُ مبادئ العلم الأساسية الاّ أن وفاتها أيقظت مواهبهُ الخامدة كما يحدث كثيرًا في مثل هذه الاحوال فلم يلبث ان صار من اشهر رجال عصرهِ

وصموئيل درو كان من أغبى وأكسل الشبان في بقعتهِ ولكنهُ بعد حادث وقع لهُ وكاد يُفقِدهُ الحياة وبعد وفاة شقيقهِ اصبح مجتهدًا مكبًا على الدرس لا يضيع دقيقة من الوقت سدى، حتى بات يطالع أثناء تناولهِ الطعام ويستعمل كل ما يتيسر لهُ من اوقات الفراغ لاكتساب التهذيب. وقد قال ان كتاب باين الذي موضوعهُ "سن الرشد" هو الذي جعلهُ في عداد المؤلفين، فانهُ بانتقادهِ ذلك الكتاب ومحاولته دحضَ ما جاء فيهِ من البراهين عرفهُ الناس كاتبًا بليغًا قوي الحجة

ولند قبل بجتيٍ انهُ لم يعرف احدٌ مواهبهُ الفطريّة وظهرَ في مظهر حقير، ولا جهلها احدٌ وظهر في مظهرٍ كبير



الفصل الخامس

انتخاب المهنة

ان العجماوات تعرف الحدّ الذي يصل اليهِ ادراكها الغريزي. فالدب لا يحاول ان يطير والجواد الأعرج يتأمل كثيراً قبل ان يحاول ولوج رتاج[1] موصد والكلب عندما يرى حفرة عميقة وواسعة جداً تدفعهُ غريزتهُ الى التحوّل الى جهة اخرى . اما الانسان فهو المخلوق الوحيد الذي تدفعهُ حماقتهُ الى مقاومة الطبيعة . وعندما تناديهِ بأعلى صوتها : "تأخر" يلبث في مكانهِ بعناد وينصرف بملء عزمهِ الى الشيء الذي تميل اليهِ موهبتهُ اقلّ من كل ما سواهُ — سويفت

ان اكليل توفيق الرجل هو وجود نزعة في صدرهِ منذ ولادتهِ الى مهنة يجد فيها العمل والسعادة سواء كانت تلك المهنة صنع السلال ام الفؤوس ام الخنادق ام التماثيل ام الاغاني

امرسون

احتفظ بالعمل الذي اعدّتك الطبيعة لهُ ولا تنحرف عن خط موهبتك . كن كما قصدت الطبيعة ان تجعلك فتنال النجاح ، واما اذا كنت في اي عمل آخر فانك تكون أسوأ من لا شيء بعشرة آلاف مرة — سدني سمث

حدّث ارطاميس ورد عن نفسهِ قال : ان لكلّ انسان قوّةً فقوّةُ بعض الناس ان يعملوا هذا الشيء وقوّة البعض الآخر ان يعملوا سواهُ وهنالك فريقٌ كبير من

---

(١) الرتاج الباب العظيم وموصد مغلق

الاشخاص المادي التدبير الذين دأبهم الطواف لغير جدوى فهؤلاء لا قوّة لهم على عمل شيء

ولقد حاولتُ مرتين ان افعل اموراً لا قِبَل[1] لي بها . ففي المرّة الاولى قصدت ان اضرب رجلاً جسوراً ثقب خيمتي ودخل اليها فصحت به ان اخرج خارجاً وإلّا أذقتك من ألم الضرب ما لا تنساه طول العمر فهزأ بي ولم يمتثل لي فهجمت عليه ولكنه بأسرع من مرور النسيم قبض على عنقي بعنفٍ وقذفني الى مرعى البقر . ثم اعاد الكرّة عليّ والقاني في بركة موحلة . فلما خرجت منها وخلعت ثيابي المبلّلة ايقنت ان ليست لي قوّة المصارعة

وها انذا ارفع الستار الآن عن المشهد الثاني . ففي احدى المدن في اندبانا في خريف سنة ١٨ — مرض العازف على الارغن في جوقي بالحمى ومات . ولم يكن من عادتي معاقرة الخمرة طلباً للسلوى والتعزية ولكنني اذ ذاك فكّرت ان اتناول بعض جرعات من شرابٍ مقوٍ . فكانت النتيجة اني افرطت في الشرب حتى غبت عن الصواب . فأطلقتُ جميع حيواناتي المفترسة حرّةً في الشوارع . ثم راهنت على اني اقدر على لعب الخيل . فنزلت الى فارب في الترعة وكان فيه فرسان ورائي وفرس عند رأسي. ولكن الخيل لم تكن معتادة مثل هذا الامر فجعلت ترفس وتحمحم وتصهل. فكانت النتيجة أني أُصبت برفسات عديدة على معدتي وظهري ووجدت نفسي في وسط الترعة مع هذه الخيل التي ترفس وتصهل كقبيلة من المتوحشين . فتداركني الناس وأنقذوني ولما جُلبت الى الحانة قلت بصوتٍ ضعيف ان ليست لي القوّة على لعب الخيل

ومغزى هذه القصة انه يجب عليك ايها القارئ ان لا تفعل شيئاً ليس من قوّتك لانك اذا فعلت ذلك تجد نفسك — وقولي هذا ضربٌ من المجاز — ملاطماً الماء في وسط الترعة

(١) لا طاقة لي عليها

وقد نشرت احدى صحف اميركا الغربية الاعلان الآتي وظلّت توالي نشرهُ يوماً بعد يوم دون ان يتلقّى صاحبهُ جواباً عليهِ وهذا نصّهُ :

يُطلَب مركزٌ لطبَّاع ماهر قادر على القيام بايّ نوعٍ من اعمال الطباعة وتنضيد الحروف . وفي استطاعتهِ ان يكون أُستاذاً في احدى المدارس . وان يُعلّمَ التصوير والرسم والهندسة وعلم المثلثات وعلوماً أُخرى . ويمكنهُ ان يكون واعظاً او أن يؤلف صفاً من السيدات الفتيَات والسادة ليُدرّسهم العلوم العالية . وفائدتهُ عظيمة جدًّا لاطباء الاسنان ولاطباء الايدي والارجل , وهو يقبل بكل السرور مركزاً في احد اجواق الغناء

وبعد مدة أُضيفت الى هذا الاعلان الجملة الآتية :

حاشية : انهُ يقبل ان ينشر ويقطع الحطب باقل من الأُجرة المعتادة . وهذه الجملة الاخيرة أوجدت لهُ عملاً في الحال لان ذلك الاعلان لم يظهر بعدئذٍ في الجريدة

فاعلمْ أنّ موهبتك هي دعوتك وأنّ قسمتك الصحيحة تظهرُ في سجاياك ومتى وَجَدْتَ مركزك فان كلّ قوة من قوى نفسك تُصبح راضيةً بالعمل الذي تتعاطاهُ

فاخترْ اذا استطعت العمل الذي يحوم حولهُ معظم اختبارك وذوقك فاذا فعلت ذلك فلا تكون قد حصلت على المهنة الملائمة لك فقط بل انك تتمكن من استعمال حذقك ومهارتك وهما رأْسُ مالك الحقيقي

وعليك ان تتبع ميلك . فانك لا تستطيع ان تحارب اميالك طويلاً بنجاح . وربما عبث الأهلُ أو الاصدقاء أو معاكسةُ الاحوالِ بأهواء قلبك واضطُرِرْتَ الى ممارسة مهنة لا تميل اليها ولكنّ النار الداخليّة أشبهُ بالبركان فلا تلبث ان تنفجر وتمزِّق القشرة المحيطة بها وتصبّ مصهوراتِ قريحتِك وموهبتك إمّا في البلاغة أو الموسيقى أو الفنون أو غير ذلك من الامور التي يصبو اليها فؤادك . واياك الاقدامَ على ما لا تأمل ان تمارسهُ بإتقان . فان الطبيعة تمقت كلَّ عملٍ ملفّق أو ناقص وتصبُّ لعنتها عليهِ

قال ماثيو ارنولد : " خيرٌ لك ان تكون سلطان مسّاحي الاحذية من ان تكون محامياً سخيف العقل مثل الضرورة لا تعرف شريعة "

ويظهر ان نصف البشر يتهنون حرفاً واعمالاً غير ملائمة لهم فكأنَّ الجنس البشريّ قد أصابته هزّة جعلتْ افرادهُ يتبادلون مراكزهم . فانك لَترى فتاةً صالحةً للخدمة تتعاطى التعليم وفتى صالحاً للتعليم يخدم في مخزن ، واشخاصاً وُجدوا ليكونوا مزارعين نشيطين يتهنون المحاماة ، ومن وُجدوا ليكونوا من خيرة رجال القانون يعملون في المزارع ، وغلماناً يشتون في المعامل كان ينبغي ان ينصرفوا الى درس اليونانية واللاتينية ، ومئات آخرين رازحين في الكليات تحت اعباء غير طبيعية وكان الأجدر بهم الاقامة في المزارع أو تجاه الصواري في المراكب ، وأناساً متطفلين على الفنون يزخرفون رسوماً على النسيج والأحرى بهم ان يجيّروا الجدران ، ووراء مناضد الحساب كتّاباً يكرهون بيع البضائع ويهملون عملهم مفكرين في مهن اخرى ، وتجد اسكافاً ماهراً ينظم بعض ابيات ينشرُها في قريتهِ فيدعوهُ اصدقاؤهُ شاعراً مطبوعاً فيطلّق حرفتهُ التي تليق بهِ ويليق بها وينصرف الى القلم يديره بطريقة يمجُّها الذوق السليم ، وهنالك أساكفةٌ آخرون جالسون على مقاعد مجلس الشيوخ وسياسيُّون يصنعون قوالب احذية ، ورجالاً من العامة يُلفّقون عظات لا طائل تحتها في حين ان جماعة من خيرة الوعاظ يتعاطون التجارة ويفشلون فيها والناس يتعجبون لسبب فشلهم ، وترى ولداً لا لذة له منذ حداثته الاَّ التلهّي بالآلات واصطناع اشياء مصنوعة بها يزجه ذووه في المدرسة الجامعة ويدفعونهُ في طريق يوصلهُ الى مؤخرة المتعاطين احدى المهن الشريفة الثلاث ، وجرّاحين خفيفين يقلّبون المُدْيَة والساطور وازاءهم جزّارون يقطعون اعضاء بشرية . وان من التوفيق وجود قوة علوية تكيِّف خواتمنا وتنحتها لنا كما نريد . قال فرنكلن : " ان من له حرفة فهو صاحب عقار ، ومن له دعوة فله مركز فائدة وشرف . وان حراثاً واقفاً على قدميهِ لهو أرفع شأناً من سيّدٍ جاثٍ على ركبتيهِ "

والعملُ يوثّر في تكوين الرجل اكثر من كل شيء آخر . فانهُ يصلّب عضلاته ويقوّي بدنهُ ويعجل دورتهُ الدموية ويجدّد ذهنهُ ويصحح حكمهُ ويوقظ قوتهُ المولّدة ويمرّن ذكاءهُ ويدفعهُ في ميدان الحياة وينبه اطاعة ويجعلهُ يشعر انهُ انسان وعليهِ ان يقف موقف انسان ويعمل عمل انسان ويتم واجبات انسان في الحياة ويظهر انهُ انسان في ما يتمهُ . ولا يشعر المرء انهُ انسان ما لم يعمل عمل انسان ، ومن لا عمل لهُ فليس بإنسان لانهُ لا يبرهن بافعالهِ على انهُ انسان. فان ستين كيلو غرامًا من العظام والعضلات لا تصنع انسانًا ولا الجمجمة الكبيرة المملوءة دماغًا هي الانسان بل يجب ان تعرف تلك العظامُ والعضلات والدماغ ان تعمل عمل انسان وتفتكر افكار انسان وتسير سير انسان وتحمّلَ العبء الذي يجب ان يحملهُ الانسان من الاخلاق والواجبات حتى تؤلف انسانًا

"وقد جاء في حديث نبويّ : إنّ الله يحبُّ العبدَ المحترف وان الله يبغض العبد الصحيح الفارغ

وجاء في حديث آخر: اعمل لدنياك كأنّكَ تعيش ابدًا واعمل لأُخراك كأنك تموت غدًا

وقالت العرب : من لم يحترف لم يحتلف

ومرّ الحسن بن عليّ بإسكاف فقال يا هذا أعمَلْ وكُلْ فان الله يحبُّ من يعمل ويأكل ولا يحبّ من يأكلُ ولا يعمل

وقال عُمَر بن الخطّاب : اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول ألهُ حرفةٌ فان قالوا لا سقطَ من عيني"

والشرطُ الأوّلُ للنجاح هو مباشرة العمل والشرط الثاني المواظبة عليهِ فمن تمّ هذين الامرين ضمن الاحوال العادية وكان لهُ من النباهة العمليّة ما يسترشد بهِ فلا شك انهُ لا يفشل ولا نتطلّب مركزًا أعلى مما انت فيهِ ولا مرتبًا اكبر مما أنت حاصل عليهِ بل عظّم المركز الذي تشغلهُ وسِرْ فيهِ على نظامٍ وترتيب وقم بواجباتهِ قيامًا لم يأتِ بمثلهِ

احدٌ قبلك وكن أسرعَ وأشدَّ عزيمةً واكثر اتقانًا واوفر ادبًا من سلفك او من رصفائك وادرس عملك وابتكر له طرقًا حديثة وابذل جهدك لإعلاء منزلتك في عين مستخدِمك ولا ينحصر ذلك في مجرّد الحصول على رضاه ولا في ان تكون كُفوءًا للمهمة التي هي موكولة اليك بل عليك ان تفعل افضل مما هو منتظرٌ منك وان تُدهش مستخدِمك فلا تلبثَ ان تنالَ مركزًا ارفعَ ومرتبًا اوفر

وحين تكون بدون عمل لا تتردّدْ عن قبول اول مركز لائق يتيسّر لك ولا يَسُؤْك ان يكون دون ما تستحقهُ مقدرتك فانك اذا أبرزت فيهِ ما أنت عليهِ من الاهلية والاستعداد فلا يمضي وقت طويل حتى تحصل على عملٍ افضل

وقد صارت مسئَلةُ تعيين خطة صحيحة لعمل المرء في حياتهِ من مُعضِلات المسائل في هذا العصر الموجب للارتبـــاك . ولو انها تتعلق برجلٍ من افراد قبيلة الزولو[1] او بابنة بدوية لما كانت على شيء من الصعوبة فان المتوحّش ليس امامهُ الأخطةٌ واحدة للحياة ولكن الانسان كلما ارتقى في سلَّم المدنيَّة وزاد النصائة بمركز الحركة والنشاط ازدادت هذه القضيَّة عندهُ اهميَّةً وصَعُبَ عليهِ اتخاذ القرار الفاصل بشأنها . وكلما ازدادت المُنافسات حول المرء ازدادت لديهِ أهميَّةُ تقرير الخطّة الصحيحة لعملِهِ لكي يكون أقدر على جمع عزيمتهِ وحماستهِ في الجهاد لاجل النجاح . فان تفريق القوَّة وعدم حصر الرجاء في موضوعٍ معيَّن من أضرّ الامور بالتقدُّم ولو كان المرء يزاول أحبَّ الاعمال الى قلبهِ

قال غلادستون : ان هنالك حدًّا معيّنـًا للعمل الذي يمكن استخراجُهُ من الجسد البشري او الدماغ البشري والرجل الحكيمُ لا يُضيّع قوّتهُ سدًى في اعمال ليس كفوًا لها

وقال كارليل : مباركٌ الرجل الذي وَجدَ عملهُ وحَسْبهُ هذه البركةُ فلا يطلب سواها . ان لديهِ عملاً هو غاية حياتهِ . فهو قد وجد خطّتهُ وسيتبعها

(١) قبيلة همجية تعيش في احدى المستعمرات الانكليزية في افريقيا الجنوبية

واذا اردت اختيار عمل فلا تبحث عما تحصل فيهِ أكثر ما يمكنك من المال أو الشهرة بل اختر العمل الذي تتجه نحوهُ كلّ قواك وتنمو بهِ رجولتك مكتسبةً أعظمَ مقدرةٍ وانتظام. فالشيء الذي تحتاج اليهِ ليس المال ولا الشهرة بل هوَ القوَّة. وان الرجولة لأعظمُ من الثروة وارفع مقاماً من الشهرة. والسجايا والاخلاق أهمُّ من اي مركز كان. وعليك بتربية كل موهبةٍ من مواهبك فان كل نقص في تربيتها يَظهر في ايّ عملٍ تعمله. فمن الواجب ترويض اليد على ان تكون رشيقةً ثابتةً متينةً، والعين على ان تكون حادَّةً مميزةً تنظر أصغر الأشياء، والقلب على ان يكون حنوناً مشفقاً صادقاً. والذاكرة يجب ان تمرّن سنين طوالاً على الدقةِ والاستيعاب والفهم، وما كان العالم ليطالب منك ان تكون قانونياً او قسًّا او طبيباً او مزارعاً او عالماً او تاجراً ولا يوجب عليك انتهاج خطة معيّنة وانما هو يطالب منك ان تكون قديراً في عملك. فاذا كنت قديراً في مهنتك فان الناس يصفِّقون لك استحساناً وكل الابواب تفتح في وجهك. ولكن العالم يرذل كلَّ ترقيعٍ وعدمِ اتقانٍ وفشل

قال روسو: "ان كلّ من هو مهذَّبٌ حقَّ التهذيب على إتمام واجباتهِ الانسانية لا يمكن ان يكون غير مستعدٍ استعداداً حسناً ليملأ اي مركز من المراكز التي لها علاقة بهِ. وسواء الديَّ عيَّن تلامذتي في الجيش أم المنابر أم للمحاكم. فان الطبيعة قد عيَّنتنا لوظائف الحياة البشرية قبل تعيينها لنا لما يتعلَّق بالمجتمع. فالمهنة التي أُعلمها تلميذي هي كيف يعيش. وحقيقيٌّ انهُ متى فرغ من تعلُّم ذلك لا يكون جندياً ولا محامياً ولا لاهوتيًّا. فعندي انهُ يجب ان يكون قبل كل شيء انساناً. وقد يمكن ان تنقلهُ الاقدار من مركز الى آخر كما يحلو لها الا انهُ سيكون كُفُوءًا لمركزهِ دائماً"

ولا شبهة في أنَّ لِلَّباقة وحسن السلوك الشأن الأوَّل في سباق الحياة العظيم. فان الثروة والشهاداتِ المدرسية والنسب والفطنة والعبقرية اذا كانت مجرَّدةً عن اللباقة وحسن السلوك فلما تأتي الاَّ بنتائج ضئيلة. وان الذين لا جدارة ولا دربة لهم يَظلُّون

في المؤخرة ولو كانت ظهورهم موقرة [1] بالشهادات والالقاب العلمية . ففي هذا العصر لا يُسأل المرء : ماذا نعرف او من انت ، بل ما هي صفاتك وماذا تستطيع ان تعمل

ولقد اصاب جورج هربرت بقوله : ان ما نحن عليهِ من الصفات هو أهمُّ وأفيَدُ لنا مما نستطيع ان نعمله . فكلُّ مركزٍ او عملٍ فيهِ اقلُّ شيء موجب للريب سواء كان ذلك في عدالتهِ أم في شرفهِ أم في صوابيتهِ يجب نبذُهُ نبذَ النواة . ولم يكن فنُّ تزويق الخطإِ بحيث يظهر بمظهر الصواب رائجًا ومطروقًا في عصرٍ من العصور كما هو في عصرنا الحاضر. ومن الامور المستغربة أنَّ العقل يتغلَّب بالالحاح على غريزة الحق في الانسان. وقد قال عالمٌ شهيرٌ ان الانسان اذا شاء ان يتحمَّل المشقَّةَ الكافية يستطيع ان يُقنعَ نفسهُ بما هو خارجٌ عن غريزة اللياقة ، بحيث انهُ اذا عرض عليهِ مستقبلٌ موجبٌ للريبة ولكنهُ غرَّارٌ جذَّابٌ فقد تعرض لهُ التجربة بأن يشتبهَ عليهِ الخطأُ حتى يظهر لهُ صوابًا . على ان كل مركزٍ او عملٍ غيرِ ادبيّ يجلب معهُ جرثومةَ فشلٍ حقيقيٍّ طبيعيٍّ وروحيّ

ولا شكَّ في ان لكلِّ شخصٍ استعدادًا خاصًّا للعمل الذي هو مقسومٌ لهُ في هذه الحياة. وقليلون جدًّا — وهم الذين ندعوهم نوابغ — يظهرُ فيهم ذلك باكرًا جدًّا في زمان حداثتهم

فقد كانت مدام دي ستايل [2] مُولعة بدرس الفلسفة السياسية في عمرٍ لاهمّ فيهِ لغيرها من البنات الَّا إلباس اللُّعَب .وكان موزار [3] في الرابعة من سنيهِ يوقع على احدى الآلات و يضع الحان رقص صغيرة وقطعًا اخرى لاتزال باقية الى اليوم.وكان شالمرز [4] وهو طفلٌ يعظ غالبًا بهيئةٍ رزينةٍ وإشاراتٍ حماسية عن كرسيٍّ في حجرة الاولاد .

---

(١) مثقلة (٣) كاتبة افرنسية شهيرة لها عدَّة مؤلفات نفيسة (١٧٦٦ — ١٨١٧)

(٢) موسيقيٌّ الماني مشهور (١٧٥٦—١٧٩١) (٤) واعظ اسكتلندي شهير

وغوث [١] أنشأ بعض روايات تمثيلية وهو في الثانية عشرة . وغروثيوس [٢] ألَّف كتابًا فلسفيًا جليلاً قبل ان بلغ الخامسة عشرة وبوپ [٣] كان ينظم ارقامًا وهو طفل. وشاترتون [٤] نظم قصائد حسنة وهو في الحادية عشرة . وكولي [٥] نشر ديوانًا شعريًا وهو في السادسة عشرة . وتوماس لورانس وبنيامين وست اخذا برسمان قبل ان استطاعا المشي وليزت [٦] اخذ يوقع على الآلات في الحفلات وهو في الثانية عشرة . وكانوڤا [٧] كان يسبك تماثيل من الطين وهو فتى صغير . وباكون [٨] بيَّن اغلاط فلسفة ارسطو [٩] وهو في السادسة عشرة . وكان نبوليون يقود جيوشًا من الاولاد وهم يتراشقون بكُتَل الثلج في بريان

فكل هؤلاء ظهرَتْ نزعاتُهم في حداثتهم وقد تبعوها في حياتهم العملية . ولكن النضج الباكر ليس امرًا عامًّا وفي ما عدا بعض حوادث نادرة يجب علينا ان نسعى بانفسنا لاكتشافِ النزعاتِ الكامنةِ في صدورِنا ولا ننتظرَها ربَّما تُعلنَ عن نفسها . ومتى ظفرنا بها فكأننا قد عثرنا على منجم ذهب

قال اسقفٌ لاكليريكيٍّ شاب : انني لا أمنعك عن الوعظ ولكن الطبيعة هي التي تحظر عليك ذلك

وقال اويل : ان محاولتنا الباطلةَ جعلَ أنفسنا غيرَ ما نحن عليهِ هي التي ملأت التاريخ بحوادثِ الفشل في المقاصد وابقت حياة كثيرين على خشونتها الأولى

ولا تحسبْ أنك قد حصلتَ على مركزك الحقيقي حتى تتنبَّهَ كلُّ قواك وتشعر ن

---

(١) هو اشعر شعراء الالمان صاحب روايتَي فوست وورذ ر وغيرها وهو ايضًا عالم وكاتب جليل الشأن (١٧٤٩–١٨٣٢) (٢) كاتب هولنديّ شهير له مؤلف جليل موضوعهُ "حقوق الحرب والسلم" (١٥٨٣–١٦٤٥) (٣) شاعر وفيلسوف انكليزي كبير (١٦٨٨–١٧٤٤)
(٤) شاعر انكليزي (١٧٥٢–١٧٧٠) (٥) شاعر انكليزي (٦) موسيقيٌّ المانيٌّ شهير
(٧) نقَّاش ايطاليٌّ شهير تقدَّم الكلام عنهُ يعدُّ محييًا لهذا الفن في ايطاليا (١٧٥٧–١٨٢٢)
(٨) فيلسوف انكليزي كبير (١٥٦١–١٦٢٦) (٩) فيلسوف يوناني عظيم كان مهذِّبًا للاسكندر المقدوني (٣٨٤–٣٢٢ قبل المسيح)

نفسك بالارتياح التام الى العمل الذي تعملهُ والموافقة عليهِ ، وحتى يبلغ تحمسك فيهِ مبلغًا يجعلك تأخذهُ معك الى سريرك . وقد يمكن انك تضطرّ الى مزاولة مهنةٍ غير ملائمة لك الى امدٍ ما فعليك ان تتملص منها بأسرع ما يمكنك . فان كاري "الاسكاف المنذور لله" قبل أن ذهب للتبشير قال : "ان عملي هو التبشير بالانجيل . وانما أصنعُ أحذيةً لأدفع النفقاتَ"

واذا كانت نزعتك متجهةً الى مهنةٍ حقيرةٍ فأعلِ مقام تلك المهنة بإظهارك فيها من الرّجولة فوق ما يُظهرهُ الآخرون واستعمل فيها دماغك وقلبك وعزيمتك واقتصادك ، ووسعها بأساليب مبتكرةٍ ، واسعَ في ترويجها بالإقدام والاجتهاد ، وادرسْها كما تدرس فنًا من الفنون ، وتعمّد الوقوف على كلِّ دقيقة مما له علاقةٌ بها ، وأجمع كل قواك فيها . لان أعظم الاعمال والمشاريع انما يقوم بها الشخص الذي يضع نُصب عينيهِ غرَضًا واحدًا لاتنازع اجتهادهُ فيهِ أغراضٌ أُخرى . وخيرٌ لك أن تجمّل مركزك وتُزيّنه من ان تتطلّب مركز غيرك

واذا أردت التفوّق في عملك فتعمّق فيهِ . ولا تعدّ شيئًا من الأشياء حقيرًا اذا كان ذا علاقة بهِ . وكن مُطّلعًا على كل جزئياتهِ ودقائقهِ . وهذا الذي كان سرّ نجاح ستوارت واستور فانهما كانا ملمّين بكلّ دقيقة من الدقائق مما يتعلق باعمالها

وكما انّ المحبة هي العذر الوحيد للزواج والشيء الوحيد الذي يقود المرء بسلامة في خلال اضطرابات المعيشة الزوجية ومشاقّها هكذا المحبة للمهنة هي الشيء الوحيد الذي يقود المرء بسلامة وامان في خلال الاضطرابات التي تتغلب على خمسة وتسعين في المئة ممّن يحترفون التجارة وكثيرين من العاملين في كل حرفةٍ غيرها من الحرَف

وقد قال هويتيه مبينًا سرّ مقدرتهِ العظيمة : "انني شعرت انني وُجدت في هذه الدنيا لأعمل شيئًا وانتكرتُ ان الواجب عليّ إتمام ذلك العمل" . وانما يفلح الرجل الذي يتعلّم الصناعة التي خُلق لها سواءٌ كانت المحاماة ام الادب ام الطب ام اللاهوت ام غير ذلك من المهن فدعوتهُ الأكيدة التي هي شغفهُ بتلك المهنة وامانتهُ لهـا هي

العامل القسريّ في تحديد خطتهِ . وأمّا من يُقدِم على اعتناق مهنةٍ لغير سببٍ الاّ كونَ جدّهِ اكتسب بها شهرةً واسعةً او أنّ أمّهُ ارادت منهُ الانضمام اليها وهو خلوٌ من الرغبة فيها والاستعداد لها فالأحرى بهِ ان يكون سائق سيّارة باجرة دولار وخمسة وسبعين سنتاً في اليوم . فانهُ اذا تعاطى مهنةً وضيعةً فقد يجعلهُ ذكاؤُهُ من السابقين بين اربابها واما في المهنة الأُخرى فقد يجلب ضرراً بدل النفع اذ يكون مَثَلهُ مَثَل صخرة زُحزحت عن مركزها وأُلقيت على الخطّ الحديدي مهدِّدةً اوّل قطار قادم

وقد كان الزواج حتى سنواتٍ قليلة خلت المجال الوحيد المفتوح في وجه الفتيات وكانت التي تبقى منهنّ في حالة العزوبة تظلّ عرضةً للوم اصدقائها وصديقاتها . وقد قال ليسنغ : "ان المرأة المفكرة مستحقةٌ للهزء كالرجل الذي يضع على وجههِ طلاء أحمر"

ومنذ امدٍ غير بعيد كانت المرأة الطامحة الى الرقيّ التي تودّ الدرس والكتابة تحفظُ في يدها قطعةً من التطريز تُلقيها على كتابها أو على الأوراق التي تخطها اذا دخل عليها زوّار . وقد قال الدكتور غريغوري موصياً بناتهِ : "اذا اتفق لكنّ أن حصّلتنّ شيئاً من العلم فأبقينَ ذلك مكتوماً اشدّ الكتمان عن الرجال فانهم بوجه الاجمال ينظرون نِظرَةَ حسدٍ وخبثٍ الى المرأة الحاصلة على قسطٍ كبير من المعرفة والاطلاع" . وكانت النساء اللواتي يؤلفنَ كتباً في تلك الأيام يُنكِرنَ الامر كأنهنّ اقترفنَ جرماً الى الانسانية

على ان كل ذلك قد تغيّر ويا لهُ من تغيُّر فان اعظم اكتشافات هذا القرن كما قال فرنسز ويلارد هو اكتشاف المرأة . فقد أعتقناها من قيودها وصرنا نخوّل بناتنا ان يخترنَ لمستقبلهنّ خططاً عديدة غير الزواج . فقد كان يحقّ للشابِّ وحدهُ في القديم ان ينتخب لهُ مهنةً أمّا اليوم فقد أصبح لشقيقتهِ ايضاً الحقُّ في أن تفعل ذلك . وهذا من أكبر مفاخر القرن العشرين . الاّ انهُ مع الحرية تجيء التبعة

وازاء تبدُّل الاحوال هذا يجب على كل فتاة ان تجعل لها وِجهةً معيّنة

قال الدكتور هول : ان العالم في اشد الحاجة الى بناتٍ يكنَّ الساعد الايمن لوالديهنَّ ، يجمعنَ الأطفال الصغار حولها ويُهدّن ما يحدث في البيت من المشاكل ، يرتاح اليهنَّ والدهنَّ لشيء أفضل من الجمال ويفتخر بهنَّ إخوتهنَّ الكبار لشيء يفوق المهارةَ في الرقص والإشراق في الاجتماعات ، ذوات ِادراك صحيح ٍ غير متقيّداتٍ بالاصطلاحات الشائعة ، لديهنَّ الجرأةُ والاستقلالُ الكافيان ليعشنَ بِمعزلٍ عنها ، فلا يلبسنَ ثيابًا طويلة الذيول يجمعنَ بها جراثيم الامراض وأنواع الاقذار في الشوارع ولا يضعنَ قبعات عالية عند ذهابهنَّ الى محلات التمثيل ولا يعرّضنَ صحتهنَّ للخطر بالاعقاب العالية والمشدّات ، بل يرتدينَ ما هو جميلٌ ولائقٌ من الملابس ويُعرضنَ عن الازياء مستنكراتٍ عندما تكون تلك الازياء فظيعةً خرقاء ، لطيفاتٍ قوياتِ المبادئ تنطق شفاههنّ بما تضمرهُ قلوبهنَّ ، طاهراتٍ نقيّاتٍ لا يعرفنَ من الخطيئة والغش والاساءة وهنَّ في العشرين ما تعرفهُ ابنةُ المدرسة الصغيرةُ الوقحة التي لم تجاوز العاشرة ، منتبهاتٍ حكيماتٍ يفتكرنَ الافتكار الكافي بابيهنَّ الكريم الذي يكدّ ويجدّ في العمل ليحصلن على اسباب الراحة والرخاء وأُمّهنَّ اللطيفة التي تنكر نفسها لكي يتمتعنَ بكثيرٍ من الاشياء الجميلة ، يحسبنَ النفقات ويضعنَ خطًّا فاصلاً بين ما هو ضروري وما هو غيرُ ضروريٍ ، باذلاتٍ جهدَهنَّ للاقتصاد والتوفير لاللإسراف والتبذير . غير محبّات لذواتهنَّ حريصاتٍ على ان يكنَّ اسباب سرور وتعزية لوالديهنَّ لا اعباء ثقيلةً عليهم ، ذوات شفقةٍ وحنانٍ يذرفنَ الدموعَ لاجل مصائب شعبهنَّ ويرسلنَ بابتساماتهنَّ اشعّةَ أفكارهنَّ الثاقبة . إنَّ عندنا كثيراتٍ من البناتِ المجتهداتِ والحاذقاتِ واللامعاتِ في المجتمع ونحنُ نحتاجُ الى بناتٍ حارّات القلوب ذوات حميّةٍ وحنان مسلّيات لذويهنَّ لا رغبة لهنَّ في ان يلمعنَ في العالم الخارجيِّ المحبِّ التخفخة . فبعددٍ قليل من البنات المُستجمعات هذه الصفات متفرقاتٍ هنا وهناك

تغدو الحياةُ هنيئةً لكلٍّ منا كما يتلطّف الجوّ بعد سقوط الرذاذ (١) في الصيف."

وقال شاعر انكليزيٌّ ما معناهُ: "يتكلمون عن مجال عمل المرأة كأنَّ لذلك حدّاً محدوداً. والحقيقة انهُ ما من محلٍ في السماء او في الارض ولا عملٍ مما أُعطي للجنس البشري ولا بركة او لعنة ولا لفظة نعم اولا ولا حياة او موت او ولادة ولا شيء مما لهُ اقلُّ شأنٍ وليس للمرأة دخلٌ فيهِ"

قال امرسون: "اعمل ما هو مُعيَّنٌ لك. ولا تفرط في الرجاء ولا تبالغ في الجسارة. ان لديك الآن كلامًا موجّهًا اليك عظيمًا وقويًّا كازميل فيدياس (٢) المائل او مِسلفة (٣) المصريين او قلم موسى او دانتي (٤) ولكنهُ يختلف عن كل هذه"

وقال رسل ساج: "ان افضل طريقة يبدأُ بها في العمل شابٌّ لا أصدقاءَ لهُ ولا نفوذ هي السيرُ على القواعد الآتية: اولاً ان يوجد مركزًا ثانيًا ان يُحافظ على الصمت ثالثًا ان يلاحظ رابعًا ان يكون امينًا خامسًا ان يجعل مُستخدِمهُ يعتقد انهُ اذا استغنى عنهُ ضلّ طريق الصواب سادسًا ان يكون مهذّبًا

وجون وانا ميكر الذي كان شعارهُ "اعمل الشيء القادم" قد وضع اربعة شروط للنجاح وهي: "الاجتهادُ الشديد واستقامةُ النية والانتباه للجزئيات والانذار بتعقل"

ومهما عملت في هذه الحياة فكن أعظم من عملك. ومُعظم الناس يعدُّون المهنة وسيلةً مجرَّدةً لكسب الرزق. ولعمري إنَّ ذلك لرأيٌ قاصرٌ مخطٌ فالمهنةُ هي مدرسةُ الحياة الكبرى واعظمُ مرقٍّ للانسان ومؤسّسٍ للاخلاق. وهي التي تؤثّر على ما منحنا اياه الله من القوى والمواهب فتوسعها وتعمقها وترقيها وتبسطها وتزيدها انتظامًا وائتلافًا وجمالاً. فكيف نجزع منها ونجتنب الدروس التي يُقصد بها استخراج

(١) المطر الضعيف (٢) هو اعظم نقاشي اليونان القدماء (٥٠٠–٤٣١ ق.م)
(٣) آلة تسوّى بها الارض (٤) شاعر ايطالي كبير مؤلف "الرواية الالهية" (١٢٦٥ – ١٣٢١)

منفعة وقوة مما فينا من المواهب وما يتاح لنا من الفرص كما نستخرجُ الشمسُ من نُويجات الازهار عطرًا وجمالاً

قال جون انجلو: انني مبتهجٌ بافتكاري باني لست مسئولاً بان اجعل العالم يدور بل الذي عليّ هو ان اكتشف واعمل العمل الذي يجدِّدُهُ لي الله بقلبٍ مغتبط

وقال شاعر انكليزي آخر ما ترجمتهُ: ماذا عليّ ان اعمل لاكون معروفًا ابدًا؟ عليّ ان اعمل الواجب دائمًا. ان هذا يهتمُّ لهُ كثيرون ممن لا يزالون حتى الآن غير معروفين. لكن هل نعتقد ان اولئك الذين لا نعرفهم انت سيظلون غير معروفين؟ ان مدحهم ترتّلهُ ملائكة السماء في ابواقها فحظهم الهيٌّ



الفصل السادس

حصر القوة

انما أعملُ هذا الشيء الوحيد — بولس الرسول

ان الحكمة كل الحكمة في الحياة هي جمع القوة والضرر كل الضرر هو تفريقها سوآء فرقناها بطرق فظة او رقيقة .. ومن الخير كل شيء يبعدُ عنا واسطة لهو وضلال بزيادة ويحملنا على الذهاب الى بيوتنا لنزيد جهدًا في العمل بامانة — امرسن

ان من يتطلَّب في حياتهِ شيئًا واحدًا لا يتعداه الى سواه يقدر ان يأمل بان ينجزهُ قبل ان ينصرم حبل حياتهِ . وأمَّا من يطلب كل شيء حيثما ذهب فانهُ لا يحصد من الآمال التي يزرعها هنا وهناك الأ حسرات عميقة — اوين مرديث

كلما تقدمت في العمر ازددت ايقانًا بان الذي يجعل الفرق بين رجل وآخر — بين الضعيف والقوي والعظيم والحقير انما هو العزم وعقد النية بطريقة لا تتزعزع على امر معين ثم الاقدام فاما الموت او الفوز — فويل بكستون

حدَّث ناثان مابر رونشلد عن نفسهِ وعن اخوتهِ الاربعة قال : لم يكن في فرنكفورت مجالٌ للعمل لنا كلنا وكنت أتَّجر بالبضائع الانكليزية وكان يتردَّد على فرنكفورت تاجرٌ انكليزيٌّ محتكرٌ كل السوق لنفسهِ فكان في نظر الجميع الرجل العظيم واذا باعنا بضائع فكأنهُ قلَّدنا منَّةً عظيمةً . فأغظتهُ بطريقةٍ من الطرق فرفض ان

عرتني رواميز (١) بضائعهِ . وكان ذلك في يوم ثلاثاء . فقلت لوالدي إنني ذاهبٌ الى انكلترا وسافرتُ يوم الاربعاء وكنت كلّما دنوتُ من انكلترا اجد البضائعَ أرخصَ اثمانًا فلما بلغتُ منشستر اشتريت بضائع بكل ما معي من المال لِما وجدتهُ من الرخص المفرط وقد ربحت ربحًا مذكورًا

فقال له احد السامعين : " عسى ان لا يكون بنوك شديدي الولوع بالعمل وجمع المال ما يصرفهم عمّا سوى ذلك من المواضيع الاوفر اهميّة . وانني لواثقٌ انك لا تتمنى ان يكونوا كذلك "

فقال رونشلد : " بل انني اتمنى ان يكونوا كذلك . انني أودُّ ان ينصرفوا بكلّ عقولهم ونفوسهم وقلوبهم واجسادهم الى العمل فهذه هي الطريقةُ الوحيدة ليكونوا سعداء . "

ثم وجه كلامهُ الى بائع جعةٍ من الحاضرين وقال له : " تفرّغْ لعملٍ واحدٍ ايها الشابُّ . تفرّغ لعمل الجعة الخاص بك ومن الممكن ان تصيرَ يومًا ما أعظم بائع جعةٍ في لندن . واما اذا حاولتَ ان تكون بائع جعة وصرّافًا وتاجرًا وصاحب معمل نسج فلا يمضي قليلٌ من الزمن حتى يُعْلَن افلاسك "

فالذي يقضي بهِ الوقتُ الحاضر هو أن يعمل المرءُ عملاً واحدًا بملء قواهُ لا ان يتحولَ الى اعمال عديدةٍ بدون اعتناء . وإنْ من يفرّق مجهوداتهِ في هذا العصر الشديد المناَلب ليس له ان يأمل بالنجاح

وقد وَضَع رجلٌ في لندن على مكتبهِ الشعار الآتي : " نقل بضائع واستلام رسائل وتنظيف طنافس ونظم اشعار في جميع المواضيع " وغنيٌّ عن البيان ان هذا الرجل لم يصادف نجاحًا في شيء من هذه المهمّات وهو يذكّرنا بالمسيو كونارد في باريس الذي كان له الشعار الآتي : " كاتبٌ عموميٌّ ينظّمُ حسابات ويفسّر لغة الازهار ويبيع بطاطا مقليّة "

ولا يتوقّفُ الفرقُ العظيم بين الذين ينجحون والذين يخفقون على المقدار الذي يقوم بهِ كلٌّ منهم من العمل بل على مقدار ما يقوم بهِ منهُ بفطنة ومعرفة . وان كثيرين

(١) نماذج

ممن يخيبون في مساعيهم ويرجعون ملتحفين بثياب الخزي يعملون عملاً كافياً للحصول على نجاحٍ عظيمٍ. وما سرُّ فشلهم الاَّ أنهم يعملون حسب الاتفاق بانين باليد الواحدة وهادمين باليد الاخرى . فهم لا يقبضون على الاحوال ويُحوّلونها الى فرص موافقة ولا مقدرة لهم على تحويل الانكسارات الشريفة الى انتصاراتٍ باهرة . ومع ان لهم مهارةً كافيةً ووقتاً متسعاً وما سدى النجاح ولحمتهُ تراهم دائماً يلفون الى الامام والوراء وشيعةً (١) فارغةً فيَظَلُّ ثوب الحياة الحقيقي غير منسوج على الاطلاق

وإنك اذا سألت واحداً منهم ان يبيّن لك وجهتهُ وغرضهُ في الحياة أجابك : "انهُ يصعب عليَّ ان اعرف الامر الذي انا اكثر استعداداً له من سواه ولكني موقنٌ ايقاناً تاماً بفائدة الكدّ والنشاط واني مصممٌ على المجاهدة كلَّ ايام حياتي مُبكّراً في العمل ومتأخراً فيهِ وأعلم اني سأتوصل الى نتيجةٍ ما إمّا ذهب او فضة او على الاقل حديد" أمّا انا فأقول لهُ بتأكيدٍ أشدَّ : كلاَّ . فما من رجلٍ فطنٍ يحاول حفر قارّة باسرها ليكتشف ما فيها من شرايين الذهب والفضة . وان من يقضي زمانهُ في التفتيش في ما حولهُ لعلّهُ يجد شيئاً لن يجد شيئاً ابداً. فاذا كنا لا نفتّش عن شيءٍ خاص معيّن فاننا لانجد شيئاً . وانما نجدُ الشيء الذي نبحث عنهُ من صميم افئدتنا . وليست النحلةُ بالحشرة الوحيدة التي تزور الازهار ولكنها الوحيدة التي تجني منهــا عسلاً . ولا يهمُّ مقدار ما تكون عليهِ الموادُّ التي نلتقطها في سِني دروسنا وتعبنا في شبابنا من النفاسة وعظم القيمة فاننا اذا نزلنا الى مضمار الحياة وليست لنا فكرة معيّنة في عملنا المقبل فما من اتفاق سعيد يمكنهُ ان يرتب تلك الموادّ على شكلٍ وَفور ويُظهرها في مظهر فخم

قالت اليصابات فلبس ورد : ما اعظم قوة الحصول على اغراض معيّنة وأنفعها في تسهيل الحياة . فان صوت الشخص وملبسهُ ونظراتهِ وحركاتهِ تُوضَحُ وتتغيَّر عندما يبدأُ يعيش لغاية معيّنة . وأتصوّر ان في وسعي ان اعرف في وسط شارعٍ مزدحم

(١) قصبة يجعل فيها النساج لحمة الثوب النسج

ثالناس النساءَ العاملاتُ المباركات اللواتي يعشنَ بعرق جبينهنَّ . فانهنَّ يسرنَ بهيئة تدلُّ على احترامهنَّ لانفسهنَّ وارتضائهنَّ ما لا تُخفيهِ ثيابٌ رثّة ولا تزيد شأنه قبعة حريرية ولا بنزعة المرض ولا انتهاك القوى

ولقد قيل ان الريح لا تهبّ موافقةً ابدًا للملاّح الذي لا يعرف الى ايِّ ميناءٍ يسير

" وقال الامام عليّ : من أومأ الى متفاوتٍ خذلتهُ الحيل (١) "

وقال كارليل : إنَّ أضعفَ مخلوق يستطيع ان يعمل عملاً اذا جمع قواه حول موضوعٍ واحدٍ في حين أنَّ اقوى مخلوق اذا وزّع قواه على مواضيع متعددةٍ لا يكون نصيبهُ إلاَّ الفشل والخيبة . فان القطرة بتكرار سقوطها على اصلب الصخور تُبقي عليهِ أثرًا وأما السيلُ السريعِ فانهُ يندفع فوقها بضجيجٍ مخيف ولا يدع وراءهُ من اثر

قال واعظ لبيب : لما كنتُ حدثًا كنتُ أتصوَّر أن الرعد هو الذي يقتل الناس فلما كبرتُ علمت أن البرق هو الذي يقتل . ولهذا عزمت من ذلك الحين على ان أُقلّ من الإرعاد وأُكثر من الإبراق

وكلُّ من يعرف شيئًا ويستطيعُ ان يفعلهُ أفضل من كل من سواه ولو كان ذلك الشيء زراعة اللفت فانهُ ينال أكاليل الفخر الذي يستحقهُ . فمن يزرع افضل اللفت بواسطة جمعهِ كل قواه لاجل هذه الغاية فهو محسنٌ الى النوع وهكذا يعدّهُ الناس

يُقال ان السمندل (٢) اذا شُطر الى شطرين يعدو شطرهُ الاماميّ الى الامام وشطرهُ الخلفي الى الوراء . وهذا شأنُ من يشطرُ مقاصدهُ . فان توزيعَ القوى آفةُ النجاح

وما من احدٍ يتابع موضوعًا جليلاً بثبات ومواظبة و بكل قوى عقلهِ ويكون نصيبهُ

(١) أومأ اشار والمتفاوت المتباعد والمختلف يريد ان من طلب تحصيل الامور المختلفة المتباعدة عجز عن ادراكها (٢) دابّة صغيرة كالضبّ تعيش في الاماكن الرطبة

في حياته الفشل . انك لاتستطيع ان تُلقي شمعة في وسط جانب خيمة ولكنك ترميها في وسط لوح سنديان . أذبْ كميّة من الرصاص وحوّلها الى قذيفة فيمكنك ان تطلقها في خلال اجساد اربعة اشخاص . اجمع اشعّة الشمس في الشتاء في بُؤرةٍ فيمكنك ان تُضرم بها النار بسهولة

وليس جبابرةُ النوع ونوابغهُ الاّ رجالاً جمعوا قواهم وضربوا ضربات شديدة في موضوعٍ واحدٍ الى ان اتمّوا ما قصدوهُ. والناجحون في عصرنا انما هم اشخاصٌ ذوو فكرةٍ واحدة وضعوا نصب عيونهم هدفًا واحدًا غير متقلقل وكان لهم مقصدٌ واحد سعوا اليه بشدة . أمّا تفريقُ القوى فهو الضربةُ القاضية على كل عمل . وكثيرون هم امثال صديق دوغلاس جيرولد الذين يستطيعون ان يتكلّموا باربع وعشرين لغةً الاّ انهُ ليس لهم افكارٌ يعبّرون عنها باحدى هذه اللغات

قال سدني سمث : ان الطريقة الوحيدة المفيدة في الدرس هي ان تنصرفَ بكل قلبك للمطالعة حتى يجيء وقتُ الغداء وانت تحسب انهُ لا يزال لهُ ساعتان. وأن تجلس وكتابُ التاريخ امامك فتسمع نقنقة اسراب الاوزّ التي انقذت الكابيتول وتنظر بعينيك باعة القرطاجنيين التابعين جيشهم وهم يلتقطون خواتم أُمراء الرومان بعد انقضاء معركة كانّ ويجمعونها في أمداد وتتمثل في مخيلتك الحوادث التي تتتبعها بحيث لو قرع بابك زائرٌ لقضيت ثانيتين او ثلاثًا حائرًا لا تدري أأنت في غرفةِ درسك ام في سهول لومبارديا تُحدّق في وجه هنيبال الذي لفحته الشمس مُعجبًا بتألق عينه الوحيدة

وقال شارل ديكنس : "ان الانتباه هو المزيّة النافعة الأمينة الأكيدة في كل درس وكل مسعى . ويمكنني ان أُؤكد لكم بتمام الثقة ان قوّتي المخترعة او التصوّرية لم تكن لتفيدني كما فعلتْ لولا عادة الانتباه اليوميّ للامور المبتذلة بكدّ وصبر."

وقد سُئل مرةً عن سر نجاحهِ فقال : "انني ما مددت مرّةً يدي الى امر لا اقدر ان انصرف اليه بكليتي ."

وكتب يوسف غارني الى ابنهِ : "كن رجلاً تامًا في كل شيء , في الدرس وفي العمل وفي اللعب"

لا تتوانَ في السعي الى غايتك

قال شارلس كنسلي : انني انصرف الى ما أوَدّ الانصراف اليهِ كما لو لم يكن في العالم في ذلك الحين شيء آخر . وهذه خطة جميع الرجال ذوي النشاط والكد في العمل . إلاّ ان معظمهم لا يستطيعون المحافظة عليها في حالة لهوهم .

وكثيرون من الاشخاص يعجزون عن ان يصيروا رجالاً عظامًا بتجزئتهم عنايتهم الى قطع صغيرة عديدة فهم يؤثرون ان يكونوا ذوي مهارةٍ متوسطةٍ في فنون عديدة على ان يحرزوا القِدح المعلّى (١) في فرع واحد

وقال ادورد بلورلتون : ان كثيرين ممن رأوا فرط انهماكي في الحياة العمليّة وفي شؤون العالم كأني لم اكن قطُّ تلميذًا سألوني : "من اين تأتي بالوقت الكافي لتأليف كتبك كلها وبأي ذريعة تتذرع لتقوم بكل هذه الاعمال ؟" وسيندهشون للجواب الذي أجبتهم بهِ وهو : "إن الذريعة التي أتوسّل بها للقيام بهذا العمل الكثير

(١) القدح احد قداح الميسر وهي سهام لانصل لها ولا ريش والميسر قمار العرب بهذه القداح . كانوا يشترون جزورًا ناقة او بعيرًا فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسمًا ويتساهمون عليها بعشرة قداح يفرضون في احدها اي يحزّون فرضًا واحدًا وفي الثاني فرضين وهلمّ جرًّا الى السابع فيفرضون فيهِ سبعة فروض ومجموع ذلك ثمانية وعشرون ويضيفون اليها ثلاثة قداح لا حزّ فيها ويجعلون الكل في خريطة يسمونها الربابة ويضعونها في يد رجل عدل يسمونه المجيل او المفيض فيجيل يدهُ في الخريطة ويخرج منها قدحًا للرجل منهم فان خرج له قدح من ذوات الفروض اخذ نصيبهُ من الاقسام بعدد الفروض التي فيهِ وان خرج له قدح من الثلاثة التي لا فرض فيها غرم ثمن الجزور وتسمى القداح ذوات الأنصبة الفذ وهو ذو النصيب الواحد ثم التوأم ثم الرقيب ثم النافس ثم الحلس ثم المسبل ثم المعلى وهو ذو الانصبة السبعة . وإحراز القدح المعلى يراد بهِ التقدُّم على الاقران

كلهِ في ان لاأعمَلَ كثيرًا في وقت واحد. فان من شاء ان يعمل جدًا عليهِ ان لا يُجهد نفسهُ . والاَّ فاذا أجهد نفسهُ اليوم فان ردَّ الفعل يحصل و يُضطرُّ ان يعمل قليلاً جدًا غدًا . وانني منذ شرعت أدرس بحماسة وذلك لم يكن الاَّ بعد خروجي من المدرسة ودخولي في العالم قد سرتُ شوطًا [1] كبيرًا في المطالعة العامة كأسبق رجال عصري في هذا المضمار . وقد قمت برحلات عديدة ووقفت على اشياء كثيرة وتدخلت كثيرًا في السياسة وفي شؤُون الحياة المتنوعة وفوق كل هذا قد نشرت ما يقارب ستين مجلدًا بعضها في مواضيع تتطلَّب ابحاثًا دقيقة . واذا سألتني عن مقدار الوقت الذي كنت أُخَصِّصهُ بالاجمال للدرس والقراءة والكتابة اجيبك انهُ لا يزيد عن ثلاث ساعات في اليوم وذلك في حين انعقاد البرلمان ولبس كل يوم . الاَّ انني في اثناء هذه الساعات الثلاث كنت أُحوّل انتباهي التامَّ الى الموضوع الذي اهتمُّ بهِ

وكان س . ت . كولريدج على جانب عظيم من المقدرة العقلية الاَّ انهُ لم يكن لهُ غايةٌ معيَّنة فعاش في حالة من تفرُّق القوى استنفدت عزيمتَهُ واستنزفت مواهبهُ [2] وكانت حياتهُ من وجوه عديدة فشلاً محزنًا . فقد عاش في الاحلام ومات في الاحلام . وقد ظلَّ طول عمرهِ يرسم خططًا و يقصد مقاصد ولكنهـا بقيت حتى مماتهِ خططًا ومقاصد صرفة وكان دائمًا على وشك عمل شيءٍ الاَّ انهُ لم يعملهُ قط . وقد كتب تشارلس لامب الى صديق لهُ : "ان كولريدج مات و يقال انهُ ترك زهاء اربعين الف مقالة عما وراء الطبيعة والالوهية ولكن ليس منها مقالةٌ واحدةٌ تامةٌ"

وما أحرز رجلٌ عظيم من العظمة ولا اصاب رجل ناجح من النجاح الا على مقدار حصره قُوَاه في مجرىً خاص

وكان المصوّر هوغارث اذا اراد تصوير وجه مثلاً حوَّلَ كلَّ انتباههِ اليهِ و بالغ في درسهِ وتفحصهِ حتى تنطبعَ صورتهُ في مخيلتهِ بحيث يصير قادرًا على تصويرهِ

(١) الشوط الجري مرَّةً الى الغاية يقال جرى شوطًا كما يقال جرى طلقًا

(٢) استنفد استفرغ واستنزف الشيء استخرجهُ كلهُ

حين يشاء . وكان يتمعّن في درس كل شيء ويتفحصه كأنه لن يُكتَب له الحظ برؤيته ثانيةً . وهذه الملاحظةُ الدقيقة هي التي مكّنتهُ ان يأتي بالبدائع ويزيّن رسومه بتفاصيل عجيبة حتى ان طُرُق تفكير الناس في عصرهِ تظهر من الصور التي صنعها . وهو لم يكن على جانب عظيم من المعرفة والتهذيب وانما امتاز بشدة ملاحظتهِ هذه

وكان هوراس غريلي يجلس على درجات محل استور في نيويورك في حين الشوارع غاصّةٌ بالناس وموكبٌ كبيرٌ يجتاز شارع برودواي الذي هو فيو والاجواق الموسيقية تعزف بشدّة ويجعل اعلى قبعتهِ كمِضدَةٍ له ويكتب عليها مقالة افتتاحية لجريدة "النيويورك تريبون" يكون لها صدًى بعيد

وحَدَث مرّةً أنّ رجلاً اغتاظ من مقالة انتقادية نشرتها جريدة "التريبون" المذكورة فدخل الى محل ادارتها وطلب مُقابلة منشئها فأُدخل الى مكتب المستر غريلي وكان هذا جالسًا في مكتبهِ الصغير مُكبًّا على انشاء مقالة يكاد رأسهُ يلتصق بالاوراق التي امامهُ وهو يخطّ ما يعرض له من الافكار بسرعة مدهشة. فابتدأ الرجل بالسؤال قائلاً : هل حضرتك المستر غريلي ؟ اجابهُ غريلي على الفور بدون ان يرفع رأسهُ : نعم يا سيدي ماذا تريد ؟ فاندفع الرجل في الكلام بغيظٍ وحدّةٍ دون اقل مراعاة لقواعد التهذيب او التعقّل . اما غريلي فظلّ يُنجز صفحةً بعد صفحة بابلغ الانشاء دون ان يظهر على ملامحهِ أقلّ تغيّر اوأن يعيرَ الزائر أقلّ انتباه . وبعد عشرين دقيقةً خرج فيها الزائر عن حدود اللياقة خروجًا لم يحدث مثلهُ في مكتب صحافيّ استولى عليهِ الامتعاض (١) والاشمئزاز وادار ظهرهُ قاصدًا الخروج من المكتب . فرفع اذ ذاك غريلي رأسهُ لاول مرة ونهض عن كرسيهِ وجعل يربّت (٢) على كتف الرجل بلطفٍ قائلاً له بلهجة مُوآنسةٍ : "لاتذهب يا صديقي بل اجلس هنا قليلاً وسكّن جأشك (٣) فإن ذلك يفيدك و يجعلك في حالةٍ افضل. فضلاً عن أنهُ يُساعدني على الافتكار في ما اكتبهُ . ارجو منك ان لا تذهب"

(١) الغضب (٢) يضرب بيدهِ ضربًا خفيفًا (٣) الجأش رواع القلب اذا اضطرب

وقد كان دائمًا من مميزات الرجال الناجحين اتخاذُهم لانفسهم غرضًا يسْعون اليهِ بدون تغيُّر

قال سدني سمث : ان دانيال وبستر قد أثَّرَ فيَّ اشدَّ تأثير حتى خلتهُ آلةً بخاريَّةً في ثياب رجل

وقد تكلم أدَمْس عن اللورد بروغام كلامًا اصاب فيهِ كل الاصابة فقال انهُ كان ذا مواهب جمَّة وقد ادرك بين رجال القانون اعظم ما يطمح اليهِ المتضلّعون من هذا الفنّ وهو درجة مستشارية انكلترا واحرز ثناء رجال العلم واعجابهم بابحاثهِ العلميّة الفريدة ولكنَّ حياتهُ بجملتها قد كانت فشلاً . فهو قد كان "كل شيء بالتعاقب ولا شيء بصفةٍ مستديمة" ومعَ براعتهِ النادرة في فروعٍ مختلفة لم يترك في التاريخ ولا في الأدب أثرًا يبقى على ممرِّ الأحقاب مخلدًا اسمهُ وشهرتهُ

وقالت الآنسة مارتينو : " عندما بُوشر استعمال آلة التصوير بنور الشمس كان اللورد بروغام في قصرهِ في كانَّ . فقصد احد المصوّرين ان يأْخذَ صورةَ القصر ومن فيهِ من الزائرين جالسين على الطنف (١) . وسأل اللورد ان يبقى في مركزهِ لا يأتي بحركة مدة خمس ثوانٍ ريثما يتمُّ اخذ الصورة . فوعد اللورد بذلك ولكنهُ تحرك لسوء الحظ . فكانت النتيجة ان ظهرتْ لطخة سوداء في المحل الذي كان يجب ان تظهر فيهِ صورة اللورد من الرسم . وإنَّ في هذا الحادث لدلالةً رمزيةً شديدة المغزى . ففي صورة عصرنا هذا كما تؤخذ من الحياة بالتاريخ كان يجب ان تكون صورة اللورد بروغام الصورة المركزيّة . ولكن بسبب عدم ثباتهِ ستبقى الى الابد لطخةٌ سوداء في المحلِّ الذي كان يجب ان يبرزَ فيهِ رسمهُ . وكم من حياةٍ تظلُّ لطخةً بسبب عدم حصر القوة وعدَم الثبات على مقصد معيَّن "

وقد قال فوبل بكستون ان نجاحهُ قد نجم عن وسائـل عاديَّة واجتهادٍ غير

(١) ما أشرف خارجًا عن البناء وهو ما يدعوهُ الافرنج بالبلكون

اعتيادي وانصرافهِ بكل قواه الانسانية الى شيءٍ واحد في وقت واحد. فالفوز دائمًا انما هو نتيجة متابعة غاية واحدة غير متنقلة. وقد كان شعار كوك non multa sed multum ليس اشياء كثيرة بل عمل كثير

وان رأس الابرة الذي يكاد لا يرى وحدّ الموسى او المعول الرقيق المشحوذ هو الذي يفتح الطريق لما بعده. ولولا الرأس والحد لما دخلت الآلة. وهكذا الرجل ذو الخطة الواحدة من العمل أشبه بالموسى الحادّة يفتح لنفسهِ طريقًا في خلال الموانع والعراقيل ويحرز النجاح الباهر. ومع انهُ يجب علينا اجتناب التشبث الضيق بفكرةٍ واحدةٍ ما يمنع نموّ قوانا بتناسبٍ يجب ايضًا ان نجتنب الإفراط في التقلب الذي وصف الشاعر الانكليزي وليم برايد صاحبهُ بما ترجمته:

"ان حديثهُ كجدول ينساب متنقلاً بسرعةٍ من الصخور الى الورود. فتراه ينتقل من السياسة الى التوريات ومن الكلام عن محمد الى الكلام عن موسى. مبتدئًا بالسنن التي تحفظ الكواكب في سيرها ومنتهيًا بايرادهِ بعض الاساليب والطرق لسلخ الحنكليس او بيطرة الخيل"

وانك اذا استطعت ان تحمل ولدًا لا يزال في اول تمرُّنهِ على المشي على ان يحدّق بعينيهِ في شيءٍ معيّن فانهُ في الغالب يتحرك في السير نحو تلك النقطة بدون ان ينقلب ولكنك اذا شتّتّ انتباههُ لا يلبث ان يقع

والشابُّ الذي يطلب مركزًا في هذه الايام لا يُسأل في اي كلية تخرج ولا من هم آباؤهُ واجداده بل ان السوّال المهمّ الذي يوجه اليهِ هو: "ما الذي تحسن عملهُ؟" فالحاجةُ هي الى التعليم الاختصاصي. ومعظم الاشخاص الذين يديرون المحلات التجارية الكبرى والمشروعات العظيمة انما ارتقوا من الاسفل الى الاعلى درجةً فدرجةً

وقد قال سسيل مفسرًا سبب نجاح ولتر رالي: "اني اعلم انهُ يستطيع العمل بصورةٍ فائقة الحد."

ومن القواعد الثابتة أنّ ما يشتهيهِ القلبُ لاجل الرأس واليدين يدركهُ. ومجاري

المعرفةِ والثروةِ والنجاحِ وطيدةٌ راسخةٌ كمدِّ البحر وجزرهِ . واذا استقصينا كل حوادث النجاح العظيمة نجد هنالك حصر القوّة صارفًا كلّ موهبةٍ نحو غرضٍ واحد غير متزعزع ، والمثابَرَةَ على طلب امرٍ ما برغم كل العقبات والمصاعب ، والشجاعة في تحمل كلِ المحن والخيبات والتجارب

ومما يقوله الكيماويون أنَّ في فدانٍ واحد من الكلإِ قوة كافيةً لإدارةِ كل المطاحن والعجلات التجارية في العالم . لكن هل في وسعنا جمعُ هذه القوة وتحويلها الى مِقبض المِضخَّة في آلة تجارية ? كلاَّ فاستعمالها غير ممكن وبهذا الاعتبار لا قيمة لها

قال الدكتور ماثيو : ان من يُوزّع قواه حولَ مواضيع عديدة لا يلبثُ ان يفقِدَ عزيمتهُ ويفقدَ معها حماستهُ

وقال وترس: لاتدرسْ ابدًا على طريقة المضاربة فكلُّ درسٍ على هذا الاسلوب باطلٌ عقيم . بل أرسم لنفسك خطة واتخذ لك غرضًا معينًا ثم اعمل لاجلهِ . واقتبسْ كل ما تستطيع اقتباسهُ مما لهُ علاقة بهِ فيكون نجاحك مضمونًا . اما الذي أعنيهِ بالدرس على طريقة المضاربة فهو درسُ اشياءَ عديدةٍ بدون غايةٍ محدَّدة على أملِ أنْ تكون نافعةً يومًا ما . ومَثَلُ من يفعل ذلك مثلُ امرأةٍ اشترت في المزاد العلنيّ لوحةً نحاسيةً للرتاج قد نُقش عليها اسم تومبسون على رجاءِ أنَّها قد تحتاج اليها يومًا ما

وتعيينُ القصد هو الصفةُ المميِّزةُ لكل فنٍ حقيقي . فليس اعظم مصوِّر هو الذي يجمع العدد الاكبر من الافكار على قطعة نسيج واحدة جاعلاً كلاً من تلك الصور في درجة متساوية من السموّ بل ان المصور الحقيقيَّ هو الذي يجعل العددَ الاكبر من الانواع المختلفة معبرًا عن اعظم وَحدَةٍ ويجسّم الفكرة الرئيسية في الصورة المركزية بحيث ان جميع الصور الثانوية وسائر الانوار والظلال تشير اليها وتلقي مدلولها فيها . وهكذا كلُّ حياةٍ محكمة التوازن لا عبرةَ بما تكون عليهِ من تنوُّع المواهب ولا من اتساع دائرةِ التهذيب بل ان لها مقصدًا مركزيًا كبيرًا تجتمعُ الى بؤرتهِ كلُّ قوى

النفس الثانوية وتأتي فيه مدلولها ومعناها المناسب . وأننا نرى الطبيعة لا تدع قوةً من القوى تذهبُ عبثًا ولا تترك شيئًا للاتفاق . فمنذ بدأت وثبة الخلق تنتج الموجود من العدم قد رافق القصدُ مجرى كلِّ خيطٍ ذهبيٍّ منها . فلكل ورقةٍ وزهرةٍ وبلورة بل لكلّ جوهر فردٍ ايضًا مقصدٌ خاصٌ مرتسمٌ عليهِ يومئ بدون اقل خطإٍ الى تلك القمةِ المُكللةِ كلَّ الخليقة وهي الانسان

وكثيرًا ما يُشار على الشبّان بان يتخذوا لهم مقصدًا عاليًا يسمون اليه على انّهُ انما يجب ان نتخذ لانفسنا هدفًا نتمكن من إصابتهِ . فلا يكفي مجرّد وجود مقصد . وما كان السهمُ المنطلق عن القوس ليتيه في الفضاء باحثًا عن شيء يُصيبهُ بل انه يطيرُ توًّا الى الهدف . والحكُّ لا يتجه الى جميع اجرام السماء باحثًا عن ايها افضل ليومئ اليهِ . فجميعها تحاول ان تجذبه . فالشمس تبهرهُ والشهاب يشير اليهِ والنجوم تتألق له محاولةً اكتساب مودّته ولكنه يتبع غريزته ويأصبع لا يضلُّ في ضوء الشمس ولا في العاصفة يومئ بثبات الى نجمة القطب . وما ذلك الّا لان كل النجوم الأخرى ما برحت تدور دورانًا غير منقطع حول محورها على مدى العصور في حين ان نجمة القطب وحدها التي تبعد بعدًا يفوق الادراك البشريّ انما تتحرك بجلالٍ ورزانةٍ في دورتها التي يلزم لإتمامها اكثر من ٢٥ الف سنة فهي تُعدُّ ثابتة بالنسبة الى جميع مقاصد الانسان ليس الى يومٍ واحد فقط بل الى قرن كامل . وهكذا على طول طريق حياتنا تحاول الكواكب الأخرى ان تجذبنا وتبعدَنا عن غايتنا وتحوِّلنا عن منهج الحقيقة والواجب . لأنّ انه علينا ان لا ندعَ الأقمار اللامعة بنور مستعار ، ولا الشهبَ التي تبهر الأبصار ، تغرّنا وتحوّل حكَّ مقصدنا عن نجمة قطب رجائنا

الفصل السابع

إتيان الشيء في وقتهِ او فوز العجلة

ليس في ساعة الزمان الكبرى الاَّ كلمةٌ واحدة وهي : الآن

تأمل الدقة السامية التي تصحب الارض في دورتها البالغة خمسمئة مليون ميل بحيث انها لم تخل بثانية واحدة ولا بجزء من مليون من الثانية عن ميعاد رجوعها الى مركز ميلها الاعظم على مدى العصور الطويلة التي اجتازت فيها هذه الطريق المحفوفة بالمخاطر – ادورد افرت

من لا يستطيع ان يرى باي سرعة غريبة تسير خيوط مقدَّراتنا . فالفرصة الموافقة لا تسنح في الغالب الاَّ في دقيقة . وقد نضيعها فتضيع بذلك شهورٌ وسنون

ان من يسير في شارع "رويدًا رويدًا" يصل الى منزل "ابدًا" – سرفنتس

أضع هذا اليوم بالتراخي والكسل فتجد ان الامر نفسه يحدث في الغد ثم نكون في اليوم الذي يعلوه اشدّ تراخيًا

لنقبض على الدقيقة الحاضرة من مقدَّمة راسها – شكسبير

لم تكن إدارات البريد المُنظَّمة معروفة في ايام هنري الثامن ملك انكلترا فكان ينقل البُرُدَ سعاةٌ تتبعهم الحكومة لهذه الغاية تحت طائلة الشنق اذا تأخروا في الطريق. ويكتب غالبًا على الرسائل الرسمية: "العجلةَ العجلةَ أيُّها الساعي والاَّ فقدت حياتك" وتُوضع عليها صورةُ ساعٍ معلَّق بمشنقة

وقد كان التأخر لغير سببٍ ضروريّ يُعدّ ذنبًا حتى في عهد المركبات البطيئة القديمة ايام كان يلزم قضاء شهر في الاسفار، والتعرُّض للاخطار، لاجتياز المسافة التي نقطعها في ايامنا هذه ببعض ساعات. ومن اعظم الارباح التي جلبتها المدنيّة الحديثة ما نجم عن توفيرها الوقت وتسهيلها الوسائل للانتفاع به. فاننا نستطيع ان نصنع هذه الايام بساعة واحدة ما لم نكن نصنعه منذ مائة سنة في اقلّ من عشرين ساعة

وان للتأخر عواقب مشؤُومة فتأخُّر يوليوس قيصر عن قراءة رسالةٍ وردت اليه كلَّفه خسارة حياتهِ حين بلوغهِ مجلس الاعيان الروماني. والكولونل راهل قائد موقع ترانتون لما جاءهُ رسول يحمل اليهِ كتابًا متضمنًا نبأ اجتياز واشنطون لنهر دبلاور كان يلعب بالورق فوضع الكتاب في جيبهِ ولم يفضّه الاّ بعد انتهاء اللعبة وللحال سار في مقدِّمة جنودهِ الى ميدان القتال فقُتل ثم أُخذ رجالهُ أسرى. فتأخُّر بضع دقائق جرَّ عليهِ خسارة الشرف والحريّة والحياة

وما النجاحُ إلاّ وليدَ ابوين صادقين جدًّا: الدقة في حفظ المواقيت والضبط. وفي حياة كل امرىء ناجح دقائق حرجة اذا تردَّد فيها العقل او استرخت الاعصاب كانت النتيجة خسارة كل شيء

وهاك ما كتبهُ اندرو حاكم ولاية ماساشوست الى رئيس الجمهورية الاميركية لنكلن في ٣ ايار سنة ١٨٦١: "حالما تلقينا تصريحك تأهبنا للحرب وتحمَّلنا نصيبنا منها بالروح الذي نعتقد ان الحكومة الاميركية والشعب الاميركي عازمان على العمل به" وكان قد تلقّى برقيةً من وشنطون يوم الاثنين في ١٥ نيسان يُطلب منهُ فيها جنودٌ. ففي الساعة التاسعة من يوم الاحد التالي قال: "ان كل الفرَق المطلوبة من ماساشوست هي الآن إمّا في وشنطون او في حصن مونرو او في طريقها للدفاع عن العاصمة"

ومما قالهُ: "ان السؤَال الوحيد الذي اسأله هو: ماذا اعمل. ومتى تلقيت جوابًا عليهِ سألت: ما الذي اعملهُ بعد ذلك؟"

قال رسكن: ان عهد الشباب باسرهِ عهد تكوُّنٍ وتهذُّبٍ وتعلّم. وما من ساعةٍ منهُ الّا وهي ترتجفُ بما تحملهُ من المقدَّرات، وكلُّ دقيقة منها اذا انقضت لا يظلُّ في حيّزِ الامكان اتمام العمل المخصّص لها بل تصير كأنك تضرب في حديد بارد

وكان نبوليون يعلّق اهميةً عظيمةً على تلك الدقيقة الفاصلة، تلك الفترة من الوقت التي تعرض في كل معركة فاذا استخدمها المرء احرز النصر، واذا أضاعها بتردده باء(١) بالخذلان. وقد قال انهُ تغلّب على النمساويين لانهم لم يعرفوا قيمة خمس دقائق. وقيل انهُ بين الأُمور الطفيفة التي ساعَدَتْ على هزيمتهِ في وترلو قد كان الشيء الأهمّ إضاعة خمس دقائق منهُ ومن غروشي. فبلوخر قد وصل في وقتهِ وغروشي تأخّر. فكان ذلك سببًا لإرسال نبوليون الى جزيرة القديسة هيلانة وتغيير مقدَّراتِ ملايينَ من البشر

ومن الحقائق الشائعة التي جرت مجرى المثل أنَّ الشيء الذي يمكن عملهُ في اي وقتٍ من الاوقات على السواء لا يعملهُ المرء في وقتٍ ما

ولما قررت الجمعية الافريقية في لندن إرسال الرحالة لديارد الى افريقية سألتهُ متى يكون متأهبًا للسفر فاجاب: "صباح غدٍ". ولما سُئِل جون جرفيس الذي صار فيما بعد الارل سان فنسان متى يقدر ان ينضمّ الى بارجتهِ اجاب: "هذه الساعة". ولما عُيِّن كولن كامبل قائدًا للجيش الانكليزي وسُئِل متى يمكنهُ السفر أجاب بدون تردُّد: "غدًا"

وإنّ القوّة التي تُبذَل في تأجيل ما يجب إتمامهُ اليوم الى غدٍ قد تكفي غالبًا لاتمام ذلك العمل. وما أشدَّ ما يصير إنجازُ العمل المؤجّل شاقًا وممقوتًا. فالعملُ الذي يعملهُ المرء في حينهِ بسرورٍ وحماسةٍ يصير صعبًا ومكروهًا لديهِ بعد ان يُؤجّلهُ اياماً واسابيع. وأهوَنُ ما يُجابُ على الرسائل حينَ وصولها. وكثيرٌ من المحلّات

(١) رجع

التجاريَّة قد جعلت من قواعدها عدمَ إبقاء رسالةٍ بدون جوابٍ الى اليوم التالي والاسراعُ في القيام بعملٍ من الاعمال يُزيل ما فيهِ من العناء. اما التأجيلُ فمعناهُ الاهمال. والعزم على العمل يصير مع الوقت عزمًا على عدم العمل. وما أشبهَ من يعملُ عملاً بمن يُلقي بذارًا في الارض. فاذا هو لم يعملهُ في حينهِ فانهُ يبقى الى الابد بدون ثمرة. وليس صيفُ الزمان من الطول بحيثُ انَّ الاعمال المؤجلة تنضجُ ثمارها فيهِ. ولو ان احدى النجوم والسيارات تأخرت في سيرها ثانيةً واحدةً عن سرعتها المقرَّرة لَشوَّشت نِظامَ العالم باسرهِ

قالت ماريا ادجورث: "ما من وقت مثل الزمان الحاضر. وما من قوَّةٍ أو عزيمةٍ الاَّ في الحاضر. فمن لا يتمّ منويَّاتهِ حين لاتزال لديهِ جديدةً نضيرةً فلا أمل لهُ باتمامها فيما بعد. بل انها لاتلبث ان تتشتتَ وتضيعَ بين ضوضاء العالم وازدحامهِ او تغرقَ في حمأة الكسل"

وقال كوبت ان الفضل في ما أحرزهُ من التقدُّم عائدٌ الى كونهِ "مستعدًّا دائمًا" أكثرَ مما لجميعِ معارفهِ ومواهبهِ الطبيعيَّة مجتمعةً. وقد قال: "اني مَدين لهذه المزيَّة بارتقائي في الرتب العسكرية. فلو كان عليَّ أن أستلم الخفارةَ في الساعة العاشرة لوجدتني مستعدًّا لذلك منذ الساعة التاسعة. ولم ادع احدًا يحتاج الى انتظاري دقيقةً واحدة طول عمري"

وسُئل السر ولتر رالي. "كيف اتممت كل هذه الاعمال في هذا المدى القصير" فقال: "عندما يكون لديَّ شيءٌ للعمل اعملهُ في الحال" فمَن يعمل دائمًا بسرعةٍ ينجح ولو أرتكب احيانًا بعض هفوات عرضية واما من يؤجّل اعمالهُ فانهُ يخفق ولو كان أسدَّ رأيًا وأصحَّ حكمًا

وسُئل سياسيٌّ فرنسيٌّ كيف يتمكن ان يعمل ما يعملهُ ويتمّ واجباتهِ الاجتماعية في الوقت نفسهِ فقال: "اني افعل ذلك بمجرَّد عدم تأجيلي الى الغد ما أستطيع ان افعلهُ اليوم". وقيل عن رجل عموميّ آخر ان سبب عدم نجاحهِ قلبهُ لهذه الآية.

فقد كانت قاعدتهُ ان لا يفعل اليوم ما يستطيع تأجيلهُ الى الغد . وكم من أُناسٍ أضاعوا فُرَصَ نجاحهم بسماحهم لرفقائهم او لذوي قرابتهم بتضييع خمس دقائق من بعض أوقاتهم

قال كوتون: "تقول غداً" وهذا ما لا أُريد سماعهُ. فما الغدُ الاَّ محتالٌ برهن فقرءُ مُقابل سَعتِك ويأخذُ ما لديك من المال ولا يدفع لك الاَّ آمالاً ووعوداً واماني وهي نقود الحمقى . ألغدُ مدَّةٌ لا أثر لها في شيءٍ من سجلاَّت الزمان القديمة الاَّ في تقاويم المجانين . أما الحكمةُ فانها تُنكر هذه الكلمة والمجتمع لا يتعامل مع الذين يتخذونها رأس مال لهم . هي ابنة المخيّلة والجنون ابوها ، منسوجة من الموادّ التي تنسج منها الأحلام، وعادمة كلِّ اصل كروى الليل الخياليَّة" وكم من رجلٍ كان الفشل والحرمان نصيبهُ نسمعهُ يقول : "انني قضيت حياتي معلقاً آمـالي على الغد معتقداً أنهُ يذخر لي ربحاً كبيراً من هذه الجهة أو تلك"

"وقد قال الشاعر العربيّ :

ترجو غداً وغدٌ كحاملةٍ في الحيِّ لا يدرون ما تلدُ"

وكتب تشارلس ريد قصَّة رجل اسمهُ نوح سكينر وهو كاتبٌ اختلس اوراق المحلّ التجاري الذي كان مُستخدَماً فيهِ ثم نوى اعادتها وهاك ما يقولهُ عنهُ : "ان عزمهُ ظلَّ ثابتاً غير متزعزع ولما استيقظ شيئاً فشيئاً من الرقاد الثقيل المستولي عليهِ ألقى نظرةً على الوصولات التي سرقها وهو يحسبها النظرة الاخيرة وقال متلعثماً : "ما أشدَّ ما اشعر برأسي ثقيلاً" ثم جمع قواهُ ونهض ممتلئاً من الندامة وقال متمتمـاً ايضاً : "سآخذها - الى - شارع - بـبروك - غداً - غداً" الاَّ انهُ لما جاء الغد وجدهُ رجال الشحنة ميتاً

وان التاريخ لملوء بضحايا التأجيل الى الغد من الذين طالما رسموا لأنفسهم خططاً ولم ينفذوها وعزموا على امورٍ ولم يتمُّوها . فالتأجيل الى الغد انما هو ملجأُ الكسل والعجز

ومن القواعد الذهبيَّة قولهم "اضرب ما دام الحديد حاميًا" "وجفّف عشبك ما دامت الشمس طالعةً"

وقليلون من الناس الذين يعرفون الساعة التي يتغلب عليهم فيها الكسل . فالبعض يحدث لهم ذلك بعد الغداء والبعض بعد العشاء والبعض عند الساعة السابعة مساء . على ان في حياة كل انسان ساعة شديدة الألم في النهار يجب ان يتخذها بدلاً من الساعة المضاعة اذا شاء المحافظة على نهارهِ . وساعة الصباح الباكر عند معظم الناس هي مقياس نجاح النهار

وامتدح رجلٌ شجاعة القائد مايان وحذقهُ امام القائد هنري فقال لهُ هنري : إنك على صوابٍ في ما تقول فهو ضابطٌ كبيرٌ ولكنني أسبقهُ دائماً بمسافة خمس ساعات " عَنَى بذلك انهُ ينهض من النوم الساعة الرابعة من كل صباح واما مايان فينهض حوالي الساعة العاشرة . وهذا الذي جعل الفرق العظيم بينهما . وانَّ التردُّد يصير مع الوقت مرضًا والتأجيل علامتهُ الاولى . وليس الاَّ دواءٌ وحيدٌ لهذا الداء العضال وهو الجزم بسرعة . و إلاَّ فان هذا الداء يستفحل(١) ويقضي على كلِّ أملٍ بالنجاح . وما عاقبة التردُّد الاَّ الخسران "قال الشاعر العربيّ

اذا كنت ذا رأيٍ فكن فيهِ مقدمًا فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدا"

وقال كاتبٌ اميركيٌّ معروفٌ ان السرير مجموعةُ أحاجيّ(٢) فنحن نذهب اليهِ محجمين , ولكننا نتركهُ آسفين , وفي كل مساء نصمم النية على ان نبرحهُ باكرًا ولكننا نبقى فيهِ كل صباح متأخرين

على ان معظمَ الذين ارتقوا ذرى المعالي كانوا ممن يبكرون في النهوض . فبطرس الاكبر(٣) كان ينهض دائمًا قبل انبثاق الفجر وقد قال : انني أُقلِّل من النوم

---

(١) يتفاقم ويشتدّ (٢) الاحاجي الالغاز او الكلمات المغلقة التي يحاجي الناس فيها اي يتداعون (٣) قيصر روسيا الذي نظَّم شؤون بلادهِ ووطد اركان عظمتها وسيَّرها في طريق المدنية والتقدم (١٦٨٢-١٧٢٥)

ما استطعت لأجعل حياتي طويلة بمقدار ما استطيع". وكان الفرد الكبير[1] ايضاً ينهض قبل بزوغ الفجر. وكان كولمبس يقضي الساعات الاولى من الصباح في التفكير ورسم الخطط لرحلتهِ لاكتشاف اميركا ونبوليون كان يقضيها في رسم الخطط والتدابير لمعاركهِ الكبرى. وكان كوبرنيكوس[2] ممن يبكرون في النهوض وهكذا معظم علماء الفلك في العصور القديمة والحديثة. وكان بريانت ينهض الساعة الخامسة وبنكروفت عند بزوغ الفجر وكل المؤلفين الاميركان الكبار تقريبًا على هذا النمط وكان واشنطون وجفرسون ووبستر وكلاي وكلهم من المبكرين في النهوض

"وقد جاء في بعض الاحاديث النبوية: باكروا في طلب الرزق والحوائج فان الغدوَّ بركة ونجاح"

وكان من عادة دانيال وبستر ان يُجيبَ على رسائلَ يتفاوت عددُها بين العشرين والثلاثين قبل ان يُفطِر

وولتر سكوت كان شديد المحافظة على مواقيتهِ. وهذا هو السرّ في ما أتمَّهُ من المؤلفات الضخمة. فكان ينهض الساعة الخامسة. وقد اعتاد ان يقول انهُ كان يدُقُّ عنقَ شغل النهار قبل ان يجيء وقتُ الفطور. وكتب اليهِ مرَّةً شابٌّ حصل على مركز جديد طالبًا نصيحتهُ فاجابهُ بما يأتي: "احترز ان يتسرَّب اليك ميلٌ يعوقك عن استعمال وقتك بتمامهِ. واعني بذلك التلهّي بالتافهات. فاعمل ما عليك ان تعملهُ بسرعةٍ وخذ لنفسك ساعات الراحة والعطلة بعد العمل لا قبلهُ"

وكلُّ ما يقال فهو قليلٌ عن فائدة النهوض من النوم باكرًا. فالنومُ ثمانيَ ساعاتٍ كافٍ لايٍّ كان. وقد تكونُ الكفاية في سبع. وبعد الساعة الثامنة من الرقاد على المرء اذا كان قادرًا ان يهبَّ حالاً من فراشهِ ويرتديَ ثيابهُ بعجلة وينطلق الى عملهِ

---

(١) اشهر ملوك الانكلوسكسون القدماء تغلب على الدنمركيين ونظم شؤون انكلترا وحمى الآداب والمعارف فيها (٨٤٩–٩٠١) (٢) فلكيٌّ بولونيٌّ اكتشف حركة السيارات المزدوجة حول محورها وحول الشمس (١٤٧٣–١٥٤٣)

قال هملتون : إنّ بعض اصدقائنا حصل لهم نحسٌ غريب . فان الله تعالى في الدقيقة التي أوجدهم فيها في هذا العالم قد أعطاهم عملاً ليعملوا ومنحهم الوقت الكافي لذلك بحيث اذا بدأوا حين يلزم ان يبدأوا و بذلوا الجهد الذي يلزم ان يبذلوه انتهى وقتهم وعملهم معًا . الاّ انهُ منذ سنواتٍ عديدةٍ قد اصابتهم نكبةٌ نادرة المثال . فقد ضاع جزءٌ من الوقت الممنوح لهم وليس في وُسعهم الاشارة الى الطريقة التي ضاع بها ولكنهم متأكدون أن هذا الامر قد وقع . فعملهم ووقتهم قد اصبحا كخطين متوازيين احدهما أقصرُ من الآخر بقيراطٍ واحد فنجد عملهم دائمًا متقدّمًا على وقتهم مسافة عشر دقائق . ولا تجدهم ابدًا محافظين على النظام ولا مُسرعين . فلا يجلبون رسائلهم الى البريد الاّ في الدقيقة التي يكون قد سافر فيها ، ولا يصلون الى المرفإ الاّ لينظروا الباخرة قد رفعت مراسيها وأبحرَتْ ، ولا يبلغون محطة السكة الحديديّة الاّ حالما تكون قد أُقفلت ابوابها . فهم لا يخلون بعهدٍ لهم ولا يتقاعسون [1] عن إتمام واجبٍ ولكنهم لا يتممون ذلك الاّ بعد فوات الاوان . وتكون المسافة التي يتأخّرون فيها واحدةً دائمًا

وقد قال بعضهم ان العجلة إلهامٌ ينتقل بالعَدْوى ، على انها سوآء كانت الهامًا ام صفةً مكتسبةً فهي احدى فضائل التمدُّن العمليّة

وهنالك امرٌ يجب ان يكون مُقدّسًا كعلاقة الزواج وهو الموعد . فمن يُخلّ في موعد ضربهُ بدون سببٍ موجب فهو كاذبٌ والناس يرونهُ بهذه الصفة

قال هوراس غريلي : إنّ من لا يحترمُ وقت الآخرين لايمكن ان يحترم ما لهم . وأيّ فرق بين سلب ساعة من وقت رجل وسلب خمسة دولارات من جيبهِ ؟ ألا وإنّ هنالك افرادًا كثيرين تساوي الساعةُ من اوقات عملهم اكثر من خمسة دولارات

وكان من عادة الرئيس وشنطون ان يتناول غدآءهُ الساعة الرابعة بعد الظهر . وكان يحدثُ احيانًا ان يدعى اعضاء جُدُدٌ في مجلس الشيوخ لتناول الغداء على مائدتهِ

(١) يتأخرون

فيتفق لهم ان يتأخروا عن الموعد. وتصوّر فرط الغمّ الذي يستولي عليهم حين يجيئون فيجدون الرئيس جالساً الى المائدة أما هو فيقول لهم. ان طاهيَّ لا يسال ابداً هل حضر الضيوف يسأل هل حانت ساعة الغداء

وتأخّر كاتب سرّهِ يوماً عن الوصول في الوقت المعيَّن واعتذر بتأخر ساعتهِ فقال له وشنطون: ليس لك الاَّ ان تجلبَ ساعةً جديدةً والاَّ جلبتُ كاتب سرٍّ جديداً

وقال فرنكلن مرةً لخادم كان يتأخر دائمًا وفي كل مرّة ينتحلُ (١) لنفسهِ عذراً: انني قد وجدت بالاجمال ان من يُحسنُ إيجاد عذرٍ لا يُحسنُ شيئًا آخر

ودعا نبوليون مرّة قوّاد جيشهِ لتناول الغداء معهُ فأبطأوا عن الاجل المعيَّن فجلس وحدهُ الى المائدة بدون ان ينتظرهم. وحالما فرغ من تناول الطعام ونهض عن المائدة اذا بهم داخلون فقال لهم: ايها السادة قد مضى وقتُ الغداء فهلمَّ بنا الى العمل

وكان بلوخر (٢) من اسرع الناس الذين عاشوا على سطح هذه الغبراء حتى كان يُلقَّب " بالمارشال المستعجل "

ولم يعرف عن جون كنسي ادمس انهُ تأخر مرةً عن الوقت المعيَّن. وكان صاحب الكرسيّ في مجلس الممثلين يعرف الوقت الذي يدعو فيهِ المجلس الى مراعاة النظام من رؤيتهِ المستر ادمس آتيًا الى مركزهِ. وحدث مرةً ان احد الاعضاء قال انهُ قد أزف وقت العمل فقال له آخر: كلا فان المستر ادمس لم يأتِ بعد الى مقعدهِ. وعند التحقيق وُجد ان الساعة متقدمة نحو ثلاث دقائق. وفي الدقيقة المعيَّنة وصل المستر ادمس

ولم يكن وبستر يتأخَّر عن ميعاد درسٍ من دروسهِ في المدرسة الابتدائية ولا في الجامعة وهكذا كان شأْنهُ فيما بعدُ في المحكمة وفي مجلس الشيوخ وفي علاقاتهِ الاجتماعية

---

(١) يدَّعي (٢) قائد بروسي انجد ولنكتون في معركة وترلو فكانت النتيجة الانتصار على نبوليون (١٧٤٢-١٨١٩)

بين الناس من حيث المحافظة على المواقيت. وكان هوراس غريلي لا يتخلّف(1) عن موعدٍ مضروب له مع وفرة مشاغلهِ العديدة . وقد كتب كثيرًا من مقالاتهِ الرنانة لجريدتهِ (التريبون) اثناء انتظارهِ أُناسًا تأخروا عن موعد اجتماع معهُ

فالمحافظة على المواقيت روحُ العمل كما ان الإيجاز روح الحَصَافة (2)

ولم يكن اموس لورنس اثناء السنوات السبع الاولى من حياتهِ التجارية يأْذنُ ان يبقى بيانٌ تجاريٌ بدون تسديد الى ما بعد الاحد من كل اسبوع . ويقال ان المحافظة على المواقيت أَدبُ الامراء . وإنك لترى بعض الناس راكضين ابدًا ليحتفلوا بعملهم فهم دائمًا في عجلة حتى تخالهم متأخرين عن ميعاد قطار. والصحيح انهُ يُعوزهم النظام والترتيب ومع عجلتهم هذه قلما يعملون شيئًا . وما من رجل عمل إلاَّ يعلمُ حقَّ العلم أَنَّ هنالك دقائقَ تتعلّق بها مُقدَّرات سنين . فانك اذا تأَخرت عن ميقات وصولك الى المصرف بضع دقائق فان سندك تقام عليهِ الحجة (البروتستو) وتسقطُ الثقةُ بك

ومن افضل ما في حياة المدرسة ان الجرس الذي يُقْرَع للنهوض من النوم والدرس والمحاضراتِ يَغْرِسُ في الطالب عادةَ الإسراع . وعلى كلِّ شابٍ ان يقتنيَ ساعةً تُعيِّن له الوقت بضبطٍ تامّ . أَمَّا الساعة التي ليست مضبوطةً كلَّ الضبط فقد تنمي في المرء عاداتٍ وخيمةً وإنَّها لأداةٌ للزينة غاليةٌ وإن رَخُصَ ثمنها

قال برون : ما أَشدَّ احترامي للغلام الذي يصل دائمًا في الوقت وما أَسرع ما نتعوَّد ان تركن اليهِ وتعلمهُ امورًا أَعلى وأَجلّ . فالغلام الذي يشتهر بمحافظتهِ على المواقيت يُحرز الحصَّة الاولى من رأس المال الذي يضمن نجاحهُ في المستقبل

فالسرعة أُمُّ الثقة التي تبعث على الائتمان وهي خير ما نقدمهُ من البراهين على انتظام اعمالنا الخاصة وحسن ادارتنا لها ما يجعلُ الآخرين يقتنعون بمقدرتنا . ومن القواعد أَن من يحافظ على مواقيتهِ يحفظُ كلامهُ ويمكن الاعتمادُ عليهِ

هَبْ أَنَّ ساعة سائق قطار كانت في تأَخرٍ فينتج عن ذلك تصادمُ قُطُر هائل.

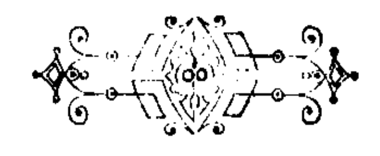
(1) يتأَخر (2) استحكام العقل

وقد يُفلس محلٌ تجاري ذو موجودات جسيمة لمجرّدِ أنّ احد وكلائهِ تأخّر عن تأدية مبالغ ذات شأنٍ طُلبت منهُ . وقد يُشنق رجلٌ بريءٌ لمجرّد ان الرسول الحامل امرًا بتوقيف العقاب تأخّر عن الوقت خمس دقائق .وقد يُوقفُ رجلٌ في الطريق خمس دقائق لتروى لهُ حادثةٌ تافهةٌ فيسبقهُ القطار او الباخرة بدقيقة واحدة

وقد قيّد الجنرال غرانت في مفكرتهِ الدقيقة التي سمع فيها نبأ سقوط صامتر. فلما أُرسل اليهِ بكنر في حصن دونلسن علم الهدنة سائلاً ارسال مفوّضين ليتباحث معهم في شروط التسليم اجابهُ على الفور: "ليس الاّ التسليم بدون قيد ولا شرط . والاّ فانني أُهاجمكم حالاً" فاجابهُ بكنر ان الاحوال تُرغمهُ على "قبول الشروط الغير الكريمة والغير الشريفة التي يعرضها عليهِ"

ومن يستطيع ان يفعل فعلَ نبوليون بان يقبض في الحال على الشيء الاهمّ ويُضحي بسائر الاشياء من اجلهِ فنجاحهُ أكيد

وان كثيرين ممن كان الخذلانُ نصيبهم في حياتهم انما نتج شقاؤهم عن إضاعة خمس دقائق . "وكلمة تأخر عن الوقت اللازم" يمكن قراءتها بين ما هو مكتوب على قبور كثيرين ممن فشلوا . وإنّ دقائق قليلةً تجعل في الغالب البونَ الشاسع (١) بين الظفر والانكسار والنجاح والفشل



(١) البون مسافة ما بين الشيئين والشاسع البعيد

الفصل الثامن

النجاح بالآداب

أعطِ غلاماً حذاقة وحسن شمائل فتخوّلهُ الاستيلاء على القصور والثروات الطائلة اينما ذهب. وليس عليهِ ان يزعج نفسهُ بالسعي لكسبها والاستحواذ عليها لانها تتوسَّل اليهِ توسلاً ان يجيء ويملكها — امرسن

يتقدم المرء في هذا العالم وليس لهُ الاَّ قبعتهُ في يدهِ — مثل المانيّ

اطلب ما تريدهُ بابتسامتك فذلك خيرٌ من ان تشقَّ طريقك اليهِ بسيفك — شكسبير

لقد شبهوا الادب بوسادة مملوءة هواءً فهي وان لم يكن فيها شيءٌ بحسب الظاهر فانها تريحنا في اهتزازاتنا إراحة عجيبة — جورج كاري

الاصل حسن ولكن التهذيب احسن — مثل سكتلندي

السلوكُ هو ثلاثة ارباع الحياة — ماثيو ارنولد

جاء في بعض الاساطير أنَّ الريح الشرقية قالت يومًا للنسيم: ألا تتمنَّى ان تكون لك قوَّتي؟ فانني حالما أهبُّ يرفع الناس الاشارات الدالَّة على دنوّ العاصفة على طول الشاطئ. وفي وسعي ان الوي صاري مركب بسهولة كما تحرّك عوسجة، وان اسحب جناحي مرّة واحدة فافرش الشاطئ من لابرادور الى راس هورن ألواحَ مراكبَ محطمة،

وأن أنين الانواء في المحيط الاتلنتيكي وطالما اثرتها ، فجميع الضعفاء يرتعدون مني وجلاً ، والناس يقطعون الغابات ليتخذوا اخشابها وقوداً ، و يستثمرون مناجم القارَّة ويستخرجون منها الفحم لاجل مواقدهم منعاً لي عن ان اخترق حتى النقي (١) الذي في عظامهم . وحين أعصف تجثم الأمم في المقابر . أفلا تتمنى ان تكون لك قوتي "

فلم يحرِ النسيم جواباً بل هبَّ من خيام الجلد فابتسمت الانهار والبحيرات والبحار والغابات والمروج والبهائم والطيور والبشر مهلِّلة بقدومهِ . والرياضُ تفتَّحت ازهارها ، والحدائق أينعت ثمارها ، وتحولت فضة حقول الحنطة الى ذهب ، وانبثت في أعالي الجو سحائبُ كالقطن المندوف ، ونشرت الطيور أجنحتها والمراكبُ أشرعتها سائرةً بلطف وحلّت الصحة والسعادة في كل مكان . فكانت الاوراق والازهار والثمار والغلال والحرارة والضياء والسرور والجمال والحياة هي الجواب الوحيد الذي ردَّ بهِ النسيم على خطاب الريح الشرقية المتغطرسة (٢) التي لا تعرف للشفقة معنىً

و يُروى عن الملكة فكتوريا أنَّها خاطبت مرةً زوجها البرنس البرت بلهجةٍ استبداديةٍ فثارت عزة نفسهِ لكلامها ودخل حجرتهُ وأغلقَ بابها وأوصدهُ إيصاداً محكماً . ولم تمضِ خمس دقائق حتى قرع الباب . فقال البرنس " من الطارق " فاجابتهُ جلالتها بعظمة : " افتح لي انا ملكة انكلترا " فلم يكن من جواب . و بعد فترة طويلة سُمع قرعٌ خفيفٌ وهذه الكلمات ملفوظة بصوتٍ منخفض : " انا زوجتك فكتوريا " ولا حاجة للقول بان الباب فتح عندئذٍ وزال الخلاف . وقد قيل إنَّ اللطف للرجل بمثابة الجمال للمرأة . فانهُ يحدث تأثيراً سريعاً موافقاً له

وفي حكاية قديمة أنَّ الراهب باسيل مات تحت طائلة الحرم البابويّ فأُرسل الى الجحيم مصحوباً باحد الملائكة ليجد له المقام الخاص بهِ ولكنَّ طلاقةَ محيَّاهُ وذلاقةَ (٣) لسانهِ كانتا تكسبان له الاصدقاء حيثما ذهب فالملائكة الساقطون أتبعوا خطتهُ والملائكة الصالحون ايضاً ساروا مسافة طويلة لِيَرَوْهُ و يعيشوا معهُ فنُقل الى أسفل

(١) مخ العظم (٢) الظالمة المتكبرة (٣) حدة وبلاغة

اعماق الجحيم الّا ان النتيجة كانت واحدةً . فان لطفة النطريّ وحنوّ فؤادهِ لم تكن تُقاومها قوةٌ فكان كأنهُ يحوّل الجحيم الى نعيم . فعاد به المَلَكَ اخيرًا قائلاً انهُ ليس من الممكن ايجاد محل يُعاقب فيهِ . فقد ظلَّ على ما كان عليهِ ولم يؤثرفيهِ شيء . وهكذا نُقض الحكم الصادر ضدّهُ وأُرسل الى السماء وأُحصي في عداد القديسين

ولم يكن الدوق اوف مرلبروك[1] يحسن الكتابة بالانكليزية وكان يخطئ في تهجئة الالفاظ ومع ذلك قد أدار مقدَّرات ممالك باسرها . فقد كان يفتن العقول بلطفهِ وقد أثَّر بهِ على كل اوربا . وابتساماتهُ الجذَّابة وعباراتهُ الخلَّابة[2] كانت تسَلُّ[3] الأحقاد من الصدور وتحوّل ألدّ الاعداء الى اصدقاء

وذهب رجلٌ الى رتشموند تصحبهُ ابنتهُ البالغة السادسة عشرة من العمر لحضور محاكمة عدوّهِ الشخصيّ الألدّ هارون برّ الذي كان يعُدُّهُ من اكبر الخائنين . فنُتنت الفتاة بآداب هارون ولطفهِ الساحر حتى انها جلست بين اصدقائهِ . فاغتاظ ابوها لذلك وأخرجها من نادي المحاكمة وسجنها في البيت . الا ان تأدُّب المُتهم أثر فيها حتى اعتقدت بانهُ طاهر الذيل مما هو منسوبٌ اليهِ وتوسَّلت لتبرئة ساحتهِ . وبعد خمسين سنةً من هذه الحادثة ظلَّت تقول: "انني لا ازال أشعرُ حتى اليوم بتأثيرسلوكهِ العجيب"

وكانت مدام ريكاميه[4] فتّانةً الى الدرجة القصوى حتى انها لما طافت بصندوق الصدقة مرّةً في كنيسة القديس روش في باريس بلغ ما وُضع فيهِ عشرين الف فرنك . وبرزت للجماهير أثناء الاستقبال العظيم الذي أُقيم لنبوليون عند رجوعهِ من ايطاليا فشخصت اليها كلُّ الابصار ونسيَ الجميعَ ذلك البطل الكبير

وجاء خادمٌ الى مدام دي مانتنون[5] مرّةً اثناء مأدبةٍ وهمس في أُذنها قائلاً

(١) قائد انكليزي شهير (١٦٥٠–١٧٢٢) (٢) التي تخدع بلطفها (٣) تنزع
(٤) سيدة فرنسية اشتهرت بعقلها وجمالها وكان منزلها مجتمعاً لارقى الطبقات في عصرها (١٧٧٧–١٨٤٩) (٥) سيدة فرنسية كانت مهذّبة لاولاد الملك لويس الرابع عشر وقد اقترن بها هذا الملك بزواج سرّيّ بعد وفاة الملكة ماري تيريز وقد كان لها تأثير كبير عليهِ (١٦٣٥–١٧١٩)

"تفضلي يا سيدتي وأطرفي الحضور بنـــادرةٍ بعدُ فليس عندنا اليوم شِواء"[١] وذلك لأنها كانت تسحر الألباب بلطفها وعذوبة حديثها حتى لا يشعر ضيوفها بما قد ينقصهم من أسباب الرفاه

وروى سانت باف أن الفئةَ الممتازةَ في كوبت قامت برحلة الى شامبري ثم عادت في عربتين . فالذين وصلوا في العربة الاولى اخذوا يروون ما لقوهُ أثناء عودتهم من اهوال عاصفةٍ شديدةٍ وطُرُقٍ مزعجة وما أحاق بهم من الخطر والظلام. اما راكبو العربة الثانية فكانوا يسمعون هذا الحديث بدَهَشٍ واستغراب لانهم لم يشعروا بالعاصفة والرعود , ولا بالمهاوي والوحول والاخطار, فهم قد نسوا الارض وما عليها وتنشقوا هواءً أنقى إذ دارت مُساجلةٌ بين مدام دي ستايل ومدام ريكاميه وبنيامين كونستان[٢] وشليجل[٣] استغرقت كل انتباههم حتى ثملوا بها ولم يشعروا بتقلبات الجوّ ولا بوعورة الطرق. وقد قالت مدام نيز: "انني لو كنت ملكةً لأمرت مدام دي ستايل[٤] ان تحادثني كلَّ يوم, فقد صحّ فيها ما قاله الشاعر الانكليزي لونغفلو عن أفنجلين: "اذا انصرفتْ خُيِّل الى الناس أنَّ موسيقى رخيمةً قـــد انقطعت"

ولم تكن مدام دي ستايل على شيء من الجمال ولكنها كانت تحوي ذلك الشيء المتعذّر تعريفهُ الذي يعنو أمامهُ كلُّ جمال مجرّدٍ اصطلاحيّ خاشعاً . وكانت تستولي على عقول الرجال استيلاءً عجيبًا وتحملهم طوعَ إرادتها وتكيّف مجاري الامور كأنّ لها مقدرةً فائقة . وكان الامبراطور نبوليون نفسهُ يخشى تأثيرها على شعبهِ حتى انهُ امر بإتلاف كتاباتها ونفاها من فرنسا

ونزل ضيفٌ في منزل ارثر كالنالو الذي كان بدون يدين ولا رجلين وبقي

(١) ما عرَض من الحم لحرارة النار (٢) سياسيٌ فرنسيٌ كان ذا مواهب ممتازة وذكاء نادر (١٧٦٧–١٨٣٠) (٣) شاعرٌ الماني نقّاد (١٧٦٧–١٨٤٥) (٤) كاتبة فرنسية شهيرة (١٧٦٦–١٨١٧)

عنده مدّةَ اسبوعين وهو يودّ ان يعرف كيف يتناول طعامهُ ولكنّ لطف المضيف وطلاوة حديثهِ أسرا كلَّ حواسّهِ وأنسياه ما هو عليهِ من النشوه

وتكلّم عن ديكنس (١) رجلٌ يعرفهُ حقَّ المعرفة فقال: "انهُ كان اذا دخل غرفةً فكأنك أوقدتَ فيها على حين فجأة نارًا عظيمة تدفئ كلَّ من فيها"

ويُروى عن غوث أنّهُ كان اذا دخل مطعمًا ترك الحاضرون سكاكينهم وملاعقهم وشخصوا اليهِ معجبين

ولما سمع فيليب المقدوني التقرير الذي نُقل اليه عن خطبة ذيموستين (٢) الشهيرة قال: انني لو كنتُ هناك لأقنعني بان احمل السلاح ضدَّ نفسي

وكان هنري كلاي لطيفًا مؤثرًا باسلوبهِ حتى انهُ كان راكبًا مرّةً مع صاحب فندق في بنسلفانيا فجعل هذا يلحّ عليهِ بالنزول من العربة ليُلقي خطابًا عليهِ وعلى امرأتهِ

وتكلّم عضوٌ بسيط المدارك من اعضاء مجلس محلّفين Jury عن المحامي العظيم تشوات بعد ان حكم في خمس قضايا متتابعة بما يوافق مصلحتهُ فقال: "انني لا أعدّ تشوات فصيحًا ذرب (٣) اللسان كما يقولون لكنني أراهُ محاميًا حَسَنَ البخت فما من دعوى من الدعاوى الخمس التي عُرضت علينا لم يكن الحق فيها في جانبهِ" فسلوك هذا المحامي وقوة تجذبهِ كانا لا يقاومان

وادورد افرت بعد أنْ دَرَسَ خمس سنوات في اوربا وعُيّن أستاذًا في جامعة هرفرد أحبّهُ التلامذة حبًا يقرب من العبادة . فقد كان ممتازًا بلطفٍ متناهٍ قلما يوجد مثلهُ الّا في السيدات ذوات التهذيب النادر . وقد نشأت محبة الجمهور

---

(١) روائي انكليزي شهير حمل في كتاباتهِ حملات منكرة على الرياء وحب الذات (١٨١٢–١٨٧٠) (٢) هو اشهر خطباء الاثينيين بل ابلغ خطيب قام في العصور القديمة خطبة ممتازة بطلاوة الالفاظ وقوة الحجة (٣٨٥–٣٢٢ ق.م) (٣) حادّ

العظيمة لهُ عن قوَّتهِ الخلاَّبة التي كان يشعر بها كل انسان دون ان يستطيع وصفها والتي لم تفارقهُ قط

وركبت سيدةٌ من نيو برك مرةً في مركبة من مركبات قطارٍ متوجّه الى فيلادلفيا الاَّ انهُ ما كاد يستقرّ بها المقام حتى رأت رجلاً ضخماً جالساً بالقرب منها قد تناول لفافة تبغ وأشعلها . فسعلت وتحرَّكت بانزعاج فلم يفدها ذالك شيئاً فقالت بحدَّة : " يظهر انك غريبٌ لا تعلم أنَّ في القطار مركبةً خاصةً للتدخين فالتدخين غير مأذون به هنا " فلم يجبها الرجل ولكنهُ ألقى لفافتهُ من النافذة . وما كان أشدّ دهشها بعد هنيهةٍ اذ جاء سائق القطار واخبرها انها قد دخلت مركبة الجنرال غرانت الخاصة فخرجت بخجل . أما الجنرال فان المجاملة الرقيقة التي ابداها لها بالقائهِ لفافتهُ قد حملتهُ ايضاً على ان يتحاشى اذلالها ولو بنظرة استفهام بل انهُ لم يلتفت اليها قط بينما هي سائرة تتفرس بوجههِ الجامد الصامت برُعبٍ ووجلٍ حتى بلغت الباب

وبعد ان ارسل جوليان رالف بالبرق تفصيل رحلة الرئيس ارثر الى الجزائر الالف عاد الى النُزل وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل فوجد جميع الأبواب مُوصدةً فاخذ هو وصديقاهُ اللذان رافقاهُ يقرعون باباً خلفياً بقصد ايقاظ الخَدَم الاَّ ان اسفهم كان عظيماً جدًا حين فُتح الباب وكان الفاتح لهُ رئيس الولايات المتحدة نفسهُ. واذ أخذ رالف يعتذر قال لهُ الرئيس : " لِمَ الاعتذار . فانني لو لم أجئ وافتح لك لما أمكنك الدخول حتى الصباح . اذ ليس في النزل احد مستيقظٌ الآن . ولو لم يكن خادمي الأسود نائماً لأرسلتهُ ولكنني كرهت ان أُوقظهُ "

ودعا الملك ادورد المتوفى لما كان وليًا للعهد وهو الحائز قصب السّبق بين اهل الظرف في اوربا رجلاً شهيرًا لتناول الغداء على مائدتهِ . فلما قُدِّمت القهوة جعل الضيف يشربها من الصحفة لا من الفنجان فاستغرب الجميع ذلك وجعلوا يفهمون علناً فلاحظ الامير ذلك وللحال أفرغ فنجانهُ في صحفتهِ وجعل يشربُ القهوة على اسلوبِ ضيفهِ . فتلقى أفرادُ أُسرة الأمير هذا التوبيخ صامتين خَجِلين وفعلوا فعلهُ

واستدعت الملكة فكتوريا كارليل[١] وكان فلاحًا سكتلنديًا وعرضت عليهِ لقب شريف فأبى قبوله لاعتبارهِ انهُ شريف بجنسهِ الخاص. وكان قليل الدربة بآداب البلاط حتى انهُ لما مثل بحضرة الملكة وكلمها بضع دقائق سئم[٢] وقال لها: لنجلس يا سيدتي. فكاد رجال البلاط يغشى عليهم. اما الملكة فانها اشارت اليهم في الحال بالجلوس ففعلوا. ويعرف فرط مجاملة الملكة بخرقها هذا القواعد المرعية من مطالعة ما قالهُ احد معارف كارليل عنهُ بعد مقابلتهِ اياها لاول مرة فقد قال: "ان الطريقة الغير المحترمة التي حضر بها قد نفضت اعصابي وقد كنت اتوقع ان ارى رجلاً نادر المثال ففارقتهُ وانا اشعر كأني شربتُ خلاً او اصبتُ بدوار"

"وحكى القاضي يحيى بن اكثم قال كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع ان يصيح بغلام يسقيهِ وانا نائم فينغّص عليَّ نومي فرأيتهُ وقد قام يمشي على اطراف اصابعهِ حتى أتى موضع الماء وبينهُ وبين المكان الذي فيهِ الكيزان نحو ثلثمائة خطوة فاخذ منها كوزًا فشرب ثم رجع يمشي على أطراف أصابعهِ حتى قرب من الفراش الذي انا عليهِ فخطا خطوات خائفٍ لئلاَّ ينبهني حتى صار الى فراشهِ

"قال وبتُّ عندهُ ذات ليلةٍ فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقهُ[٣] وهو يحشو فمهُ بكمّ قميصهِ يدفع بهِ السعال حتى غلبهُ فسعل وأكبَّ على الارض لئلا يعلو صوتهُ فأنتبه

"وقال ايضًا: كنت معهُ يومًا في بستان ندور فيهِ ومشينا فيهِ من أولهِ الى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظلّ فكان يجذبني ان أتحوّل أنا في الظل ويكون هو في الشمس فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكوننَّ في مكاني ولأكوننَّ في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذتَ نصيبك وتأخذَ نصيبك من الظلّ كما أخذتُ نصيبي فقلتُ والله يا امير المؤمنين

(١) مؤرخ انكليزي مشهور (١٧٩٥—١٨٨١) (٢) ضجر (٣) ألحظهُ لحظًا خفيفًا

لو قدرتُ أن أقيك يومَ الهول بنفسي لفعلتُ فلم يزل بي حتى تحوّلت الى الظل وتحوّل هو الى الشمس"

وانك لترى بعضَ الناس قابضين على صولجان يحني غيرهم امامهُ طائعًا بسرور. فمن اين تأتيهم هذه القوة السحرية ؟ وما هو سر هذا التأثير الذي يكاد يكون ضربًا من التنويم المغناطيسي والذي نتمنى الحصول على مثلهِ باي ثمنٍ كان

وقواعدُ التأدُّب لا تُراعى دائمًا في المقامات العالية بل انك تجد في قصور الملوك أمثلةً عديدة على إساءة الادب . فان البرنس ادورد وقرينته افاما منذ عدة سنوات مأدبة لم يقبلا فيها من الاعيان الأ خلاصة الخلاصات ومعَ ذلك قد اشتدَّ فيها التزاحم والتدافعُ لرؤْية الاميرة حين مرورها بقاعة الاستقبال اذ كان ذلك على اثر زواجهما حتى ان تمثالاً نصفيًّا لوليّ العهد انقلب عن قاعدتهِ وتشوّه وسقطت القاعدة ايضًا ووقفت عليها بعض السيدات من فرط شوقهنّ لرؤْية الاميرة

وقد كانت قيصرة الروس كاترين عند ما تقيم استقبالات لاشراف بلادها توزّع عليهم بطاقات حاويةً التنبيهات الآتية : "لا يجوز للسادة ان يسكروا قبل انتهاء الضيافة. ممنوعٌ على الاشراف ان يضربوا نساءهم اثناء الاجتماع. لا يجوز لسيدات البلاط ان يغسلنَ افواههنّ في أكواب الشرب او يمسحنَ وجوههنّ بالدمقس او ينظفنَ اسنانهنّ بالشوكات" اما اليوم فان اشراف الروس لا يُجاريهم مجارٍ في مراعاة آداب الاجتماعات

وآداب الاجتماعات يدعوها الافرنج بالاتيكت etiquette وهي لفظة معناها الاصلي a ticket بطاقة مربوطة الى كيس تدلّ على محتو ياتهِ فكل كيس عليهِ تلك البطاقة لا يُفحص . ثم أُطلقت هذه الكلمة على البطاقة التي يطبعون عليها بعض قواعد تجب على الزائرين مراعاتها . ثم صارت تُطلقُ على تلك القواعد نفسها. وصار من ميّزات الطبقاتِ العُليا في المجتمع السيرُ بمُوجَب تلك القواعد او "الاتيكت"

وقد كان من حسن حظّ نبوليون أنهُ تزوج جوزفين قبل ان تولّى القيادة

العليا للجيوش المحاربة في ايطاليا . فان اساليبها اللطيفة الجذابة ومقدرتها العجيبة على الإقناع كانتا أفعل من إخلاص عشرات من رجال فرنسا في إكسابه ولاء الأشياع الذين جاهدوا لرفع لوائه وتوطيد اركان مجده . فقد كانت جوزفين في قاعة الاستقبال كما كان زوجها في ساحة الوغى قائدة متفوّقة . وسرُّ شخصيتها التي لم تجعلها فقط ملكة قلوب الافرنسيين بل مليكة قلوب كل الشعوب التي أخضعها زوجها قد أوضحته هي بنفسها إيضاحًا جميلاً في قولها لاحد اصدقائها : " ليس الاّ موضعٌ واحدٌ أستعمل فيه كلمة "أُريد" وهو حين اقول : " أُريد ان يكون كل من حولي سعيدًا . "
فكأن الشاعر الانكليزي قد عناها حين قال ما ترجمته :

" انها مرّت على الطريق في صباحٍ سعيد بهج فانتشر مجد الصباح على ذلك النهار بطوله "

والأساليبُ اللطيفةُ تعوّض عما حرمتنا اياهُ الطبيعة وتزيد . وأقدر الناس على استمالة القلوب انما هو من امتاز بظرفه ورقّته لا من امتاز بجماله الطبيعيّ . وقد كان اليونان يعدّون الجمال دليلَ رضى الآلهة وإنعامها الخاص ويعتبرون ان الجمال الوحيد الجديرَ بأن يُزخرَف ويُؤخَذَ رسومهُ هو الذي لا تشوبهُ مظاهر خارجيّةٌ دالّة على كبرياء وقسوة . وعندهم أنّ الجمال يجب ان يكون معبّرًا عن عواطف داخليّة جذّابة كالبهجة وصفاء النية والقناعة والشفقة والمحبة

وكان ميرابو(١) من أبشع رجال فرنسا صورةً حتى قيل "ان لهُ وجه نمر موشومًا بآثار الجدري" ولكنَّ لطفهُ كان يأخذ بمجامع الافئدة

والجمالُ في الحياة والاخلاق كما في الفن لا يكون في مالهُ زوايا حادّةٌ بل في ما تُرى خطوطهُ متواصلةً تشتبك بعض اعوجاجاتها ببعض بلطف . والزوايا الحادّةُ هي التي تمنعُ كثيرًا من النفوس عن ان تكون جميلةً مع أنها تكاد تكون كذلك . والخيرُ الذي نصنعهُ قلّما يُعَدُّ خيرًا اذا جاء بصورة خشنة فظّة في غير محلّه او في غير

(١) احد زعماء الثورة الافرنسية وكبار خطبائها (١٧٤٩–١٧٩١)

وقتهِ . وفي وُسْع كثيرين من الرجال والنساء ان يضاعفوا نفوذهم ونجاحهم اذا تذرّعوا بالرقة والتأدب

والتقليد يروي لنا ان ابلُوس قبلما صوَّرَ صورتهُ العجيبة لإلاهة الجمال وهي الصورة التي دهش لها كل اليونان قضى عدة سنوات في اختْوُل ومراقبة النساء البارعات في الحسن حتى امكنهُ ان يجمع في تلك الصورة العادمة المثال أبدع ما وقع نظرهُ عليهِ. وهكذا اصحاب الآداب السامية يدرسون و يلاحظون و يختارون ما هو أرقّ وأحرى بالاكتساب في كل شخص مهذَّب يجتمعون بهِ

قال ملاحظٌ فطنٌ: ألقِ عظمةً لكلب تجدهُ يلتقطها بفيهِ ويعدو بها بعيدًا دون ان يبصبص ذنبهُ . واما اذا دعوتهُ اليك وأمرَرْتَ يدك على رأسهِ وجعلتهُ يتناول العظمة من يدك فانهُ يذهب بها ملوِّحًا بذنبهِ علامة عرفان الجميل. فالكلب يُميِّز المعروف وطريقة اصطناعهِ . والذين يُلقُون معروفهم القاءً ليس لهم ان ينتظروا من الناس تلقّيهُ منهم بابتسامة الشكر والامتنان

قال الدكتور غثري من ادنبرج : "سَلْ رجلاً في رومية ان يرشدَك الى الطريق تجدهُ مستعدًا لإجابتك بطريقة رقيقة لطيفة . أما اذا وجّهتَ مثل هذا السؤال الى رجل في سكتلند (وطن المتكلم) فانهُ يقول لك : تابع سيرك تجد الطريق . على ان اللوم في ذلك انما هو على الطبقات العليا . فالسبب في كون الطبقات الدُّنيا في هذه البلاد غير أديبةٍ هو كونُ الطبقات العليا فيها غير أديبة . وانني لأذكر ما تولاّني من الدَّهش عند زيارتي باريس للمرّة الاولى . فقد قضيتُ ليلتي الاولى هنالك بصحبة رجل صرّافٍ مضى بي الى غرفةٍ مفروشة. فحالما وصلنا الى البيت المقصود قابلتنا الخادمة عند الباب فرفع لها الصيرفيُّ قبعتهُ وانحنى لها مخاطبًا اياها "بأيتها الآنسة" كما لو كانت سيدةً .فعلمت من ثَمَّ أنّ السبب في كون الطبقات الدُّنيا في تلك البلاد على هذا القدر من اللطف والأدب هو كون الطبقات العليا تعاملها بمثل هذا اللطف والأدب"

ولاشكّ أنّ التأدُّب مجدٌ ذاتي ثروةٌ لصاحبهِ . فالاشخاص المتأدّبون يستغنون عن المال لان في ايديهم جوازات سفر يمرّون بها حيثما شاؤوا . فكل الأبواب تنفتح لهم فيلجونها بدون دفع بدل . ويمكنهم ان يتمتعوا بكل شيء تقريبًا بدون ان يتكلفوا عناء مشتراهُ او اقتنائهِ . وهم يلاقون بالترحاب في كل أسرةٍ كما يُلاقى نور الشمس . وكيف لا يكون هذا شأنهم وهم يحملون معهم الضياء والابتهاجَ اينما حلّوا . وهم يستلّون الحسد والغيرة من الصدور لانهم ينقلون معهم الارادة الصالحة لكل انسانٍ . وما كانت النحلُ لتلسعَ امرءًا ملوّثًا بالعسل

قال شسترفيلد : " ان حُسْنَ تهذيبِ المرء هو خير درع له تقيهِ سوء آداب الآخرين . فانهُ يكسبهُ كرامةً يحترمها اشدُّ الناس شراسةً . أما سوء الأدب فانهُ يجرّئُ أجبنَ الناس على رفع الكلفة ويُزيل الهيبة . وما من احدٍ وجّهَ كلمةً بذيئةً الى الدوق اوف مرلبروك ، ولا كلمةً لائقةً الى السر روبرت ولبول " (١)

وليس من شأن الأديب الحقيقيّ ان يحوي صفات تثيرُ عداء الآخرين كالانتقام والبغض والخبث والحسد والغيرة لان هذه الصفات تسمّ منابعَ الحياة الروحية وتجفّف النفس . وكرمُ النفس وإرادة الخير لجميع الناس شرطان ضروريّان لمن شاء ان يكون ذا آداب سامية . تمثّل رجلاً فظًا شكسًا غضوبًا عنيدًا حَرِدًا صموتًا شحيحًا خسيسًا نحو أسرتهِ وخدمهِ ، يأبى على امرأتهِ مبلغًا يسيرًا من المال لتشتري بهِ ملابس هي في حاجةٍ اليها ويرميها بالإسراف المفرط . قُرِع الجرس فجأةً وقدم بعض الجيران للزيارة . فاذا بذلك الرجل كأنهُ قد تبدّل بضرب من ضروب السحر فاصبح حلو المعشر أنيس المحضر ، وانقلبت غِلظتُهُ الى لطف ، وشحّهُ الى كرم ، ثم لما انصرف الزائرون قامت اليهِ ابنتهُ تتوسّل اليهِ ان يحافظ على مظهرهِ اللطيف ولو الى أجل قصير . الاّ أنهُ ما لبث ان عاد الى شراستهِ وتلاشت رقّتهُ بالسرعة التي جاءت بها . وعاد ذلك الدبّ المخيفَ الذميمَ الشكسَ كما كان قبل مجيء ضيوفهِ

(١) احد مشاهير ساسة الانكليز (١٦٧٦–١٧٤٥)

وأيُّ صديق للدكتور جونسون لم يكن يتولاه الغمُّ والألم لرؤيتو اياهُ يلتقمُ طعامهُ كأحد افراد قبيلة الاسكيمو[1] وينعت الناس بالكذابين لمجرَّد مخالفتهم لهُ في الرأي . وهذا ما دعا الى تلقيبو "بالدب الاكبر"

روى بنيامين رش انهُ لما كان غولد سمث مدعوًّا الى مأدبةٍ في لندن سأل سؤالاً عن هنود اميركا . فصاح الدكتور جونسون قائلاً : انهُ ليس بين هنود اميركا الشمالية من بجملة الحمق على ان يسأل مثل هذا السؤال . فأجابهُ غولد سمث : ما من متوحش في اميركا يا سيدي تبلغُ منهُ الفظاظة الى حدّ توجيه مثل هذا الجواب الى رجل اديب

وبعد ان أُهين استفان دوغلاس في مجلس الشيوخ الاميركي نهض وقال : إنَّ الكلام الذي لا يليق برجلٍ اديبٍ ان يقولهُ لا يليق برجل اديب ان يجيب عليهِ

وقد وصف ارسطوطاليس منذ الفي سنة الأديب الحقيقيَّ هكذا : ان الرجل الشريف النفس يتصرَّف باعتدالٍ في حالتي اليسر والعسر . فلا يأذن بان يُبجَّلَ ولا بأن يهان . ولا يبطر للنجاح ولا يجزع للفشل , ولا يختار الخطر ابدًا ولا يبحث عنهُ , ولا يتحدَّث عن نفسهِ ولا عن الآخرين ولا يهمهُ سواءٌ مدحهُ الناس أم ذمُّوا غيرهُ"

ومن مزايا الرجل الاديب اللُّطفُ والاحتشام والمجاملةُ والبطءُ في الغضب وعدمُ اغضاب احد وهو لا يتسرَّع في ان يظن سوءًا ولا يُضمر السوء ابدًا . ويضغط على شهواتهِ ويلطِّف ذوقهُ ويقهر عواطفهُ وينتقد كلامهُ ويعدُّ كلَّ انسانٍ فاضلاً مثلهُ . ومَثَل الرجل الاديب مَثَلُ الوعاء من الخزف يجب ان تُطبعَ عليهِ الصُّور قبل أن يَدهنَ فاذا أُدخِلَ النارَ وأُحرق فلا يبقى في الامكان إحداثُ تغييرٍ فيهِ وكلُّ ما يوضع عليهِ بعدئذٍ يُغسلُ فلا يبقى لهُ أثر . واذا فقدَ أمرؤٌ كلَّ ما يملكهُ وظلَّ محافظًا على شجاعتهِ وبشاشتهِ ورجائهِ وفضيلتهِ وعزَّةِ نفسهِ فهو أديبٌ حقيقيٌّ ولا يزالُ غنيًّا

(١) قبيلة من سكان الاقاليم القطبية تقطن غرينلند والانحاء الواقعة بين خليج هدسن ومضيق بيرنغ

قال الوزير الافرنسي الكونت دي فرجان للمستر جفرسون الذي جآء باريس خلفًا للدكتور فرنكلن سفير اميركا فيها: "سمعتُ انك حَلَلْتَ محلّ الدكتور فرنكلن." فاجاب: "إنني خلفتهُ في عملهِ وأما الحلولُ محلّهُ فهذا ما لا يستطيعهُ احدٌ". وأكرِمْ بهِ من جوابٍ مفعمٍ تقريظًا صادرٍ من رجل ما لبث ان أحرزَ مكانةً ساميةً لدى البلاط الاكثر تأدبًا في اوربا

ولما ارتقى البابا اكليمنضس الرابع عشر الى منصَّة البابوية انحنى للسفرآء الذين انحنوا لهُ مهنئين عند انتخابهِ. فقال لهُ رئيس التشريفات: "كان عليك ان لا تردّ لهم تحيتهم". فاجابهُ اكليمنضس: "أسألك المعذرة فانهُ لم يمضِ عليَّ على هذا الكرسيّ من الزمن ما يجعلني أنسى واجبات اللياقة"

وقال كوبر: ان الرجل المحتشم الرقيق الشعور الحسن التهذيب لا يهينني وغيره لا يستطيع ذلك

وقال مونتسكيو: انني لا أُصغي للوشايات على الاطلاق فانها اذا كانت غير صحيحة تعرضت لخطر الانخداع واذا كانت صحيحةً أضطررتُ ان أُبغض أناسًا لا يستحقون ان أُفكّر بهم

وقال امرسون: أظن ان هانس اندرسن في قصتهِ عن الثوب الرفيق الغير المنظور المحوك من نسيج العنكبوت ليكون وشاحًا لملك انما يعني الآداب التي هي بالحقيقة خيرُ ردآء لطباع الامراء

وإنّ التحلي بالآداب او الاهتمام بالامور في اوقاتها المقرون بشعورٍ انسانيٍ لطيفٍ لهو عاملٌ عظيمٌ لا يستطيع احدٌ ان يُحدّد قيمتهُ تحديدًا تامًّا. فهو ثمرةُ تهذيب الطباع والموصلُ الى أرقى طبقات المجتمع. وان سلوكنا هو الذي يغيظُنا او يُهدئنا ، ويرفعُنا او يخفِضُنا ، ويجعلُنا ذوي فظاظةٍ او رقةٍ بممارسةٍ مستمرّةٍ ثابتة على نهجٍ واحدٍ أشبهَ شيءٍ بممارستنا لتنشق الهوآء. والقوة البدنيّة نفسها لا تعادل قوة اللطف التي هي اشبهُ

بزيت يلين علاقاتنا بعضنا ببعض . ويمكّن آلات المجتمع من تتميم وظائفها بدون احتكاك

قال امرسن : ألم ترَ في الغابات في صباح يوم من ايام الخريف الاخيرة نبتة فقّاع او فُطر – تلك النبتة العادمة كلَّ متانة والتي تظهر كأنها عَصيدة او هلام[(١)] ناعم – فانها بتقدمها اللطيف الثابت تشق لنفسها طريقًا في وسط الارض المغطاة بالصقيع وترفع قشرةً قاسيةً فوق رأسها . فهي خيرُ رمزٍ لقوة الحنوّ

وقال ماغون : ليس من خطّة للتصرّف افضل من الادب ، ما دام الأدب ينجح غالبًا حيث يفشل افصح لسان . ففنُّ استمالة الناس هو فنُّ النهوض في هذه الدنيا

ويقال ان الشعب اليهوديّ اكثرُ شعوبِ العالم تأدُّبًا . فان اليهود قد ذاقوا في كل العصور طعم الاضطهاد والذلّ وطالما حُرموا حقوقهم الاجتماعية وامتيازاتهم المدنية وهم مع ذلك كلهِ مهذبون الطفاء حينما وُجدوا ، متسامحون لا يُعيّرون معيّريهم ، أمناء لشركائهم القدماء يهتمّون لعدم الحاق الاذى بالآخرين اكثر ما يهتم الآخرون بعدم الحاق الاذى بهم ، وليسوا بالاجمال أشدَّ تمسكًا بالماديات وحبًّا للكسب من سواهم . وهم من الوجهة العمومية يفوقون كل الشعوب في التأدُّب واللطف والصبر

وقال رِبختر : ان الرجال كالقنابل كلما كانت أشدَّ ملاسةً كانت أبعد مدًى في انطلاقها

واستاء نبوليون مرةً لسماعهِ ان جوزفين أذِنت للجنرال لورج وهو شابٌّ بهي الطلعة بالجلوس الى جانبها على الطنفسة . أما هي فأوضحت لهُ انها لم تأذن بذلك للجنرال لورج بل لقائد آخر من قوّاد جيشهِ الطاعنين في السن ممن لا خبرة لهم بعادات البلاط ومصطلحاتهِ . فقد جاء ذلك الجنديُّ الشيخ الشريف وجلس الى

(١) العصيدة طعامٌ هو عبارة عن دقيقٍ يُعقد بالطبخ ، والهلام طعام من لحم عجل بجلادهِ او مَرَق السكباج المبرّد المصفى من الدهن

جانبها فلم تشأ ان تجرحَ عواطفهُ وأذنت له بالبقاء في مركزهِ فأجزل لها نبوليون الثناء على تلطفها

وركب الرئيس جفرسن يومًا مع حفيدهِ فالتقيا بعبد فرفع قبعتهُ لهما وانحنى مسلّمًا فردَّ لهُ الرئيس التحية برفع قبعتهِ أما حفيدهُ فتجاهل الامر ولم يبدِ حراكًا . فقال لهُ جدّهُ : يا توماس أترضى ان يكون العبد أكثر أدبًا منك

وقال فريد دوغلاس : ان لنكلن هو اوّلُ رجلٍ عظيمٍ تحادثت وإياهُ بحرّيةٍ في الولايات المتحدة . ولم يُذكّرني في حادثةٍ واحدة بما بيني وبينهُ من الفرق واختلاف اللون

وقال كونفوشيوس : "كُلْ على مائدتك الخاصة كما لو كنتَ تأكُلُ على مائدة ملك". فلا ريب في انهُ اذا كان الوالدان يهتمّان بسلوك اولادهما في البيت فيندر ان يحدث لهما من سلوكهم في الخارج ما يوجبُ القلقَ والانزعاج

وكان جيمس رسل لوبل يجامل المتسوّل كما يجامل اللورد وقد شوهد مرةً يتحادث بالايطالية محادثةً طويلةً مع رجل يَسُنُّ الآلات ويسألهُ عن مشاهد ايطاليا التي كان كلاهما يعرفها حقَّ المعرفة

واتفق مرّةً لسيدةٍ في رَيعان الشباب(١) انها كانت تدور بسرعةٍ عند منعطف شارعٍ معوجٍ في لندن فصدمت غلامًا متسوّلاً لابسًا ثيابًا رثّة صدمةً عنيفة كادت تلقيهِ الى الارض . فوقفت للحال والتفتت اليهِ وقالت بحنوّ : "اسألك العفو يا رفيقي الصغير وانني لمغتمّة جدًّا لاني اصطدمت بك" فحدّق فيها الولد هنيهةً بدَهشٍ ثم رفع عن رأسهِ ثلاثة ارباع قبعتهِ وانحنى انحناءً عميقًا وقال وقد علت ثغرهُ ابتسامة لطيفة : "تسألينني العفو يا سيدتي فرحبًا بكِ وفي المرّة الثانية يمكنكِ ان تصدميني وتلقيني الى الارض ولا أنبسُ ببنت شفة". وبعد ان مرّت قال لرفيقٍ لهُ : "هذه هي

(١) اوثة

اوّل مرة يا جمس سمعتُ فيها واحدًا من الناس يسألني العفو . وذلك حنوٌ منها ولو كسرت رجليَّ "

وكان نبوليون مارًّا في طريقٍ ضيّقٍ في جزيرة القديسة هيلانة وبرفقتهِ سيدةٌ فمرَّ عاملٌ حاملٌ على ظهرهِ حملاً ثقيلاً فتنحّى نبوليون ليفسح لهُ ممرًا واذ رأى ان رفيقتهُ لم تحذُ حذوَهُ قال لها : " احترمي الحمل ايتها السيدة ، احترمي الحمل "

وذهب رجلٌ سياسيٌّ من وشنطون ليزور دانيال وبستر في منزلهِ في مارشفيلد ماس . فآثر ان يسير الى البيت في طريقٍ مختصر وصل في اثنائهِ الى جدول لم يستطع ان يقطعهُ . وكان هنالك فلّاح خشن الهيئة فدعاهُ وسألهُ ان يحملهُ الى الضفّة المقابلة فينتدهُ ربع ريال فحملهُ الفلاح على منكبيهِ العريضين واوصلهُ الى الضفّة بالسلامة ولكنهُ لم يشأ ان يقبض الاجرة . وبعد هنيهةٍ ظهر الفلّاح الشيخ في المنزل وما كان أشدَّ دهَشَ الزائر وأسفهُ حين علم انهُ المستر وبستر عينهُ

ولما نقم الرعاع على غريسون وجرّوهُ في الشوارع ومزّقوا ثيابهُ عن ظهرهِ أظهر نحوهم من التأدُّب ما كان يظهرهُ لو كان في حضرة ملك . فقد كان من اصفى الناس نفسًا . والسيد المسيح كان وديعًا حتى نحو مضطهديهِ وقد صرخ اثناء نزعهِ المخيف على الصليب : " يا ابتاه اغفر لهم فانهم لا يعلمون ماذا يعملون " وخطـــاب بولس الرسول امام اغريباس مثال التأدُّب كما انهُ مثالٌ للبلاغة وقوّة الحجّة

وكثيرًا ما جلب التأدُّب لصاحبهِ ثروة طائلة . فان المستر بتلر وهو تاجرٌ في بروفيدنس كان مرّةً قد أوصدَ مخزنهُ وسار في طريقهِ الى البيت فالتقى بابنة صغيرة محتاجة الى بكرة . فعاد وفتح مخزنهُ واعطى الابنة مطلوبها . فذاع خبر هذه الحادثة في المدينة كلها وجلب لهُ مئاتٍ من الزبُن وقد أحرز ثروة كبيرة وكان لطفهُ العامل الأهمّ في ذلك

وروس فيناتس من بلتيمور مَدينٌ بنجاحهِ الباهر وغنـــاهُ الواسع لمؤانستهِ لرجلَين غريبين . فان ما ابداهُ لهما من الملاطفة بإيضاحهِ لهما ادقّ التفاصيل مع كون

معملِهِ من الدرجة الرابعة قد كان منافضاً كل المنافضة لقلة ما أُعيراهُ من الالتفات في المعامل الاخرى الكبيرة وذلك ما أكسبهُ احترامها . وكان هذان الغريبان موفَدَين من قِبَل قيصر روسيا . ولم تمضِ مدَّةٌ وجيزةٌ حتى دعاهُ القيصر لانشاء معامل لقاطرات السكك الحديدية في روسيا . فلبَّى الدعوة وفي أمدٍ قصير أصبحت ارباحهُ السنوية التي نجمت عن مجاملتهِ تزيد عن مائة الف دولار

ورأى قسٌّ مسكينٌ مرَّةً جمهوراً من الرجال والغلمان السمجين يضحكون هازئين بسيدتين مسنتين لابستين ثياباً قديمة وهما مضطربتان لا تجسران على الدخول الى الكنيسة . فاخترق الجمهور وجاء بهما الى وسط الكنيسة وأجلسهما في مركزَين ممتازَين بين قهقهة الجمع . فكان أنَّ هاتين السيدتين تركتا لهذا القسّ اللطيف عند وفاتهما ثروةً عظيمةً مع انهما غريبتان عنهُ . فاللطف يكافئ صاحبهُ

والتفت سيدةٌ منذ عهدٍ غير بعيد بالمستر همفري الرئيس السابق لكليـــة امهرست فحملها امتنانها ما لقيتهُ من لطفهِ على أن وهبت الكلية مبلغاً طائلاً من المال

وعاد رجلٌ الى نيويرك بعد غيابهِ عنها مدَّةً طويلة فسأل "لماذا لم ينجح صديقنا فلان في عملهِ مع أنَّ لهُ رأس مالٍ كافياً وخبرةً تامَّةً في مهنتهِ ودهاءً وذكاءً نادرَين؟" فقيل لهُ : " لانه كان دائماً حادّ الطباع شكساً يتهم مستخدميهِ بانهم يغشُّونهُ ولا يحسن ملاطفة الزبن . فنشأ عن ذلك أن لم يكن احد من مستخدميهِ يعمل لهُ بصدق عزيمة ورضى وهجرهُ زبنهُ الى المخازن الأخرى التي يُقابلون فيها بالمؤانسة واللطف

وبعضُ الناس يكدُّون اعظم كدٍّ ويحرمون انفسهم كثيراً من وسائل الراحة والسرور من فرط رغبتهم في القبض على ناصية النجاح الاَّ أنهم يجعلون نجاحهم امراً مستحيلاً بمسلكهم الجافي ومعاملتهم الفظة . فهم يبعدُون عنهم الزبُن فيتحوَّل الربح الذي كان ينبغي ان يكون حصتهم الى غيرهم ممن هم أقلُّ استحقاقاً ولكن أكثر مجاملةً وملاطفةً .

وفظاظةُ المرء تحرمهُ في الغالب الاستفادة مما هو عليهِ من الاستقامة والاجتهاد والعزيمة الماضية وأما لطفهُ فيجعلهُ يكسبُ على رُغْم ما قد يكون فيهِ من النقائص والعيوب فاذا نزَل الى ميدان العمل رجلان حاصلان على مواهب متساويةٍ ورأس مالٍ متساوٍ وكان احدهما أنيسًا لطيفًا كريمًا مسالمًا والآخر خشنًا قاسيًا شحيحًا وقحًا فلا يمضي قليلٌ من الزمن حتى يصير الاول متمولاً ويهبط الثاني الى حضيض الفاقة والعوَز

"وقد جاء في حديث نبويّ: الخُلق السيئ يُفسد العمل كما يُفسدُ الخلّ العسل. وجاء في القرآن الشريف: ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك"

وفي مخزن البون مارشه في باريس مثالٌ بديعٌ لفائدة اللطف في العمل. فالمخزن المذكور عبارةٌ عن بنايةٍ هائلة تضمُّ الوفًا من المستخدمين وتباع فيها كل سلعة (١) من السلع تقريبًا ويمتاز هذا المخزن عن سواه بامرين هما رخص الاسعار والملاطفة الفائقة الحد. وعلى المستخدمين ان لا يكتفوا بمجرّد ملاطفة الزبن بل من واجبهم ان يبذلوا كلّ واسطة ممكنة لإرضائهم وجعلهم يشعرون كأنهم في بيوتهم ومن قواعدهم أن يلقى الزائرُ في هذا المخزن شيئًا يزيد على ما يلقاهُ في المخازن الأُخرى لكي يتذكر البون مارشه فيما بعد بسرور. وقد تقدّم هذا المخزن باتّباعهِ هذه الخطة تقدّمًا عظيمًا حتى صار على ما يقال اكبر مخزن من نوعهِ في العالم

وهذه العبارة: "شكرًا لكِ يا عزيزتي تفضلي وعودي الى زيارتنا" التي وجّهها لندي فوت الى ابنةٍ صغيرةٍ متسوّلة اشترت من مخزنهِ سلعةً زهيدةً بقيمة بنس قد كانت له بمثابة اعلان مفيد وجعلتهُ يصير من اصحاب الملايين

على أن كثيرين من الاشخاص ذوي الرقة واللطف الحقيقيين يظنّهم الناس خشنين متكبرين متحفظين معجبين بانفسهم معَ انهم ليسوا على شيء من ذلك وما ذنبهم الاَّ انهم خجولون جبناء

ومن الحقائق الغريبة أنّ الحياء يجرُّنا غالبًا الى تصرُّفات نظنُّ نشمئزُّ منها

(١) متاع مما يتجر به

نفوسنا وتسبب لنا غمًّا وانزعاجًا شديدين . والحياء المفرط يجب التغلب عليه وازالته لانه عائقٌ دون حسن السلوك. وهو من خاصات الشعبين الانكلوسكسوني والتيتوني[1] وكثيرًا ما يحول دون إدراك قمة التهذيب الراقي . وهو مرضٌ يصيب أرقّ واعلى الطبقات في المجتمع ولا يصيب الفظّ والعاميّ ابدًا

وقد كان السر اسحاق نيوتن من أشدِّ رجال عصرهِ حياءً فلم يشأ ان يعترف باكتشافهِ العظيم سنوات عديدةً خوفًا من ان تتحوَّل اليهِ الافكار . ولم يأذن ان يُذكر اسمهُ عند الكلام عن قضية حركة القمر لئلا يكثر عدد المعارف الذين يودُّون مُقابلته والتباحث معهُ . وكان جورج وشنطون[2] جافيًا حييًّا وهيئتهُ هيئة فلاح. ورئيس الاساقفة هويتلي كان على جانبٍ عظيم من الحياء يجتنبُ أن يراهُ الناس ما استطاع الى ذلك سبيلاً . واخيرًا قرر العدول عن محاولة مداواة هذه العلة قائلاً: "أأظلّ كلّ حياتي متحملاً هذا العذاب" واذا بها اضمحلت فجأةً مما اوجب استغرابه. وكان اليهو بريت من الحياء بحيث كان يختبئُ في غرفة المؤونة اذا زار والديهِ زُوَّارٌ

وممارسة التمثيل او الخطابة على المنابر لا تكفي دائمًا لاستئصال الحياء . فان دافيد غاريك الممثل الكبير دُعي مرة لتقديم شهادة في المحكمة ومع انهُ كان قد قضى في التمثيل ثلاثين سنة امتاز فيها بضبط حواسهِ ظهر عليهِ الخجلُ والاضطراب شديدًا حتى صرفهُ القاضي من المحكمة . وجون غاف قال انهُ لم يتمكن من التملُّص من قيود الحياء الشديد الذي استولى عليهِ منذ صباهُ ومن إجفالهِ من ملاحظة الناس لهُ. وانهُ لم يذهب مرة الى المنبر إلاَّ وهو يرتعد وَجَلاً والعرق البارد يتصبَّب منهُ

وكثيرون من الاشخاص ارباب المقدرة الذين هم شجعانٌ في الشوارع ، واذا شهدوا معمعةً هجموا على افواه المدافع ، تراهم جبناءَ في القاعات ، لا يجسرون ان

---

(١) الانكلوسكسون اسم عام للشعوب الجرمانية التي اجتاحت بريطانيا العظمى في القرن السادس للمسيح والتيتون اسم لشعوب جرمانيا القديمة التي اجتاحت غاليا ومزَّقتها جنود القائد الروماني ماريوس سنة ١٠٢ قبل المسيح (٢) احد مؤسسي جمهورية الولايات المتحدة واول من ولي رئاستها (١٧٣٢-١٧٩٩)

يُصرّحوا برأيٍ لهم في الاجتماعات . فهم يشعرون ان في قانون المجتمع استبداداً خدّاعاً يُقفل شفاههم ، ويلجم ألسنتهم ، فقد كان اديسون[1] من افصح الكتاب الانكليزيين ومن اقدر ارباب الاقلام ولكنهُ لم يكن يقدر ان يتفوَّه ببشر كلمات أثناء المحادثة دون أن يتولاّه الاضطراب . وشكسبير[2] كان في منتهى الجبن وقد انسحب من اندن وهو في سن الاربعين دون ان يطبع شيئاً من رواياتهِ او يحفظ لنفسهِ حقّ طبعها . فنال حصصاً في الربح من الدرجة الثانية او الثالثة بسبب خجلهِ

والجبن انما يحصل بالاجمال للشخص الذي يفكّر كثيراً بنفسهِ — وهذا الامر يجد نفسهِ اخلالٌ بقواعد حسن التهذيب — ويتساءل عما عساهُ ان يفكر الآخرون بهِ

قال سدني سمث : " انني كنت في غاية الجبن ولكنني ما أبطأت أن اكتشفت اكتشافين نافعين جداً : اولهما أن ليس كل الجنس البشري متفرّغاً لمراقبة حركاتي وسكناتي وثانيهما أنّ العالم ذو نظر ثاقب لا يلبث ان يقدرَ المرءَ حقّ قَدْرِهِ . وهذا الذي شفاني "

ومن الشقاء ان يظهر المرء في الحياة كانما هو موضوعٌ ضمن صندوق من الصفيح مع انهُ في حقيقة الامر مملوءٌ شفقةً وحناناً على اخوانهِ في البشرية . فالاشخاص الجبناء هم دائماً قليلو الثقة بانفسهم وبمقدرتهم ويحسبون نقص ثقتهم هذا ضعفاً منهم أو نقص مهارة في حين انهُ ربما كان دليلاً على عكس ذلك تماماً . ويمكننا ان نتغلّب على هذا الجبن والحياء بتعليمنا الأولادَ منذ حداثتهم فنونَ الحياة الاجتماعية كالملاكمة وركوب الخيل والرقص والخطابة وما شاكل ذلك

ومن كان من طبعهِ الحياء عليهِ ان يلبس ملابس حسنةً . فان الملابس الحسنة تُسهل عليهِ التصرُّفَ وتحلُّ عقدة لسانهِ وتكسبهُ ظرفاً وطلاقةً لا يقدر الدين نفسهُ

(1) كاتب وسياسيّ انكليزيّ شهير (١٦٧٢–١٧١٩) (2) اشهر شاعر روائيّ انكليزيّ تعدّ رواياته من افضل ما أنتجتهُ القرائح من نوعها كروميو وجوليت وهملت واوتلو ومكبث وغيرها وبعضها قد نقل الى العربية (١٥٦٤–١٦١٦)

ان يوليه اياها في حين ان ردآءة ملابسهِ تجعله مقيَّدًا. ولما كان الإغرابُ في الملابس يُلفت الانظار يجدرُ تحاشي الالوان البرّاقة والازياء المتطرفة والاكتفاء من ذلك بما هو كاملٌ مناسبٌ نسيجهُ من الجودة على مقدار ما تسمح ذات اليد

وجمالُ الملابس امرٌ حسن ولْيهزأ بهذا الكلام من شاء. ولكنهُ جمالٌ أدنى لا ينبغي ان يُضحّى في سبيلهِ بالجمال الأعلى والذين يميلون الى التأنق في الملابس ويخرجون بذلك عن الحد الواجب انما هم الذين يخصصون لهذا الشأن اول افكارهم أو افضل اوقاتهم او كل ما لهم، او يهملون لاجلهِ تهذيب العقل او القلب او مطالب الاشخاص الذين يخدمونهم، والذين هم بملابسهم أشدُّ اهتمامًا منهم باخلاقهم، يُزعجهم أن لا يكون ثوبهم على آخر زيٍّ اكثر مما يزعجهم عدمُ القيام بواجبٍ من الواجبات

ولما انتُخب حزقيال هويتمان وهو من كبار رجال القانون عضوًا للمجلس الاشتراعي في ولاية ما ساشوست جاء من مزرعتهِ الى مدينة بوسطن وهو مرتدٍ ثياب فلاّح وذهب توًّا الى احد الفنادق. فدخل البهوَ وجلس وكان هنالك بعض السادة والسيدات فجعلوا يتحادثون بعضهم مع بعض قائلين: "لقد جاءنا اليوم فلاّحٌ وطنيٌّ حقيقيٌّ وهذا من المضحكات." ثم اخذوا يوجهون اليهِ انواعًا من الاسئلة والاستفهامات بقصد الهزء بهِ. فوقف وقال لهم: "ايها السيدات والسادة، انني اتمنى لكم العافية والسعادة وأسأل الله ان يجعلكم في السنين القادمة أفضل وأعقل ويرسخ في اذهانكم أن المظاهر الخارجة غرّارة. فانتم قد نظرتم الى ثوبي وحكمتم عليَّ بوجههِ اني فلاّحٌ مغفَّل وانا ايضًا كنت قد نظرت اليكم النّظرة السطحيّة نفسها وحسبتكم سيدات وسادة، فالخطأُ اذًا قد كان متبادلاً." وما كاد ينهي كلامهُ حتى دخل حاكم المدينة كالب سترونغ ودعا اليهِ المستر هويتمان. فالتفت هذا عندئذٍ نحو الحاضرين وقال لهم وقد تولاّهم الخجل الشديد: "انني اتمنى لكم مساءً سعيدًا"

وقال جونسون: ان التجمّلات الخارجيّة تكسبنا احترامًا أوفرَ في المجتمع المتمدن، فمن عليهِ دثارٌ نفيس يُستقبل استقبالاً افضل ممن يلبس دثارًا رديئًا

ولا يسعُ الانسان الاّ أن يشعر بان الله يحبُّ الجمال . فانهُ عزّ وجلّ قد كسا جميع مصنوعاتهِ باثواب البهاء والجلال . فما من زهرة الاّ وهي بارزةٌ في ثوب أنيق ، وما من حقل الاّ وهو محمرٌ تحت ردائهِ بديع ،وما من نجمة الاّ وعليها برقع من اللمعان، وما من طائر الاّ وهو يرفل(١) بمطارف(٢) هي غايةٌ في الرونق والظرف

وبعض الناس يعدُّون التحلي بالآداب واللطف ضربًا من التصنع . فمن رأْيهم ان ينال المرء الاعجاب لاجل اخلاقهِ القويةِ المتينة الكاملة الباقية على خشونتها . وما مثلهم الاّ مَثَل من يفضّل المنازل المُربعة الكاملة الغير المزخرفة المبنيّة من صخور مربعة . على أنّ ما في كنيسة القديس بطرس من الاعمدة الأنيقة والحنايا الفخمة والمرمر المنقوش والمدهون بألوان فريدة لم يجعلها أضعفَ بناء ولا أقلّ قوةً ومتانةً

وآدابُنا كاخلاقنا هي دائمًا تحت محكّ النقد . فكلما دخلنا مجتمعًا من المجتمعات علينا ان نقف على آراء كل شخص فينا لان الناس يلاحظون بانتباه كلَّ نقصٍ او زيادةٍ فينا عما عهدوه بنا لآخر مرة وكلٌّ منهم يتساءل في باطنهِ : "هل هذا الشخص آخذٌ في الترقي او الانحطاط؟ وما هي الدرجات التي اجتازها ؟" مثلاً دخل الشاب برون قاعةً فجعل الحاضرون يزِنونهُ بمعيار حكمهم ويقولون بصمت : "ان هذا الشاب آخذ في التقدم فهو قد صار أشدَّ تحفُّظًا وتفكيرًا وأدبًا وتبصُّرًا واستقامةً واجتهـــادًا" وينظرون الى الشاب جونس الواقف بجانبهِ ويقولون انهُ يتأخّر بسرعة فهو عادم التحفُّظ والمبالاة فظٌّ لا يحدق فيك بعينيك خسيس شحيح يلطم الخَدم وهو مع ذلك مفرط في التأدُّب مع الغرباء

وهكذا نسير في الحياة حاملين هذه العناوين الغير المنظورة التي يعلقها علينا كلُّ الذين يعرفوننا . ويا حبذا لو كان كلٌّ منا يقدر ان يقف على آراء الآخرين فيهِ . وليس في وسعنا ان نخدع العالم طويلاً لان شخصنا الثاني المستتر في داخل نفوسنا والحامل ميزان العدل ينِمُّ علينا ويندفع الى عيوننا ويبرُزُ في تصرُّفاتنا ويكشف سرَّنا

(١) يجرّ ذيلهُ ويتبختر (٢) أَردية من خزّ مربّعة ذوات اعلام

"وقد قال الامام علي : ما أضمر احدٌ شيئًا إلاّ ظهَر في فلتات لسانهِ وعلى صفحات وجهِهِ

على ان التأدُّب ، مع كونهِ رداءَ الرجل الفاضل ليس من شأنهِ ان يُعيّن اخلاق المرء تعيينًا فاصلاً . فالتأدُّب الظاهريُّ المجرّد لا يمكن ان يقوم مقام السموّ الأدبيّ ، كما ان قشرة السنديانة لا يمكنها ان تحلَّ محلَّ لُبّها . فهي تدلُّ على نوع الخشب الذي تحتها ولكنها لا تفيد أسليمٌ هو ام بالٍ . فآداب الاجتماعات ليست الاّ نائبةً عن الآداب الصحيحة وكثيرًا ما تكون تقليدًا مزوّرًا لها

والإخلاص هو الصفة العليا من الآداب الصحيحة

والوصفة الآتية مفيدةٌ للذين يودّون الحصول على الآداب الصحيحة :

ثلاثة دراهم من عدم محبة الذات

اوقية من صبغة الابتهاج

ثلاثة دراهم من راحة القلب

اربع اواق من خلاصة وردة شارون

ثلاثة دراهم من زيت الشفقة

اوقية من منقوع حسن الذوق واللباقة

اوقيتان من روح المحبة

وهذا المزيج يجب ان يتناوله المرء كلما رأى اقلَّ علامة لحب الذات او الاستئثار او الخسّة او تفضيل الشخص نفسهُ على الآخرين

والأنموذج مأخوذٌ عن ذلك الذي وضع القاعدة الذهبية وكان اول اديبٍ حقيقيٍّ أقلّتهُ هذه الغبراء

الفصل التاسع

انتصارات الحماسة

ان اللذّة في العمل تعالج المشقّة — شكسبير

ان البرهان القاطع الوحيد على كون المرء مخلصاً لمبدإٍ ما هو بذلهُ نفسهُ لهُ . فان الكلام والمال وسائر الاشياء هي مما يسهل بذلهُ . وأمّا أن يهب المرء حياتهُ اليومية ومواظبتهُ فذلك دليلٌ على ان الحقيقة قد تملكتهُ مهما كان الموضوع الذي هو منصرفٌ اليهِ — لويل

لنحذَر ان نفقد حماستنا . ولنجعل شيئاً من الاشياء موضوع فخرٍ لنا ، ولنحصر اعجابنا في كل ما يشرّف حياتنا ، واهتمامنا في كل ما يزيّنها ويجمّلها — فيلبس بروكس

في معرض الفنون الجميلة في باريس تمثالٌ بديعٌ كان صاحب الفكرة فيهِ نقّاشٌ في حالة شديدةٍ من الفقر يعيش ويعمل في غرفة صغيرة . واتفق لهُ بعد أن صنع نموذجاً لذلك التمثال من الطين أن حدث ذات مساءٍ في المدينة صقيعٌ شديد فخشي ان يتجمّد الماء بين شقوق الطين في الانموذج فتتموّج خطوطهُ الجميلة فلفّهُ بملحفتهِ وملاآت فراشهِ. وفي الصباح وجد النقّاش ميتاً الاّ أن فكرتهُ نجت وجاءَ بعدهُ من أفرغها في شكل ثابت من المرمر

وقد وقال هنري كلاي: لا أدري كيف تكون حالة الاخرين حين يتكلمون في

موضوع هامّ . أما انا ففي مثل هذه الحالة أنسى العالم الخارجي بتاتًا و يستغرق الموضوع الذي أبحث فيهِ كلّ افكاري وأفقد كلّ شعورٍ بذاتيتي وبالوقت والاشياء المحيطة بي

وقال مالي شهير : " لا يُدرك مصرفٌ من المصارف شأوًا بعيدًا من النجاح حتى يتولّى إدارتهُ رئيس يأخذهُ معهُ الى فراشهِ ." وذلك لان الحماسة تكسب الموضوع الذي هو بدونها جافّ وعادم الطلاوة معنًى جديدًا

وكما ان الشابّ المغرم يصير ذا شعور أرقّ ونظر أحدّ يرى في محبوبهِ مئاتٍ من الفضائل والمحاسن لا تراها عيون الآخرين هكذا الرجل المتأجّجة (١) في صدرهِ نار الحماسة يقوى تصوُّرهُ وتتجسم الاشياء في مخيلتهِ حتى يرى في موضوع اهتمامهِ جمالاً ومحاسن لا يفقهها (٢) الآخرون وذلك يعوضهُ عمّا يقاسيهِ من العناء والحرمان والمشاقّ ومن الاضطهاد احيانًا . قال ديكنس ان اشخاص رواياتهِ وحوادثها كانت تطاردهُ وتأسر افكارهُ ولا تفسح لهُ مجالاً للنوم او الراحة حتى يُودِعها بطون الاوراق . وقد انفرد في غرفتهِ مرة حين كتابتهِ مسوّدة احدى الروايات واقفل بابهُ وظلّ فيها مدة شهر فلما خرج منها كان منظرهُ شاحبًا (٣) كمنظر قاتل . فاشخاص رواياتهِ كانت تطاردهُ ليلاً ونهارًا

وكان غلامٌ في الثانية عشرة من عمرهِ يُجيد الضربَ على البيانو إجادة مذكورة فقال لموزار : اودّ يا سيدي الاستاذ ان أُؤلّف انغامًا فكيف أبدأ . فاجابهُ موزار : عليك بالانتظار . فقال الغلام : إنك لما بدأت في التأليف كنت أحدث مني سنًا . فقال لهُ : نعم يا بنيّ ولكنني لم اسأل احدًا عن شيء ما يتعلق بذلك . فمن كانت لهُ موهبةُ الاستنباط والوضع فهو يؤلف لانهُ لا يتمالك عن ان يفعل ذلك

وقد قال غلادستون : ان خير ما يُتمنّى هو إيقادُ الجُذوة (٤) الكامنة في صدر كل غلام . فان في كلّ غلامٍ ، من بعض الوجوه وعلى درجة ما ، مقدرة على عملٍ نافع في هذا الكون . وذلك يشملُ كلّ الفتيان ولا ينحصر في الذين هم اذكياء او

(١) الملتهبة (٢) يفهمها (٣) متغيرًا من هزال ونحوهِ (٤) الجمرة

خفيفو الحركة بل يتناول ايضًا من هم أغبياء او بلداء او يظهر امهم بلداء. فاذا غرس فيهم حسن الارادة فان ما فيهم من البلادة يتناقص يومًا فيومًا ولا يلبث أن يتلاشى تمامًا تحت تأثير حسن الارادة

وان الآنسة جرستر وهي فتاة هنغارية مجهولة قد ضمنت لنفسها الشهرة والنجاح منذ اول ليلة برزت فيها على ملعب الاوبرا . فقد خلبت عقول الحاضرين بتحمسها، وفي اقل من اسبوع اصبحت معروفة ومستقلة . فقد كان النجاح أمنيتها الوحيدة وقد صرفت كل قوى قلبها وعقلها نحو الإتقان والتقدم

وكل ما أبرز من الاعمال الفنية النفيسة فقد أبرز في أوقات ثمل[1] فيها رجال الفن بهوى الجمال واستولت عليهم سورة[2] لم تدعهم يأخذون لانفسهم راحة حتى يفرغوا افكارهم في المرمر او على النسيج

وقد قالت الآنسة مالبران لناقد كان يظهر اعجابه بنغم وضعته: "انني قد تعبت في استنباط هذا النغم تعبًا شديدًا . فقد ظللت مدة شهر كامل أفكر به ولا يغيب عن مخيلتي اينما كنت، حتى اثناء لبسي او تسريحي شعري، الى ان وجدته اخيرًا من نقرة اصبع قدمي بينما كنت ألبس حذائي"

قال امرسون: ان كل موقف عظيم فاصل في تاريخ العالم انما هو انتصارُ ضربٍ من ضروب الحماسة . وانتصاراتُ العرب بعد النبي محمد شاهدٌ على ذلك . فهم قد اسسوا امبراطورية اعظم من امبراطورية الرومان من شيء وضيع صغير. وقد عملوا دون ان يعلموا ما يعملون . وكانت عُدَدهم وأطعمتهم على أسوإ حال ولكنهم كانوا ممتازين باعتدالهم معتادين شظف العيش لا يحتاجون الى "البرندي" ولا الى اللحم لتغذيتهم . وفي امدٍ قصير استولوا على آسيا وافريقيا واسبانيا . ولقد كانت عصا الخليفة عمر بن الخطاب توقع الرعب في القلوب اكثر ما يفعله سيفُ أيّ رجل آخر وان الحماسة هي التي مكّنت نبوليون ان يُنهي في اسبوعين حربًا لم يكن غيرهُ

(١) سكر (٢) حدة

استطيع ان ينجزها في سنة . فانه في حرب ايطاليا الاولى قد أحرز في خمسة عشر يومًا ستة انتصارات وغنم احدى وعشرين راية وخمسة وخمسين مدفعًا واسر خمسة عشر الف جندي واستولى على البيامونتي حتى قال النمساويون حائرين : "ان هؤلاء الفرنسيين ليسوا بشرًا لانهم يطيرون". وقال احد القواد النمساويين الذين هزموا : "ان هذا القائد الشاب لا يعرف شيئًا من فنون الحرب وهو على جانب عظيم من الغباوة فلا سبيل لعمل شيء معهُ." ولكن الجنود الفرنسية كانت تتبع "كابورالها الصغير" بحماسة لا تعرف للهزيمة او النكبة معنًى

وقال بوبد : ان هنالك حالات يكون فيها الفرق بين ان يعمل المرء من كل قلبهِ وأن لا يعمل من كل قلبهِ هو المحدث الحقيقي للفرق بين الانكسار الظاهر والانتصار الباهر

وقد قال الاميرال نلسن في احد مواقفهِ الحَرِجة : انني لو متُّ في هذه الدقيقة لوُجدت الحاجة الى بوارج محفورةً على قلبي

وعذراء اورليان [1] الساذجة النقية بسيفها المُقدَّس ورايتها الدينية ويقينها بصحَّة دعوتها قد أرسلت هزَّة تحمُّسٍ في الجيش الفرنسيّ كلّهِ ما لم يكن ليستطيع إحداثهُ ملكٌ ولا سياسيٌّ. وغيرتها قد جرفت كل شيء امامها . فما أعظم العمل الذي يقدر ان يتمهُ كلٌّ منا في هذا العالم لو عرف حقيقة مقدرتهِ . ولكن الانسان كالفرس الملجم لا يعرف مقدرتهُ الاَّ بعد ان يُضيّع حياتهُ

وعلى قبر خريسطوفور فران في لندن نقرأ الكتابة الآتية : "هنا يضجع خريسطوفور فران باني هذه الكنيسة وهذه المدينة الذي عاش ما ينيف عن تسعين سنة لا لنفسهِ بل للمصلحة العامة. فاذا كنت ايها القارئ تبحث عن بناياتهِ فالتفت في ما

(١) هي جان دارك الفرنسية الباسلة وخبرها مشهورٌ بالرؤيا التي رأتها وتوليها قيادة جيش لطرد الانكليز من فرنسا في عهد الملك شارل السابع وقد انتصرت انتصارات عديدة الى ان غلبت على امرها اخيرًا وقبض عليها الانكليز وأحرقوها حيَّة (١٤١٢–١٤٣١)

حولك." وفي الواقع انك أنىّ التفتّ في لندن لاتجد الأبنايات جليلة خطّطها ذلك الرجل الذي لم يتلقّ العلم على مهندسٍ قط. فقد بنى في تلك العاصمة خمسًا وخمسين كنيسة وستًا وثلاثين قاعة. ولمازار باريس ليقتبس بعض افكار يستعين بها في ترميم كاندرائية القديس بولس في لندن قال: "أوَدّ ان ابذل حياتي للحصول على الرسم الذي وضعهُ مهندس اللوفر(١)". وتظهر مهارتهُ بأتمّ جلاء في قصور هامبتون وكنسنتون وفي هيكل بار وملعب درورى لاين والبورصة الملكية والبناية العظمى. وقد حوّل قصر غرينوبش الى نادٍ للملاحين وشيّد كنائس وكليات في اكسفورد. ووضع رسماً لترميم لندن بعد الحريق العظيم الذي أُصيبت بهِ ولكنّ الناهضين على ازمة الامور يومئذٍ لم يشاؤُوا ان يتبعوا خطّتهُ البديعة. وقضى خمسةً وثلاثين عامًا في بناء كاندرائية القديس بولس وهي أفضلُ ما ظهرَ فيهِ حذقهُ. ومع انهُ عمّر طويلاً وقد ظل متمتعاً بعافيتهِ التامة حتى اواخر ايامهِ قد كان مزاجهُ لطيفًا جدًا حتى كان موضوع قلق دائمٍ لأُسرتهِ. وحماستهُ الشديدة وحدها هي التي كانت تكسب جسمهُ قوةً ونشاطًا

وعدمُ المبالاة لا يقودُ الجيوش الفاتحة ولا يحفر التماثيل الخالدة ولا يجيء بالموسيقى السامية ولا يُسَخّر قوات الطبيعة، ولا يُهندس الابنية الأنيقة، ولا يحرّك النفس للشعر، ولا يدفع البشريّة الى المآتي الخيريّة المملوّة بسالةً. اما الحماسة فيقال فيها ما قالهُ تشارلس بلّ عن اليد من انها هي التي اصطنعت تمثال ممنون(٢) وعلّقت ابواب ثيبة النحاسيّة(٣) وركزت إبرة الملاح المرتجفة على محورها، وحرّكت آلة الطباعة، وفتحت الانابيب لغاليلو حتى مرّ عالمٌ بعد عالمٍ امام بصرهِ، وطوت شراع الصاري الاكبر الذي

(١) هو قصر ملوك فرنسا قديمًا وقد حوّل الآن الى متحف (٢) هو تمثال أُقيم في ضواحي مدينة ثيبة وفي الاساطير اليونانية انهُ تمثال ممنون احد آلهتهم الخرافية والدهُ تيتون وأُمّهُ الفجر. اما في الحقيقة فيظهر انهُ تمثال أمنحوتب الثالث أحد فراعنة مصر. وقد كان هذا التمثال عندما تقع عليهِ أشعة الشمس تنبعث منهُ رنّات موسيقيّة (٣) هي احدى مدائن مصر القديمة حيث تقوم الآن اطلال الكرنك والأقصر وقد كان لها مئة باب

كان يخفق فوق رأس كولمبس بنسمات الصباح في باهاماس . وهي التي قبضت على السيف الذي حاربت بهِ الحريةٌ حروبها ,وحملت الفأس الذي استعملهُ قطَّاع الحطب الجسور لفتح طُرَق المدنيَّة ,وقلَّبت الاوراق السريَّة التي كان يخطُّ عليها ملتون وشكسبير افكارها الملتهبة

قال هوراس غربلي : ان خير نتاج العمل هو العامل السامي العقل المُتحمِّس في شغلهِ

وقال سلفيني : ان افضل الاساليب هو ما حصل عن طريق التحمُّس . فاذا استطعت ان تحمل الناس على الاقتناع بانك شاعرٌ بما تقولهُ فانهم يغتفرون لك كثيرًا من الزلّات . ثمَّ الدرسَ الدرسَ الـــدرسَ. فكل ما في العالم من ذكاء لا يُجديك نفعًا في اي فنٍّ من الفنون ما لم تواظب على الدرس بنشاط . وانني قد واصلت الدرس سنين بتمامها حتى احرزت شطرًا من العلم فقط

وإن هنالك امرًا خاصًّا بطبيعة الاميركان وحياتهم وهو نوع من الغيرة والتحمُّس يكاد يكون ضربًا من التعصُّب عند المرء لافكارهِ ودعوتهِ . وهذا ما لا ترى لهُ اثرًا في الاقاليم الحارَّة بل انهُ لم يكن معروفًا منذ خمسين سنة حتى انك لم تكن تجدهُ في ذلك الحين في بورصة لندن نفسها. أما اليوم فانهُ اذا كان شخصٌ يريد النجاح في الولايات المتحدة او اوستراليا فعليهِ ان يثب بكل ما في جسمهِ من الحرارة والنشاط. وقد ساعد نفوذُ الولايات المتحدة على نشر هذا الروح حتى انهُ بعد أن كان صفةً خاصةً لعدد قليل من ارباب العقول الكبيرة قد أصبح من أهمّ مُميّزات الشعوب الرئيسية في الدنيا . فالحماسة هي ان يكون المرء مستيقظًا يصرُّ كل عصبٍ من اعصابهِ لإتمام العمل الذي يودّهُ قلبهُ. والحماسة هي التي حملت ڤيكتور هيغو [1] على ان

(١) هو أشهر شعراء الفرنسيين في القرن التاسع عشر من رواياتهِ القصصية البؤساء ونوتردام دي باريس ومن رواياتهِ التمثيلية هرناني وكرومويل والملك يتلهى ولهُ مؤلفات عديدة اجتماعية وغيرها ودواوين شعريَّة نفيسة (١٨٠٢-١٨٨٥)

يحبي ثيابه في خزانة محكمة الإقفال اثناء شروعه في تأليف روايته (نوتردام) حتى لا يستطيع مغادرة العمل قبل إنجازه . وقد وصف هذه المزية الممثل الكبير غاريك[1] أحسن وصف حين سأله احد الوعاظ غير المفلحين عن سر نجاحه في التأثير على الجمهور فقال له : "انك تتكلم عن الحقائق الأبدية وما انت موقن بصحتها كما لو كنت مرتابًا في حقيقة ما تقوله في حين أني أتكلم عما اعرف انه غير صحيح كما لو كنت موقنًا بصحته كل الإيقان ."

وقد جاب ثلاثة من مراسلي بعض الجرائد الانكليزية العالم باسره وحادثوا كل جنس من اجناس البشر وبعد رجوعهم سُئلوا ان يكتب كل منهم على رقعة اسم ألطف شخص اجتمع به . ولما سئل الاول عن سبب اختياره من اختاره اجاب : ان هذا الرجل اذا دخل غرفة فكل من فيها يشعر كانه تناول دواء مقويًا وتجددت فيه الحياة . فهو حار نشيط ممتلئ سرورًا يشارك في العواطف باسرع من وميض البرق

وقال الثاني عمن اختاره : إنه يلقي نفسه في الحالة التي تعرض له مهما كانت بملء قلبه

وقال الثالث : إنه يجهد كل شيء على قدر الإمكان

ولما فُضّت اوراق الثلاثة وجد فيها اسم واحد وهو اسم تاجر شهير في ملبورن اوستراليا

وقالت مدام دي ستايل للمسيو مول : لولا احترامي لآراء الناس لما فتحت نافذتي لأرى منها خليج نابولي لاول مرة في حياتي في حين اني امشي عن طيبة خاطر مسافة خمس مئة فرسخ لمحادثة رجل نابغ لم أره بعد

والحماسة في روح سرية حسنة الإيقاع تحوم فوق منتجات القرائح ملقية مطالع

---

(1) ممثل انكليزي شهير (١٧١٦-١٧٧٩)

كتاب او مُشاهدَ تمثالٍ في حالةٍ من التصوُّرات مماثلة للحالة التي أُنشئ فيها ذلك الكتاب او التمثال

روى مترجم حياة بتهوفن(١) النادرةَ الآتيةَ عنهُ قال : كنت واياهُ ذاتَ ليلةٍ قمراءَ(٢) من ليالي الشتاء نتمشى في شارع ضيق من شوارع بلدة بون واذا بذلك الموسيقيّ العظيم وقف فجأةً امام منزل صغير حقير وصاح : ما هذا الصوت . انهُ من احدى اناشيدي . أصغِ فما ألطفَ هذا التوقيع !

وما لبث التوقيع ان انقطع فجأةً في منتصف الخاتمة وسُمع صوتٌ يقول بتنهد : "ليس في استطاعتي ان أُواصل التوقيع . فهذا النغم غاية في الإبداع وانني لا اقدر ان أُفيهِ حقهُ . ويا ليت لي ان اذهب الى كولونيا وأَسمع جوقات الموسيقيين فيها" ثم سُمع الجواب الآتي : "اواه يا شقيقتي لماذا تولّدين فينا الحسرات على ما لا سبيل لنا اليهِ وانّنا بالجهد نُحصّل ما ندفع بهِ اجرة مسكننا" فقال المتكلم الاول : "انك مصيبٌ ولكنني اتمنى ان أَسمع موسيقى حسنة حقيقةً ولو مرة في حياتي . لكن ما فائدة تمنيّ هذا"

فقال لي بتهوفن : "هلمَّ بنا ندخل" . فقلت معترضًا: "ولأيّ غرض ندخل" . أجاب بلهجة تهيج : "اريد ان أُوَقّع لها على البيانو . فانها ذات عواطف وموهبة وادراك . وسأوقع لها لانها تفهمني . فأْذن لي اذا" . ثم دَفعَ الباب ودخل فرأى شابًّا جالسًا بجانب منضدة يُصلح أحذيةً وفتاةً منحنية بكآبة على بيانو من طراز قديم فقال: "انني كنت مارًّا بالقرب من هذا البيت فسمعت موسيقى فحدَّثتني نفسي بأن ادخل . فانا رجل موسيقيٌّ وقد سمعت شيئًا مما قلتِهِ . وبما انكِ تتمنّين ان تسمعي هل تريدين ان أُوقع امامكِ"

فقال الاسكاف : "شكرًا لكَ ولكن البيانو التي لنا في حالة يرثى لها ولسنا من اهل الموسيقى"

---

(١) موسيقيٌّ الماني كبير أنغامهُ مشهورة في العالم بأسرهِ (١٧٧٠-١٨٢٧)

(٢) يعني فيها القمر

فصاح الموسيقيّ : لستم من اهل الموسيقى ولكن السيدة – ثم اردف متمتماً وقد لاحظ ان الابنة عمياء : أسألك الصفح فانني لم ألاحظ من قبل . فاذاً انتِ توقعين عن سماعٍ . لكن اين تسمعين الموسيقى ما دمتِ لا تزورين الأندية الموسيقية ؟

فاجابت : " اننا قضينا سنتين في بلدة بروهل وكان بجوارنا سيدةٌ تتمرّن على التوقيع وكانت في ليالي الصيف تدع نوافذها مفتوحةً فكنت امشي على الطريق ذهاباً واياباً مصغيةً اليها "

فجلس بتهوفن بجانب البيانو وشرع يُوَقّع . وانني لم أرَهُ في طول السنين التي رافقتهُ فيها يجيد في التوقيع إجادتَهُ امام تلك الابنة العمياء واخيها . وكأن الآلة القديمة ايضًا حلّ عليها الإلهام . اما الشابُ والابنة فجلسا كأنهما مأخوذان بالانغام السحرية العذبة المتصاعدة في الهواء بامتدادٍ وإيقاعٍ متوازنين الى أن ارتجف لهب المصباح الوحيد الذي في الغرفة وانطفأ وكانت دفّات النافذة قد فتحت وأفسحت مجالاً لدخول نور القمر المتألّق فتوقف الموسيقيّ وقد لاح عليه انهُ مستغرقٌ في التفكير

فقال الاسكاف بصوتٍ خافتٍ : لله درُّك من رجلٍ عجيب . من أنت وما تكون ؟

فقال له الموسيقي : " أصغ " . ثم وقّع المقاطع الأولى من الانشودة نفسها . فصاح الشاب والفتاة مهللين : " انت اذاً بتهوفن " . أمّا هو فنهض مريداً الخروج فجعلا يتوسلان اليه بان يزيدهما

فقال وهو يتأمّل في النجوم المتلألئة في اعالي السماء الصافية . " انني سأرتجل أنشودةً في ضوء القمر " ثم اندفع يُوقّع نغمةً شجيةً تسلب الفؤاد هبطت على الآلة بلطف كما يهبط سيلُ أشعة القمر الهادئُ على الارض وأتبعها بفقرة وحشيةٍ جافية كرّرها ثلاثًا وهي عبارة عن فقرة معترضة غريبة أشبهَ برقص الجنيّات على المرج ثم جاء بخاتمة محرّكة بخفّةٍ وهي نغمةٌ مرتجفة مستعجلة تمثل الفرار والشك والذُعر حملتنا

على أجفنها الخفّاقة وتركتنا جميعًا في حالة التأثر والاستغراب. وبعد ان انهاها وثب متجهًا نحو الباب وقال: "استودعكم الله" فصاح الشاب والفتاة في وقتٍ معًا: "هل تعود الينا" فاجاب على الفور: نعم سأعود وألقّن الفتاة بعض الدروس." ثم قال لي مردفًا: "لنعجّل في العودة حتى أدوّن هذه الأنشودة قبل أن تفلت من ذاكرتي".
فرجعنا مسرعين ولم ينهض عن منضدته الاّ طلوعَ الفجر بعد ان دوّن أنشودته عن ضوء القمر بتمامها

وقد درس ميخائيل انجلو[1] علم التشريح اثنتي عشرة سنةً حتى كاد يُتلف صحته ولكن هذا قرّر أسلوبَهُ وعملهُ ومجدَهُ. فكان يرسم صُوَرهُ اولاً هياكلَ عظميّةً ثم يضيف اليها العضلات والشحم والجلد بالتتابع ثم يجلّلها بالستور. وكان يصطنع بنفسهِ كل الآلات التي يستعملها في النقش كالمبارد والأزاميل والملاقط ويهيئ الالوانهُ الخاصة في التصوير بنفسهِ حتى انهُ لم يكن يدع خدمهُ او تلامذتهُ يمزجونها

وحماسة رافائيل[2] قد أوحت الإبداع الى كل رجال الفنّ في ايطاليا وقد كان سلوكهُ اللطيف المحتشم ينزع كل غيرة وحسد. وقد دُعي بالرجل الممتاز الذي عاش ومات دون ان يكون له عدوٌّ او واشٍ

وبنيان المسكين كاد يحصل على حُريّتهِ مرارًا. ولكنهُ لم يكن ليثنيهِ شيءٌ عن الوعظ في المجتمعات العامة، لا افتراقُهُ عن ابنتهِ العمياء المسكينة ماري وقد كان يشبهّهُ بنزع اللحم عن عظامهِ، ولا حاجةُ أُسرتهِ بائسةٍ مفتقرة إلى ان يعولها، ولا حبُّ الحرية، ولا باعثُ الطمع. وكان قد نسي ما تعلمهُ في زمن حداثتهِ فاضطرت امرأتهُ ان تعلمهُ القراءة والكتابة ثانيةً. ولكنَّ تنكاريَّ[3] بدفورد هذا الوضيع الأميَّ المحتقر

(١) مصور ونقاش ومهندس ايطاليّ يعدّ من اعظم رجال الفنّ الذين نبغوا في العالم (١٤٧٥–١٥٦٤) (٢) مصوّر ونقاش ومهندس ايطالي من طبقة ميخائيل انجلو وليونارد دي فنسي (١٤٨٣–١٥٢٠) (٣) هو المشتغل بالتنكار وهو ضربٌ من الملح البورقيّ او المعدنيّ يعين على سبك الذهب والنحاس والعامة تقول سنكريّ

قد حملهُ تحمسهُ في اعتقادهِ على إنشاء كتابهِ الرمزيّ الخالد الذي طالعهُ عالمٌ باسرهِ لِمَا تضمنّهُ من الاقوال البديعة

فما يُضرِمُ النارَ الخامدة في صدر الإنسان إلاَّ الافكارُ المسبوكةُ في الفاظ وجُملٍ متوقّدة

واننا نرى في ما عملهُ فرنسيس باركان المتوفَّى خيرَ مثالٍ للتجرُّد النادر في سبيل مشروعٍ عظيم . فان هذا الرجل نوى منذ كان طالبًا في جامعة هارفرد ان يضع تاريخًا للافرنسيين والانكليز في اميركا الشمالية . فوقف حياتهُ ومالهُ على هذا الغرض بثباتٍ وتفانٍ نادريّ المثال . ومع انهُ جمع الموادّ لتاريخهِ اثناء وجوده بين هنود داكوتا ونهَكَ جسمهُ حتى ظل مدة خمسين سنة لا يستطيع استعمال عينيهِ بتواصل اكثر من خمس دقائق لم ينحرف قيد شعرةٍ عن الغرض الأسمى الذي وضعهُ نصب عينيهِ منذ صباهُ وما زال هذا حالهُ حتى ابرز للعالم افضل تاريخ كُتب في هذا الموضوع

و يؤْثر عن لنكلن أنَّهُ مشى مسافة ستة اميال لاستعارة كتاب غراماطيق و بعد ان عاد بذخيرتهِ الثمينة الى البيت اخذ يُشعل قِطَعَ تجارة واحدةً بعد واحدةٍ حتى طالعهُ بتمامهِ

وجلبرت بيكت احد الصليبيين الانكليز وقع اسيرًا في قبضة الاعداء وصار عبدًا في قصر احد امراء الشرق حيث لم يكتسب ثقة سيدهِ فقط بل فُتِنَتْ بهواه ابنة سيده ايضًا . وقد تمكن بالتدريج من الفرار والعودة الى انكلترا ولكنَّ الفتاة التي تملَّكها حبهُ عزمت على اللحاق بهِ ولم تكن تعرف من الانكليزية الاَّ كلمتين وهما : لندن وجيلبرت . فبتكريرها الكلمة الاولى وجدت مركبًا مسافرًا الى تلك المدينة العظيمة فأبحرَتْ فيهِ ولما بلغتها اخذت تطوف منها شارعًا بعد شارع وهي تكرر الكلمة الثانية . فوصلت اخيرًا الى الشارع الذي يقيم فيهِ جيلبرت بسعة ورخاء . فكان أنَّ جيلبرت وأُسرتهُ كلها نهضوا الى النافذة لرؤْية الازدحام الغير الاعتيادي ومعرفة سببهِ فرآها

وعرفها واسرع وضمّها بين ذراعيهِ وجاء بها الى منزلهِ

و إنّ خير ما في الشباب من المحاسن حماستهُ الشديدة الغليان . فالشباب لا يرى امامهُ ظلمةً ، ولا مأزقًا بدون منفذ ، ويتمنى ان في العالم شيئًا اسمهُ الفشل ، ويعتقد ان الجنس البشريّ قد ظلّ انتظارهِ كل هذه العصور الطوال ليجيء ويكون منقذًا للحقيقة والقوة والجمال

فاذا أراد منعُ الغلام هندل عن ان يمسّ آلةً من آلات الموسيقى او ان يذهب الى المدرسة خشيةً من ان يتعلّم فيها سُلّم الالحان فانهُ كان يتمرّن خِلسةً عند منتصف الليل على قيثارة قديمة خرساء في علّيّة سريّة . والغلام باش رفض ذووه اعطاءهُ مصباحًا لينسخ على نورهِ كتبًا يدرسها فجعل ينسخها ليلاً على ضوء القمر . ثم انهم انتزعوا منهُ تلك النسخ فلم ييأس . والمصوّر غاربت بدأ تمرّنهُ على التصوير في علّيّة صغيرة وسرق هرّة البيت ليصطنع من شعرها منافض (فُرشات)

وحماسةُ الشباب وحدها تذلّل المصاعب الجسيمة التي لا يقوى الدهر على تذليلها . قال شارلس كنسلي : ان الناس يسمون لحماسة الشباب وهي الحماسة التي ينظرون اليها خاصةً متحسّرين آسفين ولعلهم غير عالمين انهم اذا كانوا قد فقدوها فان قسماً من التبعة في ذلك واقعٌ عليهم

وكم العالم مَدِينٌ لحماسة دانتي

وقد وضع تنيسون[1] مجلّدهُ الاول وهو في الثامنة عشرة وأحرز مدالية من جامعة كمبردج في التاسعة عشرة

قال رسكن : ان أبدع الآثار الفنيّة انما اصطُنعت في سنّ الشباب . وقال دزرائيلي : " ان كلّ شيء عظيم هو من صُنع الشباب " . وقال الدكتور ترامبول : " ان مصالح العالم هي بعد الله في أيدي الشبّان "

---

(١) شاعر انكليزي وُلد سنة ١٨٠٩

فقيل له: "هؤلاء هم الاثنا عشر رسولاً". فقال: "أنزلوهم واسبكوهم نقودًا ودعوهم يطوفون صانعين خيرًا كما فعل معلمهم"

وقال احد الطلبة في جامعة برون: "انني لا أرى في امثال سليمان حكمة عظيمة جدًا. وفي استطاعتي ان أضع امثالاً تضاهيها" فقال له ويلاند رئيس الجامعة: "هاتِ لنا اذًا مثلين صباح غد". فلم يأتِ بشيء

وأرسل احد فروع جمعية الشبان المسيحيين في احدى مدن الغرب برقية الى هنري ورد بتشر هذا نصها: "هل تريد ان تخطب بيننا حبًا للشهرة". فاجاب ذلك الواعظ الشابُّ النبيه كما يأتي: "بشرط ان تقدموا لي خمسين دولارًا ونفقاتي"

وذكر مونتاني ان احد الملوك تُوُفِّيَ ابنه الوحيد فجأة فأمر بالغاء الدين المسيحي من مملكتهِ مدة اسبوعين إعلانًا لسخطهِ على العزة الالهية

ونسبة الدهاء أو صفة التمييز على البراعة والعبقرية ظاهرةٌ في كل مكان فان ولسون كان رجلاً أميًا وشارمان(١) لم يكن يحسن كتابة اسمهِ بطريقة مقروءة ولكنَّ هذين العظيمين كانا خبيرين في الاشخاص والاشياء حاصلين على الحكمة العملية والدهاء وهما الصفتان اللتان ما برحتا تدبران العالم

فالدهاء مثل الاسكندر يقطع العقد(٢) التي لا يستطيع أحدٌ حلها ويفوز فوزانه

(١) هو ملك الافرنك امتدت سلطنته من بحر الشمال الى الخليج الاطلانتكي ومن بوهيميا الى جبال البيرينه وقد قام بحروب عظيمة حالفه فيها النصر وا[illegible] تنظيمه وادارته وقد توج امبراطورا للغرب وهو رأس الاسرة الكرلونجية (٧٤٢-٨١٤)

(٢) إشارة الى العقدة "الغوردية" التي قطعها الاسكندر وذلك ان ميداس ملك فريجية كان قد قدم الى هيكل جوبيتر في غورديوم المركبة التي أوصلته الى ذلك الهيكل وكان النير مربوطًا بجرّ المركبة بعقدة قد أُحكم ربطها بتفنن غريب بحيث لا يدرى اين طرفاها. وراجت من ثم نبوءة مؤدّاها ان الذي يتمكن من حلّ هذه العقدة يتسلط على آسيا بأسرها. فلما وصل الاسكندر الى ذلك الهيكل حاول مرارًا حلّ العقدة فلم ينجح فتناول سيفه وقطعها

ولوثر عُدَّ مصلحًا فائزًا وهو في الخامسة والعشرين . وقد قيل انهُ ما من شاعر انكليزيّ بلغ درجة شاترتون وهو في الحادية والعشرين . وهو يتفلد ووسلي بدأا نهضتهما العظيمة وهما لا يزالان طالبين في جامعة اوكسفورد والاوّل قد جعل الناس يشعرُون بنفوذهِ في كل انكلترا قبل ان ناهز الرابعة والعشرين . وفكتور هيغو ألَّف مأساةً وهو في الخامسة عشرة وأحرَز ثلاث جوائز من النَّدوة العلميَّة ونال لقب استاذ قبل ان بلغ العشرين

"ونظم طَرَفة بن العبد معلَّقتهُ الخالدة وقصائده الشهيرة وقُتِل في السادسة والعشرين . ونظم امرؤُ القيس معلقتهُ التي ضُرِبت الامثال بشهرتها وهو في الحادية والعشرين . وقُتل عبدالله بن المقفع المنشئُ العربيّ الشهير في السادسة والثلاثين بعد ما أنشأ كتب الادب الصغير ورسالة الاخلاق والادب الكبير أو الدرَّة اليتيمة وترجم كتاب كليلة ودمنة الذي ضاع اصلهُ الهنديّ وتناقلهُ الافرنج عن ترجمتهِ العربية النادرة المثال

وقد قال الشاعر العربيّ

اذا بلغ الفتى عشرين عامًا وأعجزَهُ الفخَارُ فلا فخَارُ
اذا ما أوَّلُ الخطيِّ(١) أخطا فهل يُرجى بآخرهِ انتصارُ"

وكثيرون من كبار نوابغ العالم ماتوا قبل ان أدركوا الاربعين . ولم يمرَّ عصرٌ من العصور كانت فيهِ فُرَص النجاح سانحةً للشابّ المندفع بالحماسة كما هي في هذا العصر. فهذا عصر الشبّان والشابات . وحماستهم إكليلٌ لرأْسهم ينحني لديهِ الضعيف والخامل خاشعين

واذا كان الحماسة هذا الشأْنُ كلهُ في عهد الشباب فما يكون شأْنها وقوَّتها اذا

(١) الخطيّ هو الرمح نسبةً الى الخط وهو مرفأُ السفن بالبحرين تنسب اليهِ الرماح لانها تباع فيهِ

كانت مُرافقةً للشيخوخة. فغلادستون في سن الثمانين كان له عشرة اضعاف القوة والقيمة اللتين لشاب في الخامسة والعشرين برمي واياه الى أغراضٍ واحدةٍ. فمجدُ العمر انما هو مجدٌ لما في ذلك العمر من الحماسة . وما يُقدَّم من الاكرام للمشيب فانما يُقدَّم للقلب الحارّ الذي تحته على رغم التأثير المعاكس النّاجم عن ضعف الجسم. وما "الاوديسة" الانتاج قريحة شيخٍ اعمى ولكنَّ ذلك الشيخ هو هوميروس

والغيرة التي سرت بالعدْوى من رجلٍ شيخٍ هو بطرس الناسك قد حملت ابطال اوربا على التألب لمحاربة العرب

وقد انتصر دندولو دوج البندقية في عدة معارك وهو في الرابعة والتسعين ورَفَضَ تاجًا عُرِض عليهِ وهو في السادسة والتسعين . وكان ولنكتون[1] برسم خطط الاستحكامات ويُشارف[2] انشاءها وهو في الثمانين . وباكون وهمبولدت ظلاًّ يدرسان بجهدٍ حتى آخر رمقٍ . والشيخ الحكيم مونتانلي بقي له حذقهُ وحنوُّهُ بعد ان أدركَ من الكِبَر عِتيًّا حتى أثناء نُوَب النقرس والمغص التي كانت تُصيبهُ

والدكتور جونسون أَلّف أنفس كتابٍ له وهو "حياة الشعرآء" وهو في الثامنة والسبعين . وكان ديفو في الثامنة والخمسين عندما أنشأ قصة "روبنصن كروزي" ووضع نيوتن مختصرًا جديدًا لكتابهِ "برنسيبيا" وهو في الثالثة والثمانين . وتوفي افلاطون[3] في الحادية والثمانين وهو يكتب. وتوما سكوت شرع بدرس العبرانية وهو في السادسة والثمانين . وكتب غاليلو عن نواميس الحركة عندما ناهز السبعين . وجيمس وط تعلَّم الجرمانية وهو في الخامسة والثمانين . ومسز سمرفيل انجزت مؤلَّفها عن "علم الدقائق والذرّات الجوهريّة" وهي في التاسعة والثمانين . وهمبولدت[4]

---

(١) قائد انكليزيّ انتصر على نبوليون في معركة وترلو (١٧٦٩-١٨٥٢) (٢) يراقب
(٣) فيلسوف يونانيّ مشهور تلميذ سقراط واستاذ ارسطو (٤٢٩-٣٤٧ ق.م)
(٤) هو اسكندر همبولدت عالم طبيعي بروسي وكاتب مشهور (١٧٦٩-١٨٥٩)

أنجز كتابة (كوسموس) وهو في التسعين لشهر قبل وفاته . وكان برك في الخامسة والثلاثين حين انتخب عضوًا في البرلمان ومع ذلك جعل الناس يعترفون بمزاياه الفريدة وغرانت مع انه لم يكن معروفًا وهو في سنّ الاربعين اصبح في الثانية والاربعين معدودًا بين أشهر قوّاد العالم . وايلي هوبتني كان في الثالثة والعشرين لمّا قرّر ان يستعدّ لدخول الكلية وقد احرز شهادته من جامعة يايل وهو في الثلاثين ولكن محلاج القطن الذي اصطنعه أوجد مستقبلاً صناعيًّا زاهرًا للولايات الجنوبية من اميركا. ولاشك ان بسمارك[١] كان وهو في الثمانين قوّة عظيمة . واللورد بلمرستون[٢] ظلّ شيخًا بهمّة الفتيان حتى آخر أيامه وتولّى رئاسة وزارة انكلترا للمرة الثانية وهو في الخامسة والسبعين ومات وهو رئيس للوزارة في الحادية والثمانين . وظلّ غاليلو وهو في السابعة والسبعين وقد كُفّ بصره[٣] وضعف جسمه يواظب على العمل كلّ يوم مطبقًا مبدأ الرقاص على الساعات . وجورج ستفنسن لم يتعلّم القراءة والكتابة حتى بلغ سن الرجولية . وبعض من خيرة مؤلفات لونغفلو وهوبتيه وتنيسون انما انشأها اصحابها بعد ان بلغوا السبعين

ودريدن[٤] بدأ ترجمة (الاينايد) وهو في الثالثة والستين . ورورت هول درس الايطالية بعد إن تجاوز الستين ليتمكن من مطالعة اصول مؤلفات دانتي . ونوح وبستر درس سبع عشرة لغةً بعد أن بلغ الخمسين .

"وزهير بن ابي سلمى المُزَني شاعر العرب وحكيمها نظم معلقته الخالدة وهو في سنّ الثمانين بدليل قوله فيها :

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأمِ "

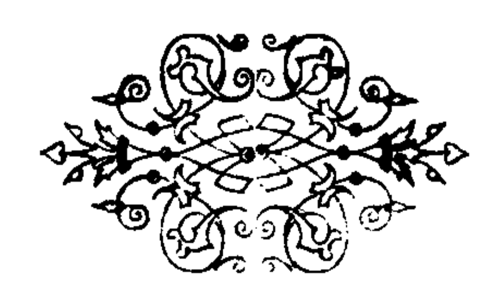
---

(١) سياسي بروسي يعدّ من أعظم دهاة العالم كان له الشأن الاكبر في تأسيس الوحدة الجرمانية والانتصار على فرنسا سنة ١٨٧٠ (٢) سياسي انكليزي مشهور (١٧٨٤–١٨٦٥)
(٣) عمي (٤) شاعر انكليزي مشهور (١٦٣١–١٧٠١)

وقد اصاب شنبشرون في قولهِ ان الرجالَ كالخمرة يحوّل الزمانُ السيئة منها الى خلٍّ ويزيدُ الجيّدةَ جودةَ

فبالحماسة يمكننا ان نحفظ شباب الروح ولو ابيضَّ شعرُنا كما ان تيّار الخليج يُلطِّف بردَ الاقاليم الشمالية القارسَ ويخفّفهُ

فاذا كان قلبُك في عهد الشباب فثقْ بمقدرتك والّا فكن في ريبٍ من كفاءتك لعملك



الفصل العاشر

الدهاء[1] او صحة التمييز

سأل برهمة القوة : أي شيء اقدر منك . فقالت : الدهاء — فيكتور هيغو

ان الدهاء يخلق الفرص وفقدانه يضيعها — بوفي

انه يوفق سلوكه على مقتضيات الحال اما في الضحك او الاصغاء او التعلم او التعليم — اليزا كوك

ان الرجل الذي يعرف العالم لا يجيد كل شيء يعرفه فقط بل يجيد كثيراً من الاشياء التي لا يعرفها ويكسب من الثقة بحذقه في إخفاء جهله اكثر مما يكسبه الرجل المعجب بمعارفه الذي يحاول إظهار سعة اطلاعه بطريقة سمجة — كولتون

ان معرفة الاستفادة من المقدرة المتوسطة تحصل من الثناء وتنيل غالباً من الشهرة اكثر مما يحصله التفوق الفعلي — روشفوكولد

حدث في أثناء الحرب الاهلية في اميركا أن جندياً زنجياً من جنود الشمال نأثر ضابطاً من أبناء الجنوب وقبض عليه وطلب منه ان يسلم فقال الضابط : انني لا أسلم لزنجي ابداً . فصوب اليه الزنجي بندقيته قائلاً : " انني آسف جداً يا سيدي لانه

---

(١) الفطنة وجودة الرأي واما استعمالها عند المولدين بمعنى الخداع فهو خطأ

ليس لي من الوقت ما يمكنني من ان اذهب وأعودَ برجلٍ ابيض فسلمْ وإلاَّ قتلتك."
فاضطرَّ الضابط الى التسليم

قال مونتسكيو: ان الله تعالى لما رزق الناس عقولاً لم يقصد أن يكفلهم

ولما كان ابرهيم لنكلن يسعى لان يُنتخب عضواً للمجلس الاشتراعيّ في المرّة الاولى ذهب لإحراز اصوات ثلاثين رجلاً كانوا يحصدون حنطةً في حقل. فلم يسألوهُ شيئاً عمّا يرمي اليهِ من التحسينات الداخلية ولكنهم ودُّوا ان يعرفوا ما هو عليهِ من قوة العضلات ليتيقّنوا أنَّهُ قادر على تمثيلهم في المجلس الاشتراعي. فما كان منهُ الاَّ ان حمل آلة الحصاد وطاف بها ووراءهُ الزمرةُ كلها حول الحقل. فمنحهُ الثلاثون اصواتهم

وقال نبوليون لطاهيهِ: "انني لأعجب منكَ غايةَ العجب ففي أيّ دقيقة شئتُ تناول فطوري أجد فرختي مُعدّة على احسن ما يرام فكيف يكون ذلك؟" وانما استغرب نبوليون هذا الامر لانهُ كان احيانًا يُفطِر الساعة الثامنة واحيانًا يتأخر حتى الحادية عشرة. فقال لهُ الطاهي: ان السرّ في ذلك يامولاي هو انني اضع على النار في كل ربع ساعة فرخةً جديدةً فتجدونها وَفق المرام في اي وقت طلبتموها

والبراعة في هذا العصر لا تعادل الدهاء او صحّة التمييز. فاننا نشهد إخفاقها في كل مكان. أما الدهاء فانهُ اذا اقترن بالموهبة الفطريّة يعالجها حتى يستخرج منها من النتائج في حياة ما اكثر مما يُستخرج من عشر مواهب بدونهِ. فالبراعةُ ترقدُ حتى الظهر اما الدهاء فينهض منذ الساعة السادسة. والبراعةُ قوّةٌ اما الدهاء فهو حذق. والبراعةُ تعرفُ الشيء الذي تعملهُ واما الدهاء فهو يعرفُ طريقةَ عمل ذلك الشيء

والبراعةُ شيءٌ معيّن واما صحّة التمييز فهي كلُّ شيء. وما هي بحاسة سادسة ولكنها بمثابة الحياة للحواس الخمس كلها. فهي العينُ المستيقظة، والأُذنُ الحادّة، والذوقُ الصائب، والشمُّ الشديد، واللمس النشيط. وهي مُفسِّرة الألغاز ومذلّلة الصعاب ومُزيلة العقاب

والعالم مملوءٌ بالرجال النظريّين غير العمليين المتجهين الى جهةٍ واحدةٍ، الذين

حوّلوا كل قوى حياتهم الى موضوع واحد فنشأ منهم ، لا رجال متناسبو القوى مستكملو المزايا بل ممسوخ ، لأنّ سائر قواهم تضاءلت واضمحلّت . ونحن ندعو في الغالب امثال هؤلاء نوابغ او عبقريين[1] والناس يعذرونهم في كثيرٍ من الامور على سلوكهم الغير العمليّ ، القريب من الخُرْق ،[2] لانهم يتقنون نوعًا معيّنًا من العمل إتقانًا لا يباريهم فيه أحد. فيُعذرُ تاجرٌ لتفوّقه في أساليب التجارة وإن كان أخرق في قاعات الاجتماع . وقد ألقى أدم سمِث دروسًا جليلة على العالم في فنّ الاقتصاد في كتابه "ثروة الشعوب" إلاّ أنهُ لم يكن يُحسن تدبير شؤون بيته المالية

وكثيرون من عظماء الرجال غير عمليّين حتى في شؤونهم العاديّة. فقد كان اسحاق نيوتن يستطيع ان يقرأ سر الخليقة ولكنهُ كان يتبرّم من النهوض عن كرسيّهِ لفتح الباب للهرّة وجروها فثقب لها في اسفل الباب ثقبين يدخلان منهُ متى شاءا ، أحدهما كبير للهرة ، والآخر صغير لجروها . وكان بتهوفن من كبار الموسيقيين ولكنهُ أرسل مرة ثلاثمئة فلورين لمشترى ستة قمصان وستة مناديل . وقد دفع الى خيّاطهِ مبلغًا باهظًا جدًّا سلفًا مع انهُ كان يشتدّ بهِ العوَز بعض الاحيان حتى لا يكون لديهِ الاّ قطعة بسكوت وكاس ماء لغذائهِ . وكان لعدم خبرتهِ في المعاملات لا يعرف ان يقطع كوبونًا من سند لديهِ لقبض فائدتهِ حين يحتاج الى المال بل يبيع السند بتمامهِ . ودين سويفت كاد يهلك جوعًا في ابرشيةٍ في الداخلية في حين ان رفقاءه في التلمذة العمليين صاروا من الاغنياء . وأحد مارشالية نبوليون كان يضاهي رئيسهُ حنكةً في الفنون الحربيّة الاّ انهُ لم تكن لهُ خبرتهُ في الناس ، ولا كان لهُ دهاء الآخرين وحذقهم. ونبوليون قد كان قابلاً للسقوط ولكنهُ كان كالهرّة ، اذا وقع فانما يقع منتصبًا على قدميهِ .

ودُفع مرةً الى دانيال وبستر لقاء دفاعهِ عن قضية فلوريدا مبلغ الف دولار حوالاتٍ مالية متجمّدة تناولها وهو يطالع في مكتبتهِ . وفي اليوم التالي احتاج الى شيء

(١) متفوّقون في كل شيء (٢) الحمق وان لا يحسن الرجل التصرّف في الامور

من المال فبحث عن تلك الاوراق فلم يجدها وبعد مرور سنين على هذا الحادث كان يُقلّب ذات يوم صفحات احد الكتب فوجد حوالة على احد المصارف ليس عليها أثرٌ للتجعد، فقلب الصفحة الثانية فوجد أُخرى، وهكذا حتى وجد القيمة كلها في المواضع التي كان قد وضعها فيها بدون انتباه وهو يقرأ. واتّفق له مرةً ثانيةً ان سمع بصدور مسكوكاتٍ ذهبيةٍ جديدةٍ من خزينة الحكومة فارسل كاتبهُ تشارلس لامان فجلب له منها ما قيمتهُ بضعُ مئاتٍ من الدولارات. وبعد يوم او يومين مدّ يدهُ الى جيبهِ ليخرج واحداً منها فلم يجد شيئاً. فتولاه العجب ولكنهُ بعد مراجعة ذاكرتهِ انتبه الى انهُ قد وزّعها كلّها واحداً بعد واحدٍ على اصحابٍ اعجبهم رونقُها

ورُوي عن استاذ رياضيات في كلية نيو انكلند وهو من المفرطين في المطالعة أنّ امرأتهُ سألتهُ يوماً ان يجلب الى البيت شيئاً من البُنّ. ولما سألهُ البائع عن الكمية التي يطلبها اجابهُ: ان امرأتي لم تُنبئني عن ذلك ولكنني اظن ان كيلاً يكفي

وكثيرون من الرجال العظام يكونون احياناً في حالة من الغيبوبة او الذُّهول تخالهم معها خالين من الرُّشد

فان لسنغ(١) عاد مرّةً الى بيتهِ وقرَع الباب فالتفت الخادم من النافذة ولما لم يقدر ان يتميّزهُ بسبب الظلام الحالك قال لهُ: "ان الأُستاذ ليس في البيت". فاجابهُ وهو ذاهلٌ "حسن فسأعود لزيارتهِ في فرصةٍ أُخرى"

وقد قال لويس فيليب انهُ الملك الوحيد في اوربا الجديرُ بأن يَحكُم لانهُ يُحسن مسح حذائهِ. والعالم مملوء برجالٍ ونساء حاصلين في الظاهر على مواهب سامية وتهذيبٍ راقٍ. ومع ذلك لا يُحصّلون قوتهم الاَّ بالمشقة

فقد وُجد منذ امدٍ غير بعيد ثلاثةٌ من متخرجي الكليات العالية يرعون غنماً في مزرعة في اوستراليا. واحدٌ منهم من خرّيجي جامعة اوكسفورد، والثاني من جامعة

---

(١) كاتب الماني اشتهر خصوصاً بما وضعهُ من الحكايات والأمثال وقد أحدثت كتاباتهُ نهضة أدبية كبيرة في المانيا (١٧٢٩–١٧٨١)

كمبردج ، والثالث من احدى جامعات المانيا . فهؤلاء هُذِّبوا ليقودوا البشر فكانت مهنتهم قيادة المواشي. أما صاحب المزرعة التي كانوا يعملون فيها فقد كان أُمّيًّا جاهلاً لا يعرف شيئًا عن الكتب ولا عن القضايا العلمية ، ولكنه يعرف الغنم . وكان أُجَرَاؤُهُ الثلاثة يحسنون التكلم باللغات الاجنبية ، ويتناقشون في الاقتصاد السياسي والفلسفة . أما هو فلم يكن يستطيع البحث عن شيء ما عدا غنمه ومزرعته ولكنه كان يحسن كسب المال وقد حصّل ثروةً في حين أنّ خريجيّ الجامعات لم يستطيعوا كسب معاشهم الاّ بالجهد . فالجامعة نفسُها لا تغني عن الدُّربة العمليّة. فهنا نرى التهذيب مُقابل الجهل ، والجامعة مقابل تربية المواشي ، وتربيةُ المواشي هي المحرزةُ قصب السبق

ولا تبنِ رجاءك على الكتب فقد قال باكون " ان الدروس لا تُعلِّم كيفية الاستفادة منها ، ولكنّ هنالك حكمةً عمليةً خارجةً عنها تكتسب بالملاحظة . " وفائدة الكتب يجب ان تُطلب خارجَ دفّاتها . وقد قيل عن عالم افرنسي كبير " انهُ غارقٌ في بحر معارفهِ . " والإفراط في التهذُّب بدون الحصول على حنكة عملية يُضعفُ المرء ويجعله غير اهلٍ للحياة الحقيقية . فالتهذيب بالكتب وحدها يجعل المرء مبالغًا في الانتقاد ، جبانًا ، غير واثق بقواه ، ألطفَ من ان يتحمّل مشاغلَ الحياة العملية ذات الطريقة الآليّة ، تحول رقّتُهُ المتناهية وادبهُ العالي بينهُ وبين العمل اليوميّ

فتربيةُ المدارس والكتب تلطّف ، على انها ليست احيانًا الاّ تربيةً أخلاقية يبذل المرء في سبيلها نشاطه ومضاء عزيمته. وهي اذا كانت وحدها فانما تشلُّ القوى العمليّة. والمفرط بالدرس يفقد ذاتيته ويمتلىء دماغهُ بالنظريات ويغدو بمعزلٍ عن افكار الآخرين. والنشاطُ العقليُّ الذي رافقهُ حين مجيئهِ من القرية لا يلبث ان يتلاشى في المدرسة . وبعد ان ينهي دروسهُ ويخرج الى العالم يدهشُ اذ يجد انهُ فقد المقدرة على تفقُّهِ الاشخاص والاشياء وأنّ الغلام النفير الذي حرم وسائل التحصيل وخاض جهادَ الحياة العنيف فنمت فيهِ قوة التمييز والحكمةُ العملية اصبح يسبقهُ في ميدان الاعمال

براحل . فخريج المدارس العليا يخالُ في الغالب توكُّوهُ قوّةً ، ويعيش في عالم خيالي قلّما تُقيم فيه صحّة التمييز والعالم قلما يكترث بنظرياتهِ ومعارفهِ الواسعة . فالعصرُ انما يتطلب رجالاً عمليين

قال كولمبس لهنود اميركا بعد أن رأى تغيُّر معاملتهم لهُ ولجماعتهِ : "لقد مضى علينا بينكم عدة اسابيع عاملتمونا فيها اولاً معاملة أصدقاء ، ثم ما لبثت ان دبّت اليكم عقارب الحسد والغيرة ، فاخذتم تُحاولون إقصاءنا عنكم ، وكنتم تحضرون الينا اولاً طعاماً كافياً في كل صباح فصرتم لا تجلبون لنا الاّ النّزر اليسير مُنقصين الكمية يوماً فيوماً . فالروح الاعظم ساخطٌ عليكم لنقضكم عهدكم معنا بجلب المؤونة الينا . وهو سيحجب الشمس و يحوّل نورها ظلاماً إعلاناً لسخطهِ عليكم ." قال ذلك لانهُ علم بان الشمس سيحصل لها كسوفٌ وقد عيّن لهم اليوم والساعة اللذين سيحدث فيهما ما أنذرَ بهِ . فما صدّقهُ الهنود واستمرُّوا على إنقاص ما يُقدّمونهُ من الأغذية

فلما حلّ اليوم المعيّن وبرزت ذُكاء[1] ولا غيومَ تحجبُ ضياءها هزّ الهنود رؤوسهم ، ثم توالت الساعة إثر الساعة ولم يُرَ على وجهها ظلٌّ فأخذتْ تظهر منهم بوادرُ الشرّ والعدوان ولكنهُ لم يطل الوقت حتى ظهرت بقعة سوداء في احد جوانبها ، ثم أخذت تلك البقعة تزيد وتكبر فاستولى الجزع على الهنود وخرُّوا ساجدين امام كولمبس متوسّلين اليهِ بان يُغيثهم . فانسحب الى مضربهِ واعداً ببذل ما في وُسعهِ لإنقاذهم . ولما حان وقت زوال الكسوف خرج اليهم وبشّرهم بان الروح الأعظم قد صفح عنهم وسيطرُد المسخ عن الشمس في الحال اذا كانوا يعدون بان لا يغيظوهُ فيما بعد . فوعدوا بذلك وحالما خرجت الشمس من الظل اخذوا يثبون ويرقصون ويُغنُّون طرباً . ومن ذلك الحين صار الاسبانيول يحصلون على كل ما يحتاجون اليهِ من المؤن

"وكان المختار بن ابي عبيد الثقفيّ من دهاة ثقيف وثقيف دهاة العرب قيل أنهُ

(١) الشمس

وجّه ابرهيم بن الاشتر الى حرب عبيد الله بن زياد ثم دعا برجل من خواصهِ فدفع اليهِ حمامةً بيضاءَ وقال لهُ: إن رأيت الامر عليك فأرسلها. ثم قال للناس: "اني لأجد في مُحْكمَ الكتاب، وفي اليقين والصواب، أنّ الله يمُدُّكم بملائكةٍ غضاب صعاب تأتي في صور الحمام تحت السحاب" فلما كادت الدائرة تكون على اصحابهِ عمد ذلك الرجل الى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس: "الملائكة الملائكة". وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد"

قال وندل فيلبس ان صحة التمييز تغني امام الامر الغير الممكن اجتنابُهُ وتستفيد منهُ فان قيصر لما نزل الى شاطىء بريطانيا تناول في الحال قبضةً من الرمل ورفعها في الجو علامةَ استيلائهِ على تلك البلاد مخفيًا بذلك عن أتباعهِ ما في سقوطهِ من علامة الشؤم

وتكلّم غوث عن بعض موازنات أُقيمت بينهُ وبين شكسبير فقال: ان شكسبير يضرب المسمار الموافق على الرأس في الحال وأما انا فأتوقّف وأُفكر ما هو المسمار الموافق قبل أن أضرب

وقد قيل ان قليلاً من الحصى المأخوذة من ساقية هي في مقلاع رجل كداود يُصيب بها الهدف أفعلُ من رمحٍ وقوّة رجلٍ كجليات مع سماجة جليات

وقد حدث منذ سنواتٍ انهُ بينما كانت أُسرة مور في منزلها الخشبي في اوهايو أقبل اليها رجل يعدو بملء قوتهِ وهو في اشد التهيُّج وصاح: كونوا على حذر وأتوني بجوادٍ نشيطٍ باسرع ما يمكنكم فان الهنود هجموا في الليلة الفائتة على اسرةٍ ساكنة عند ضفة النهر وفتكوا بجميع افرادها ولا احدَ يعلمُ ما ينوون ان يفعلوهُ بعد ذلك

فقالت ربّة البيت وقد علا وجهها الاصفرار: ما العمل وزوجي قد سافر امس ليشتري لنا مؤُنًا للشتاءِ وهو لن يعود قبل الصباح

فقال: ان هذا لمما يوجب القلق فأوصدوا الابواب إيصادًا محكمًا وغطّوا ناركم

ولا توقدوا المصابيح هذه الليلة. وكان الغلمان قد جاؤوه بجوادٍ فوثب الى ظهره وسار به ينهب الارض نهبًا لينذر سائر المقيمين في تلك الجهة بالخطر المداهم

أما ربّة البيت فانها ذهبت باولادها الصغار الى الطبقة العليا من المنزل وتركت ولديها اوبيد وجوي في الطبقة السفلى للخفارة والمراقبة مسلّمةً اليهما موقف الخطر هذا إجابةً لإلحاحهما الشديد. ولما خيّم الغسق (١) لمح اوبيد اشباحًا تتحرّك بين الحقول فهمسَ في اذن اخيهِ قائلاً: "انهم قادمون يا جوي. فقف بجانب هذه النافذة حاملاً المعول وانا أُصوّب بندقيتي الى هذا الرجل" ثم فتح جعبةَ القذائف وأخرج منها قذيفةً فوجدها اكبر حجماً مما يلزم للبندقية التي بين يديهِ. وذلك أنّ والدهُ كان قد أخذ الجعبة الاخرى خطأً فأُسقط في يدهِ (٢) فجعل يطوف متلمسًا ليرى هل في الخزانة قذائفُ أصغرُ من التي بين يديهِ فعثر اثناء طوافهِ بيقطينةٍ كبيرة هي احدى يقطينتين كان هو واخوهُ يضعان داخلها مصباحين يجوّفان بهما ساعي البريد عندما يجوّفها. وقد جعلا كلاً منها على شكلِ وجهِ جبارٍ مكشرٍ عن انيابهِ مفتوحِ العينين والأنف والفم. فخلع دِثارهُ في الحال وألقاهُ على اليقطينة وتناول من خلال الرماد جمرةً أشعل بها المصباح الموضوع داخل اليقطينة ثم رفع هذه اليقطينة الى النافذة وهمس في أُذُن اخيهِ: "اننا اذا أمهلناهم لا يلبثون ان يصيحوا صياح الحرب" ثم اجتذب الدّثار المُلقى فوق اليقطينة فتوبل ظهور هذا المسخ المكشّر بولولةٍ جهنّميّة وفرّ الهنود مثل الوحوش الى الغابات. فقال اوبيد لاخيهِ: "بادر يا جوي وأنر المصباح النباتي الآخر أفلا ترى ان هذا قد فرّقهم" ولما ظهر الوجه الناريُّ الثاني ولول المتوحشون لآخر مرّة واختفوا في الغاب. ووصل المستر ،ور عند انبثاق الفجر ولكنّ الهنود لم يعودوا الكرّة

وترلو ويد كسب اول ربع ريال بحملهِ على ظهرهِ صندوقًا من مركب شراعيّ في ميناء نيوبرك الى نزل برود ستريت. ولم يكن له من الوسائل الاّ ما يتيسّر اليوم

(١) ظلمة اول الليل (٢) اشتدّ تحسّرهُ لخيبتهِ

لأحقر غلام . ولكنهُ كان ذا دهاء ونيّرة وقّادة يستطيع ان يقرأ الرجال كأنهم كتبٌ مفتوحة امامهُ ويكيّفهم كما يشاء . وكان بعيدًا عن الانانيّة . فقد عُرض عليهِ منصبُ سفيرٍ في انكلترا وكثيرٌ غيرهُ من المناصب الجليلة من ثلاثة روساء ساعدهم بدهائهِ على الفوز في الانتخاب فرفضها كلها

وقد اختارهُ الرئيس لنكلن لاستمالة جريدة نيويرك هرالد المنتشرة انتشارًا عظيماً في اوربا وقد كانت تحدِث في الافكار تيّارًا عامًا شديد الخطر في الداخل والخارج بمقالاتها المُشايعة لابناء الجنوب . وكان ويد لم يجتمع بالمستر بنيت ولا حادثهُ منذ ثلاثين سنة ومع ذلك اصبحت الهرالد منذ اليوم التالي لاجتماعهما شديدة التشيُّع لأبناء الشمال . فأُرسل ويد عندئذٍ الى اوربا ليُقاوِم التأثير المضرّ الذي يُحدِثهُ فيها دعاة الانفصال وكان امبراطور فرنسا موالاً الى ابناء الجنوب وقد بلغ منهُ الاستياء اعظم مبلغ لإلقاء الشماليين الحصار على مرفإ شارلستون مما يحرم ارباب المعامل الافرنسيين الحصول على مقادير كبيرة من القطن . ولكن ويد تمكّن بدهائهِ النادر من حملهِ على تغيير رأيهِ وإبدال اللهجة العدائية في الكتاب المُعدّ للإرسال الى الجمعية الوطنية الاميركية بلهجة وديّة . ولما وصل ويد الى انكلترا وجد القوم فيها يتأهّبون للحرب ليلاً ونهارًا فغيّر في الحال مجرى الراي العام تغييرًا عظيماً . وعندما رجع الى اميركا قدّمت لهُ مدينة نيويرك شكرها العموميّ على خدماتهِ الباهرة . وقد نجح في اعمالهِ الخاصة كما نجح في الاعمال العامّة فاكتسب ثروةً بلغت المليون من الدولارات

ووصل نبوليون بحاشيتهِ مرةً الى نهرٍ لا جسر عليهِ لم يكن للجيش بُدٌّ من اجتيازه فدعا رئيس مهندسيهِ وقال لهُ : أنبئني عن عرض هذا النهر . فقال لا سبيل لي الى ذلك يامولاي لان الآلات العلمية مع الجيش وهو متأخر عنا مسافة عشرة اميال

فقال لهُ : قِس عرض هذا النهر في الحال

فقال المهندس : مولاي كن منصفاً

فقال نبوليون : تحقّقْ عرض النهر على الفور وإلاَّ أُقِلت من منصبك

فأنزل المهندس خوذتَهُ عن رأسهِ حتى أصبحت حافتها على خطٍ متوازٍ بين عينيهِ والضفّة المُقابلة . ثم دار على عقبهِ مُبقيًا قامته منتصبةً ولاحظ ابن تلامس حافةُ خوذتهِ مع الضفّةِ التي هو واقفٌ عليها وهي على مستوى واحد مع الضفة الاخرى. ثم قاس المسافة بين النقطتين وقال : "هذا يا مولاي عرض النهر بطريقة تقريبية" . فسُرَّ منهُ نبوليون ورقّاهُ

ومرَّ المستر وبستر اثنآء سفرٍ لهُ باحدى مدن الغرب في الولايات المتحدة وعرف محافظ البلدة أنهُ عازمٌ على التأخر فيها ساعةً من الزمن ليتعرَّف الى اعيانها ويُحكم العلاقات معهم فشرع يُقدِّمهم اليهِ بادئًا برجل اسمهُ جيمس قائلاً : "اسمح لي يا مستر وبستر ان اقدم اليك المستر جيمس من خيرة ابناء وطننا". فقـــال المستر وبستر بصورة آليّة وهو ينظر الى ألوف من الاشخاص ينتظرون ان يصافحوهُ: "كيف حالك يا مستر جيمس". فاجابهُ المستر جيمس بلهجة تشفُّ عن كآبة عميقة : "الحقيقة يا مستر وبستر ان صحتي ليست على ما يرام" . فقال وبستر بلهجة تدل على الاشفاق : "عسى ان لا يكون ما تشكو منهُ امرًا ذا بال". فأجاب المستر جيمس : "لا أعلم بالتدقيق وانما اظن انهُ نوعٌ من الروماتزم . ولكن امرأتي–"فقاطعهُ المحافظ قائلاً: "انني أقدم اليك يا مستر وبستر المستر سمث" تاركًا اياهُ بين ذلك الجمهور في وحدة محزنة يفكِّر في اعتلال مزاجهِ .فحلوهُ التام من صحة التمييز جعلهُ موضوعًا للهزء

ووقف شاهدٌ امام مجلس محلّفين (جوري) وحاول ان يُقدّم شهادةً بصورة سرّية الى المحكمة فقال لهُ القاضي : "وجّهْ خطابك الى المحلّفين". فلم يشأ الرجل ان يفهم وواصل كلامهُ كما في السابق .فقال لهُ القاضي مكررًا : "وجّه كلامك يا سيدي الى المحلّفين وهم الاشخاص الجالسون ورآءك على المقاعد المرتفعة ." فالتفت الشاهد منحنيًا برقةٍ مستنكرة وقال : صباح الخير ايها السادة

ودخل نبوليون الى كاتدرائيةٍ فرأى اثني عشر تمثالاً فضيًا فسأل :"ما هذه".

فقيل له: "هؤلاء هم الاثنا عشر رسولاً". فقال: "أنزلوهم واسبكوهم نقوداً ودعوهم يطوفون صانعين خيراً كما فعل معلمهم"

وقال احد الطلبة في جامعة برون: "انني لا أرى في امثال سليمان حكمةً عظيمةً جدًا. وفي استطاعتي ان أضعَ امثالاً تُضاهيها" فقال له ويلاند رئيس الجامعة: "هاتِ لنا اذًا مثلين صباح غد". فلم يأتِ بشيء

وأرسل احد فروع جمعية الشبان المسيحيين في احدى مدن الغرب برقيةً الى هنري ورد بتشر هذا نصها: "هل تريد ان تخطب بيننا حبًا للشهرة". فاجاب ذلك الواعظ الشابُّ النبيه كما يأتي: "بشرط ان تُقدموا لي خمسين دولارًا ونفقاتي"

وذكر مونتاني ان احد الملوك تُوفّي ابنه الوحيد فجأةً فأمر بالغاء الدين المسيحي من مملكتهِ مدة اسبوعين إعلانًا لسخطهِ على العزة الالهيّة

ونسبيّةُ الدهاء أو صحة التمييز على البراعة والعبقريّة ظاهرةٌ في كل مكان. فان ولسون كان رجلاً أُميًا وشارمان[١] لم يكن يُحسن كتابة اسمهِ بطريقةٍ مقروءة ولكنّ هذين العظيمين كانا خيرين في الاشخاص والاشياء حاصلين على الحكمة العمليّة والدهاء وهما الصفتان اللتان ما برحتا تُدبران العالم

فالدهاء مثل الاسكندر يقطع العُقد[٢] التي لا يستطيع أحدٌ حلَّها ويقود قوّاتهِ

---

(١) هو ملك الافرنك امتدت سلطنتهُ من بحر الشمال الى الخيط الاطلانتيكي ومن بوهيميا الى جبال البيرينه وقد قام بحروب عظيمة حالفهُ فيها النصر وانتهز تنظيماتهِ وادارتهِ وقد توج امبراطورًا للغرب وهو رأس الأسرة الكارلونجية (٧٤٢ - ٨١٤) (٢) إشارة الى العقدة "الغوردية" التي قطعها الاسكندر وذلك ان ميداس ملك فريجية كان قد قدَّم الى هيكل جوبيتر في غورديوم المركبة التي أوصلتهُ الى ذلك الهيكل وكان النير مربوطًا بجرّ المركبة بعقدة قد أُحكم ربطها بتفنن غريب بحيث لا يدرى اين طرفاها. وراجت من ثمَّ نبوءة مؤدَّاها ان الذي يتمكن من حلّ هذه العقدة يتسلط على آسيا بأسرها. فلما وصل الاسكندر الى ذلك الهيكل حاول مرارًا حلَّ العقدة فلم يفلح فتناول سيفهُ وقطعها

الى الظفر الباهر. والرجل العمليُّ لا يرى الفرصة السانحة فقط بل يقبض على ناصيتها و يغتنمها فإنَّ للنجاح مزيَّة يصعب وصفها ولكنها الحائزةُ قصبَ السبق دائمًا في ميدان الحياة. فقد كان نبوليون يحسِن صُنْع كل شيء متعلقٍ بفنون الحرب حتى البارود. وكان الرسول بولس كلَّ شيء لكلِّ انسان حتى يُخلِّص الكل. والنخلُ ينمو بين أصلب الأشجار وأقلها ثمرًا ولكنهُ في الغابات الكثيفة في اميركا الجنوبيَّة يقال انهُ يتعرَّش بأقرب الجُذُوع اليهِ حتى يصل الى النور ولا يظلّ محرومًا أشعة الشمس المحيية

وباعَ مُزارعٌ نصفَ مزرعتهِ الى شابٍّ لانهُ لم يكن يكسب منها ما يكفي لمعاشهِ. فاستغلَّ الشابُّ النصف الذي اشتراهُ وربح من غلّتهِ مالاً دفع بهِ الثمن واشترى النصف الآخر. فعجب المزارع وسأله كيف يصيب بعضُ الناس مثل هذا النجاح حيث يكون حظُّ غيرهم الخيبة والفشل. فاجابهُ: انهُ يعوزك الدهاء

ودُعي قسٌّ ليتلو صلاةً فوق قطعة ارض في شهر نيسان جريًا على عادة قديمة. فلما رأى الارض قال: إنَّ هذه الارض لا تحتاج الى صلاةٍ بل الى سماد

واذا شئت ان تعرف انسانًا كما هو ففلّبهُ واستمر على تقليبهِ حتى تحصل على الزاوية القائمة منهُ فعرّضهُ للنور كلَّ التعريض كما تفعل بصورة. ومتى حصلتَ على الزاوية القائمة منهُ انكشفت لك كل مزاياهُ ونقائصهِ. وما أشدَّ ما تغيّرت مراكزُ رفقائنا القدماء في التلمذة في صفوف الحياة الفعليَّة. فمن كان رأسًا لصفهِ يحسدهُ الآخرون على تقدُّمهِ قد سبقهُ الغلامُ البليد المسكين الذي كان يُدعى بطيئًا ومُغفلاً وذلك لان في باطن هذا الاخير نوعًا من العزم الجامد مكّنهُ من النجاح في العالم. في حين ان من كان رأسًا للصف لم يكن لهُ الاَّ معرفةٌ نظريَّة فلم يستطع ان ينازل حقائق العصر الجافية. وعلى العبقريّ نفسهِ مهما كان سيرهُ سريعًا أن لا يُهمِل ذرَّةً من المسائل الجوهريَّة وأن يعمل كفرسٍ

وقد كان شكسبير ذا دهاء عجيب. فقد بسط في رواياتهِ كل شيء. فمثّل الملك

وتابعهُ ، والمجنونَ والخليع ، والامير والفلاح ، والأسود والابيض ، والطاهر والدَّنس ، والساذج والعالم ، والاهواءَ والاخلاق والشرف والعار . فلم يدع شيئًا مما يقعُ تحت نظرهِ حتى تناولهُ بيراعهِ وصوَّرَهُ احسن تصوير

وبعضُ الناس يُظهرون نقصًا في الدهاء بامتعاضهم من كل اهانة طفيفة او تافهة تُوجَّه اليهم مهما كانت غير جديرةٍ بمبالاتهم . و بعضهم يخطئون خطأً دون كيشوت[١] بمصارعتهِ مطحنةً هوائية اذ يشتبكون في المناقشات مع صحافيين وخُطباء عموميين ممَّن هم واثقون بان تكون لهم الكلمة الاخيرة . وقد كان من اعظم عناصر القوة في اخلاق واشنطون صبرهُ حين يتحامل عليهِ المتحاملون ظلمًا وعدوانا و يتهكَّمون عليهِ

وكان جون جاكوب استور على جانبٍ عظيم من الحنكة العمليَّة وقد حدث في اثناء سفرهِ الى اميركا أن هبَّت زوبعةٌ في البحر فهرع الرَّكب الى ظهر السفينة منتظرين الغرق بين دقيقةٍ واخرى . أما هو فنزل الى حجرتهِ ولبس افضل ثوب عندهُ برباطة جأش قائلاً انهُ اذا غرق المركب وقُبض لي من خلَّصني فأكون على الاقل قد أنقذت افضل ثوبٍ لي

قال سائح لرجل يهودي : ان اليهود يسيرون ببراعتهم التجارية الى الامام في اوربا وفي اميركا . وهذهِ البراعة قد أكسبتهم تفوقًا في بعض فروع التجارة على الاقل لا يقدر احدٌ ان ينتزعهُ منهم

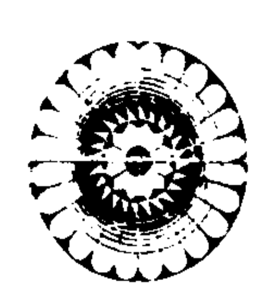
فاجابهُ رفيقهُ : نقول انهم سائرون الى الامام وهذا صحيح . لكن لماذا لا تذكر الاَّ براعتهم التجاريَّة

فقال محدّثهُ : أولا نعدُّ هذا منهم براعة ؟

---

(١) بطل رواية وضعها الكاتب الاسباني المشهور ميشال سرفنتس وقد مثَّلهُ بصورة فارس يتخيل اعداء وهميين و يصارعهم وقد اشتهرت روايتهُ شهرة طائرة لما فيها من التفنن والغرابة واصبح بطلها مضربًا للمثل

فاجابه: إن هذه ليست براعةً بل هي عبقرية(١). وها أنذا أبيّن لك الفرق في التجارة بين البراعة والعبقرية. فانه اذا ذهب شخص الى مخزن تاجر وتمكّن من ان يبيعه ما هو بحاجة اليه فهذه براعة. واما اذا تمكّن ان يبيعه ما ليس بحاجة اليه فهذه عبقرية. وهذه هي العبقرية المتصفُ بها أبناء قومي



(١) التفوّق في كل شيء

الفصل الحادي عشر

احترام النفس والثقة بها

ان الملك هو الرجل الذي يقدر — كارليل

كن صديقاً لنفسك يكن الآخرون اصدقاء لك — مثل سكتلندي

ان غجبةً من اللورد بانحناء الراس في فطور المجنون — فرنكلن

ان احترام المرء لنفسهِ هو بعد الدين اول لجام لكل الرذائل — باكون

ان احترام النفس هو حجر الزاوية لكل فضيلة — جون هرشل

إحترم نفسك فوق كل شيء — فيثاغورس

لا شيء يستطيع ان يضرَّ بي الاَّ نفسي . والأذى الذي أتكبدهُ فانا المحدث له ولا أتألم تألماً حقيقياً أبداً إلاَّ بهفواتي الخاصة — سان برنارد

ان عدم الثقة بالنفس هو السبب في اكثر ما يصيبنا من الفشل فان في إيقان المرء بقوّتهِ قوةً له . والذين لا ثقة لهم بانفسهم او بقواهم هم أضعف الناس مهما كانوا اقوياء — بوفي

اعتاد حائكٌ سكتلندي مسكينٌ ان يبتهل الى الله في صلاتهِ كل يوم لِيَهب له حسنَ ظنٍ بنفسهِ . وانهُ لمصيبٌ في ذلك . فهل ارجو من غيري ان يُحسن ظنَّهُ بي اذا كنت لا أُعطيهِ القدوة بذلك . ويقول الصينيون ان من لا يحترم نفسهُ لا يستحقُّ الاحترام" وقال زهير بن ابي سلمى:

ومن لا يكرّم نفسهُ لا يُكرَّم"

فانهُ اذا كان الناس يرون اني لا أُكرِم نفسي فلهم الحق في ان يرذلوني ويعدُّوني دجّالاً لانني أتطلَّب من الآخرين ان يحسنوا ظنهم بي وأنا غيرُ محسنِ الظنِّ بنفسي . واحترام النفس مبنيٌّ على المبادىء المبنيّ عليها احترامُ الآخرين

قال لنكلن : انك تستطيع ان تخدع كل الناس بعض الوقت وبعضَ الناس كلَّ الوقت ولكنك لا تستطيع ان تخدع كلَّ الناس كل الوقت . فنحن لا نستطيع ان نخدع انفسنا بأي وجه كان في وقت من الاوقات والطريقةُ الوحيدة لأن نتمتع باحترامنا لانفسنا هي ان نكون مستحقين لذلك الاحترام

والناس لهم الحق ان ينظروا اليّ ليعرفوا بماذا أُثمِّن نفسي . فنحن نطبع على أنفسنا قيمَتَنا الخاصة ولا نتوقَّع ان نُقوَّم باغلى منها . واذا أُدخلتَ على جماعةٍ فانهم يتفرَّسون في وجهك وعينيك ليعرفوا بماذا تقوّم نفسك . فاذا رأوا ثمنًا بخسًا فعلامَ يزعجون انفسهم في الاستقصاء والتنقيب ليروا هل انت مستحق ثمنًا أغلى لانهم يعرفون انك عشتَ مع نفسك زمنًا طويلاً فانت أعلم منهم بقيمتك الحقيقية

لما مثل الجنرال ولف امام پيت كبير وزراء انكلترا قبل ابحارهِ الى كندا بيوم اخذ يُطنب في الكلام عن نفسهِ وعما ينوي إتيانَهُ من الاعمال العظيمة وهو شاهرٌ سيفهُ تارةً يقرع بهِ المنضدة وطورًا يهزُّهُ وهو يجول في الغرفة . فهتف پيت قائلاً للورد تامبل : سألتُ ربي ان يُقيِّض لي أيديًا كثيرة كهذه اليد أُسلِمها مُقدَّرات البلاد والادارة

على ان ذلك الوزير الاكبر لم يكن يخطر له ببال ان ذلك الشابَّ الانانيّ المعجب بنفسهِ سينهض من فراشهِ وهو مريضٌ بالحمى ويقود جيوشهُ الى النصر الباهر على مرتفعات ابراهام . فأنانيّتهُ الظاهرة لم تكن الاَّ نبوءةً عن مَقدرتهِ على الإنفاذ

ولما أُسر ستيفن اوف كولونا قال له آسروهُ هازئين : "اين حصنُك الآن ?" فاجاب بجسارة واضعًا يدهُ على قلبهِ : "هنا"

ولان اصحاب المواهب التامّة النضج والحكمة التدريب على ثقةٍ من الحصول على

مراكز ولكن لا ينبغي لهم ان يتزووا في بيوتهم وينتظروا ان يبحث الناس عنهم. ولا شكّ أنّ هنالك ظلمًا كبيرًا في نجاح الاشخاص المُقدمين الوقحين في حين أنّ اصحاب الجدارة المُتكتمين مُلقون في زوايا الاهمال. ولكن الذي يحدث غالبًا أنّ اولئك الاشخاص المُقدمين تكون لهم مزيّة العجلة والنشاط الثمينة التي لا تُعدّ الجدارة بدونها الاّ خاصّةً غير موثِّرة. فكلبٌ نبّاح هو في الغالب أنفعُ من أسدٍ نائم

وقد أنهى جون فريمونت حياتهُ في ظلمة النسيان مع ان معارفهُ الواسعة قد أكسبتهُ الكرسيّ الذي فرغ في النّدوات العلمية الاوربية بعد وفاة همبولدت، مع انهُ كان لحينٍ من الزمن معدودًا في مقدّمة رجال السياسة وقد تمّ ضمُّ كاليفورنيا إلى الولايات المتحدة بمساعيهِ. وهاك ما قالهُ عنهُ احد خصومهِ: انهُ كان مجهولاً لِعدم ثقتهِ بنفسهِ. فقد كانت لهُ براعةٌ حقيقيّةٌ في تجنُّب الظهور

وهزأ احد رفقاء جون كلهون (١) بهِ في جامعة يايل لانصرافهِ المفرط الى الدرس فقال لهُ كلهون: "لِمَ تفعل هذا يا سيدي فانا مضطر أن أُحسن استعمال وقتي لأقوم بواجباتي قيامًا يُكسبني الثقة عندما اصير عضوًا في مجلس الأُمة." فقُوبِل كلامهُ هذا بالضحك اما هو فهتف: "أأنت في ريب مما اقول. تأكّد انني لو لم أكن موقنًا بقدرتي على الوصول الى العاصمة بصفة ممثل في خلال السنوات الثلاث القادمة لتركتُ المدرسة منذ اليوم"

وان ما يظهر لنا في بعض الناس أنانيةً مُنكرَةً إن هو في الغالب الاّ دليلٌ على ما فيهم من القوة على تحقيق رغائبهم. فالرجال العظام عادةً شديدو الثقة بنفوسهم. وقد كان وردسورث واثقًا من احراز مقام عالٍ في التاريخ ولم يتردّد عن التصريح بذلك. ودانتي تنبأَ بما سيحصل عليهِ من الشهرة. وكان قيصر راكبًا في سفينة وثارت زوبعة هائلة فاشتد قلق الربّان فقال لهُ قيصر: لا تخف لانك مُقِلٌّ قيصر وحسن طالعهِ

(١) سياسيٌّ اميركيٌّ مشهور (١٧٨٢–١٨٥٠)

وربما كانت الانانية ضرورية للرجال الممتازين . فان الطبيعة تولِّد في المرء رجاءً شديداً لئلاً يتردّد قبل ان يُدرك الغرض السامي الذي نصبتهُ لهُ . ولهذا تجعل فيهِ انانيةً مُفرِطةً الى درجة غير مقبولة احيانًا وذلك لِتضمن مواظبتهُ على السير الى العلياء. فالثقة بالنفس قوةٌ احتياطية

واذا نظرنا في الامر من وجهة ادبية نجد ان الثقة بالذين هم واثقون بنفوسهم امرٌ سليم العاقبة عادةً وأما من يشك بمقدرتهِ فلا غروَ أن يشكّ فيهِ الآخرون. فالسقوطُ الأدبيُّ يبدأُ دائمًا من الشخص نفسهِ

وليس الناس وقتٌ في ايام العمل والجدّ هذه للبحث في الزوايا المظلمة عن ارباب الجدارة المُتكتِّمين . فهم يؤْثِرون ان يقوِّموا المرء بالثمن الذي يُقوِّم بهِ هو نفسهُ الى ان يثبُتَ لهم أنهُ غير مستحقٍ لهُ . والعالم يعجب بالشجاعة والرُّجُولة ويحتقر الشابَّ الذي يطوف بهيئة مُدافِعةٍ دائمة عن الذنب الغير المُغتفَر الذي أتاهُ بوجودهِ في هذه الدنيا

قال شلن : " ان من يعرف في اي حالة هو لا يلبث ان يعرف في اي حالة يجب ان يكون . فليكن للمرء احترامٌ نظريٌّ لنفسهِ فلا تلبث الارادةُ العملية أن تجيء بعد ذلك . " وان من كان مقتنعًا كلَّ الاقتناع بمقدرتهِ على الاستيلاء على مواردَ مُعيَّنةٍ لا يلبثُ ان يستولي عليها بالفعل . وقال كوسيث : " ان التواضع نصيب الحكمة وهو في الرجال شديد الموافقة لكن لا يبخس احدٌ صفةَ الاعتماد على النفس حقَّها فهي اعظمُ مزيةٍ من مزايا الرجولية الصحيحة . " وكتب فرود : " ان الشجرة يجب ان تمدَّ جذورَها في الارض قبل ان تُزهر وتُثمر . وهكذا الانسان عليهِ ان يُحسن الانتصاب على قدميهِ واحترامَ نفسهِ والاستغناءَ عن كلِّ صدقةٍ او مساعدة عارضة فهذا هو الاساس الوحيد الذي يمكنهُ ان يبنيَ عليهِ أيَّ تربية عقليَّة يجدُرُ بهِ الحصولُ عليها "

فعلى الشاب ان تكون لهُ عزَّةُ النفس التي تجعلهُ يترفَّع عن الصَّغار (١) ولا يخنَع (٢) امام الازدراآت والتوبيخات

(١) الارتضاء بالذلّ (٢) يخضع

كان المحامي الشاب كوران يدافع في احدى الدعاوي فقال في جملة ما قاله: انني قد طالعت جميع ما لديَّ من كتب القانون فلم أجد قضيةً واحدة أيّد فيها المبدأ الذي يدافع عنه خصمي

فقاطعهُ القاضي روبنصن الجاريةُ امامهُ المحاكمةُ قائلاً: اظنّ اذًا ان مكتبتك القانونية ضيّقة النطاق

وكان هذا القاضي قد وصل الى منصبهِ بتأليفهِ عدة رسائل ركيكة المبنى سخيفة المعنى ولكنها مملوءة بذاءة ومداهنةً. فاجابهُ المحامي الشاب بهدوء ورزانة وهو يحدّق في وجههِ: "لا أنكر يا سيدي أنني فقيرٌ وأنّ مكتبتي صغيرةٌ ضيّقة النطاق بحكم الاحوال القاهرة فكُتُبي ليست عديدة ولكنها من نخبة الكتب وقد طالعتها جميعها بتمعُّنٍ وتدقيق. وانني قد أعددت نفسي لهذهِ المهنة النبيلة بدرس كتب قليلة مفيدة لا بتأليف كتبٍ كثيرةٍ مُضرّة. فانا لا أستحي بفقري بل لقد كنت أستحي بغنائي لو كنت قد جمعت مالاً بالتذلل والرشوة. فاذا لم أكن ذا مرتبة سامية فأنا على الأقلّ شريف. واذا فكّرت يومًا في ان لا اظلّ هكذا فان امثلةً عديدة تبرهن لي على أنّ الترقّي المكتسب بطرقٍ غير شريفة وإن زاد المرء شهرةً وظهورًا فهو انما يزيدهُ احتقارًا لدى العموم" فلم يعد القاضي روبنصن الى الازدراء بهذا المحامي الشاب من ذلك اليوم

قال ميخائيل رينولدس: ان الاعتماد على النفس من اعظم اركان الاخلاق. فهو الذي أحرز الجوائز الاولمبيّة[1] والاكاليل الكورنثية[2]. وهو يجعلنا أنسباء للرجال الذين أثبتوا حقّهم الالهيّ بالخلود في ذاكرة البشريّة

---

(١) هي الجوائز التي كان يحرزها الفائزون في الالعاب الاولمبية وهي ألعاب كان يقيمها اليونانيون القدماء مرّة في كل اربع سنوات اكرامًا لجوبيتر الاولمبي (٢) هي ما كان يناله الفائزون من اليونانيين القدماء في الالعاب الاحتفالية التي كانوا يقيمونها في برزخ كورنثس اكرامًا لنبتون

واحترام النفس والثقة بها يُولِّدان في المرء شعورًا بالقوة لا شيء غيرهما يقدر ان يولّدهُ

أما الضعيف والمتكل على سواهُ والمرتجف والمتردّد فيصح فيهم ما قالهُ شكسبير من انهم "لا يعرفون وليس في استطاعتهم ان يعرفوا معنى مزيّة الشّمم[1] التهيلة التي تتوقد في صدر الرجل المعتمد على نفسهِ . ففرحهُ ليس فرح من أحرز الاكليل بل فرح من في وُسعهِ ان يحرزهُ . فقبل كل شيء كن مخلصًا نحو نفسك فيتبع ذلك – كما يتبعُ الليل النهار – انهُ لا يبقى في استطاعتك ان تكون غير مخلص نحو احد من الناس



(١) اصل معنى الشّمم ارتفاع قصبة الانف وحسنها واستواء اعلاها وهي صفة يكنى بها عن الشهامة وعزّة النفس

الفصل الثاني عشر

الاخلاق قوّة

الاخلاق قوّة ونفوذ . وهي تكسب اصدقاء وتوجد راس مال وتجلب حماية ومعاضدة وتفتح طريقاً سهلاً أميناً الى الثروة والشرف والسعادة — ج . هوز

ان عملاً خاصاً يدعوني الى الذهاب ولكنني أدع أخلاقي ورائي — شريدان

ان الاخلاق يجب ان تقف وراء المرء وتعضده في كل شيء — في الخطة والقصيدة والصورة والرواية التمثيلية . فلا شيء من كل هذه يساوي مثقال ذرّة بدونها — ج . هولند

ان الاخلاق هي الالماسة التي تخدش كل حجر آخر — بارتول

كن شريفاً فلا يلبث الشرف الكامن في الرجال الذين هم راقدون وليسوا امواتاً أن ينهض بجلال و يلاقي شرفك — لويل

قال رجل من اشراف رومية لشيشرون : " انت رجلٌ من العامة وأما انا فشريف " فاجابهُ ذلك الخطيب الكبير : " ان شرف أُسرتي يبدأُ بي وأما انت فان شرف أُسرتك ينتهي بك "

وجاء انسطاغوراس الى كليومانوس ملك اسبرطة محاولاً ان يغريهُ لمساعدته على أن يصير ملكاً في بلاد مجاورة . وكان بجانب الملك ابنتهُ غورغو وعمرها لا يزيد عن عشر سنوات . فسألهُ ان يوعز اليها بالخروج لعلمهِ أنّ من الصعب إقناعَ أبٍ

ثالإقدام على عمل سيّئ ووالدهُ جالسٌ الى جانبهِ . أما الملك فأبى إبعادها عنهُ وقال لهُ : "تكلم ما تشاء بحضورها" . فظلّت الابنةُ جالسةً عند قدمَي والدها مصغيةً بينما كان ذلك الزائر يعرض عليهِ مالاً ويزيد المبلغ شيئًا فشيئًا لقاء ما يطلبهُ منهُ من المساعدة. ولم تكن الفتاة تفقه من الامر شيئًا ولكنها لما رأت اضطراب والدها وتردُّدَهُ قبضت على يدهِ وقالت لهُ : "هلمّ بنا نخرج يا أبي لئلاَّ يحملك هذا الغريب على اتيان ما لا يليق بك" فخرج الملك وابنتهُ ونجّى نفسهُ و بلادَهُ من العار . فالاخلاق قوةٌ حتى في الولد الصغير

وكان في احد شوارع ادنبورج غلامٌ صغير ذو وجهٍ أزرق هزيل يبيع علب ثقاب[1] وكانت قدماهُ حافيتين محمرَّتين ولا يسترجسمهُ الاَّ بعض اسمال[2] مع ان البرد كان قارسًا جدًا . فاستوقفَ احد المارّة وطلب منهُ ان يشتري منهُ شيئًا من الثِّقاب . فقال لهُ الرجل : انني لستُ بحاجة الى ذلك . فقال الفتى متوسلاً : ولكن ثمن العلبة بنس واحد . فقال الرجل : أعلم ذلك ولكنني لست محتاجًا الى علبة . فقال الفتى : اذًا أبيعك علبتين ببنس . قال الرجل وهو الذي روى هذه الحادثة في احدى الصحف : انني اشتريت علبةً لاتخلّص من إلحاحهِ ومددت يدي الى جيبي فلم أجد قطعًا صغيرة من النقود . فقلت لهُ : غدًا إن شاء الله أشتري منك علبة . فقال الغلام : بل اشترها الليلة يا سيدي لانني جائع وها انذا أذهبُ بملءِ السرعة وأُبدّل لك ما تشاء من النقود . فناولتهُ شلنًا وذهب وبقيت بانتظارهِ مدّةً فلم يرجع فقلت في نفسي انني قد خسرت الشلن. ولكن قد كان في ملامح ذلك الفتى شيءٌ حملني على الثقة بهِ فلم أشاء أن أُسيءَ بهِ الظنّ

وفي المساء جاءني الخادم وقال لي ان في الباب غلامًا يودّ مقابلتي فطلبت منهُ ان يُدخلهُ وكان هذا الغلام الأخ الاصغر للغلام الذي أعطيتهُ الشلن ولكنهُ كان اشدَّ منهُ نحولاً وثيابهُ أرثّ . فوقف دقيقةً يفتش عن شيءٍ في أسمالهِ ثم قال لي :

(١) عيدان الكبريت (٢) ثياب بالية

أحضرنك الذي اشترى ثقابًا من اخي سندي . فقلت نعم . فقال : هذه اربعة بنسات من الشلن الذي أعطيته اياهُ لصرفهِ لك . ولم يستطع سندي المجيء بنفسهِ لانهُ بعد أن صرف لك الشلن داستهُ مركبةٌ وهو عائد وكسرَتْ رجليهِ كلتيهما وقد اضاع قيمتهُ وما كان معهُ من الثقاب والأحد عشر بنسًا المختصة بك . وهو الآن في حالة سيئة جدًّا وقد قال الطبيب انهُ مشرفٌ على الموت . قال هذا ووضع الاربعة البنسات امامي على المنضدة وأجهش[1] بالبكاء . فقدمت للفتى طعامًا ليأكل ثم ذهبت واياهُ لرؤية اخيهِ

فوجدت ان هذين الغلامين اليتيمين يعيشان مع رابّة[2] لهما وهي امرأة سكّيرة مشؤومة . وكان سندي المسكين مضجعًا على كومة نجارة فحالما وقع بصرهُ عليَّ عرفني وقال : انني بعد ان صرفت لك الشلن داسني فرسٌ وأنا راجع وكسر رجليَّ كلتيهما . وانني متأكّد قرب موتي . فوا أسفي عليك يا روبي – من يعتني بك بعد موتي – ماذا يحلّ بك يا روبي "

فتناولتُ يد المسكين وقلتُ لهُ انني سأعتني دائمًا بروبي . ففهم كلامي ورفع نظرهُ اليَّ بكل عناء كأنهُ يريد ان يشكرني ثم أطبق عينيهِ الزرقاوين ورقد رقادهُ الابديّ الذي لا يعقبهُ عناء ولا شقاء

فهذا الغلام الوضيع قد كان ذا مبدإ قويم ومع انهُ لم يعرف الى اين هو ذاهب قد عرف اكثر من الذين داسوهُ بعربتهم ومن هم على شاكلتهم قيمة الشرف والصدق والاستقامة والاخلاص والعبقرية وهي الصفات التي تذهب بالمرء الى السماء

ولما حدث الذعر المالي في نيويرك سنة ١٨٥٧ عقد رؤساء المصارف فيها اجتماعًا لتبادل الآراء في الحالة فسئل كلٌّ منهم عن مقدار ما سُحب من مصرفهِ من المال في خلال ذلك النهار فاجاب البعض انهُ بلغ خمسين في المئة والبعض خمسة وسبعين . ولكن موسى تيلر رئيس مصرف نيويرك قال : كان لدينا في الصباح ٤٠٠

(١) هَمَّ بهِ وتهيَّأ لهُ (٢) امرأة الاب

الف دولار فصار لدينا في المساء ٤٧٠ الفًا. فقد كانت ثقة القوم بصرف نيويرك الذي بادارة المستر تيلر تزيد في حين كانت تقل بسائر المصارف حتى كان الناس يودعون في مصرفهِ ما يسحبونهُ من المصارف الاخرى من الاموال . فالاخلاق تولد ثقةً

وتفشت مرةً الحمى الصفراوية في ممفيس ونفدت حيل رجال لجنة الإسعاف في ايجاد ممرضين وممرضات. وبينما هم على هذه الحالة جاءَ رجل ذو ملامح خشنة وشعر كثٍّ يجرّ رجليهِ بصعوبة ونوجّه توًّا الى الاطباء وقال: أُريد ان اكون ممرّضًا

فاجابهُ الطبيب بعد ان تفرّس فيهِ وحكم انهُ غير صالح لهذه المهمّة: لا حاجة بنا اليك

فقال الرجل ملحًّا : جرّبوني اسبوعًا فاذا وجدتموني غير صالح للعمل تصرفونني بلا مقابل واذا رأيتموني قائمًا بهِ حق القيام تدفعون لي اجرتي

فقال لهُ الطبيب : حسن ما تقول. فسأقبلك وان يكن لديّ ما يحملني على التردُّد. ثم قال في ذهنهِ: انني ساجعلهُ تحت مراقبتي

ولكن الرجل ما لبث أن برهن انهُ ليس بحاجة الى مراقبة . ففي اسابيع قليلة صار من أمهر الممرضين . وكان على جانب عظيم من إنكار الذات لا يعرف للتعب معنىً . وحيثما كانت تشتدّ وطأة الوباء وفتكهُ كان يزداد همّةً وإقدامًا . وكان المصابون يحبونهُ حبًّا يقرب من العبادة. والمُهملون والمهجورون ينظرون الى وجههِ الخشن نظرهم الى وجه مَلَك

وغرابة مسلكهِ في ايام قبض المرتبات جعلت البعض يتأثرونهُ[1] ليعرفوا ما يفعل . فوجدوهُ يسير في الشوارع التي قلما يَطْرُقُها الناس حتى ينتهي الى مكان مظلم وهناك يضع كلَّ مرتَّبهِ الاسبوعي في صندوق من صناديق الإسعاف المخصّصة لفائدة المصابين بالحمى الصفراويّة . ولم يطل عليهِ الوقت حتى أُصيب بالوباء نفسهِ

(١) يتبعونهُ

وتوفي . ولم يكن قد صرّح باسمهِ قطّ ولكنهم لما اخذوا يهيئون جثتهُ بقصد إيداعها مقرّها الاخير وجدوا عليها سِمَةً زرقاء فعرفوا منها ان المرض جون كان من المجرمين الذين يوَسَمون عادةً بمثل هذه السِّمة بعد الحكم عليهم

ومن الامور الحريّة بالنظر ان نرى في هذا العصر السائد فيهِ التهافت على كسب المال ان للمؤلف المسكين او رجل الفنّ العليل الجسم او رئيس الجامعة المُمزّق الاردان[1] مقامًا في المجتمع لا يعادلهُ مقام المتموّل صاحب الملايين , ونرى الصحف تكتب عنهُ فصولاً لا تكتبها عن ذاك . ولعلّ السبب في ذلك ما تُحدثهُ المجاهدة لكسب المال من الضرر , وما تُحدثهُ الاعمال العقلية البحتة من النفع . فكل نجاح عظيم يصيبهُ امرؤ في كسب المال لا يتمّ الاَّ بجلبهِ البؤس والضرر على مئات من خصومهِ ومناظريهِ , وكل نجاح في عالم العلم والاخلاق انما هو إسعاف وإفادةٌ للمجتمع . فالاخلاق هي سِماتٌ لا تُمحى تُعيِّن قيمَ الناس الحقيقية واعمالهم

واننا كلنا نعتقد بالرجل القويم الاخلاق . وما أعجب القوة السحرية الكامنة في الاسم العظيم . وقد كان ثيودور باركر يقول ان رجلاً كسقراط لهو أثمن لِأُمّة من عدة ولايات مثل سوث كارولينا

قال جون روسل : ان من طبيعة الأحزاب في انكلترا انها تستمدُّ معونة اهل العبقريّة ولا تتبع الاَّ مشورة ارباب الاخلاق السلمية

وكتب كاننغ سنة ١٨٠١ : انني ابغي الحصول على القوة عن طريق الاخلاق الفاضلة ولن أجرِّب لذلك مسلكًا آخر . وانني واثقٌ الثقة التامّة بان هذا الطريق وإن لم يكن الأسرع فهو الأضمن

واننا نستطيع ان نحسب قوّةَ آلةٍ ما الى آخر درهمٍ من الضغط , وان نحدّدها بضبطٍ كما نحدّد درجة الحرارة في غرفة . لكن من يستطيع ان يحدّد قوة صاحب الأخلاق الفاضلة بدقّةٍ . ومن يستطيع ان يحدّد تأثير فتىً واحد او فتاة واحدة في

(١) اصول الاكمام

أخلاق مدرسة بتمامها . فربَّ مدرسة أثَّر فيها تلميذ او تلميذان من ذوي الاخلاق القوية فغيَّرا التقاليد والعادات والاساليب فيها الى سنين عديدة بنهجهما الخاص الذي لا تنقص اهميَّته لحداثتها . فهما من الابطال المدرسيِّين . وهؤلاء التلاميذ قوات حقيقية في الحياة أشبه بقاطراتٍ تجرُّ وراءها مركباتٍ مُثقَلَة أحمالاً . وما من أستاذٍ الاَّ يقصُّ عليك أنَّ مدارس عديدة رُفعت درجتها او انحطَّت بسبب تلامذةٍ اصحاب اخلاق قويةٍ كهؤلاء

كان في الجيش المتراجع عن موسكو سنة ١٨١٢ بين ثلوج شتاء روسيا القارس اميرٌ المانيٌّ حبَّبتهُ اخـــلاقهُ النقيَّة الى جميع جنودهِ . ففي ذات ليلةٍ باتوا جميعهم في خرائب مربضٍ للماشية وقد برَّح بهم البرد والإعياء والجوع . وعند الفجر استيقظ الامير دافئًا نشيطًا وأصغى للريح وهي تعصفُ وتزمجر حول المربض ثم نادى رجالهُ فلم يكن من مجيب . فأجال بصرهُ في ما حولهُ فرأى جُثثهم الهامدة مُغطَّاةً بالصقيع وعباآتهم كلها مطروحةً فوقهُ . فهم قد بذلوا حياتهم ليخلِّصوهُ

وفي بعض الاساطير القديمة ان الملك ميداس سأل أن يتحوَّل كلُّ شيءٍ يمسُّهُ الى ذهب ، وفي يقينهِ أنهُ سيحصل بذلك على السعادة . فأُجيبت طلبتهُ . ولكنهُ لما رأى ان ملابسهُ وطعامهُ وشرابهُ والازهارَ التي اقتطفها ، وابنتَهُ الصغيرة التي قبَّلها ، قد تحوَّلت كلها الى ذهب ، سأل الآلهة ان تنزع منهُ هذه المنحة . وعلم إذ ذاك أنَّ في الكون أشياء كثيرةً هي في الحقيقة أثمنُ جدًّا من الذهب الذي يمكنُ استخراجهُ من باطن الارض في كل حين

وقالت كورنيليا لسيدة زارتها وطلبت منها أن تُريها حلاها : "هؤلاء هم جواهري" مشيرةً الى اولادها العائدين من المدرسة . فكان هذا الجواب جديرًا بابنة سيبيون الافريقي وقرينة طيباريوس غراخوس . فأثمنُ منتجاتِ بلادٍ رجالها

قال ڤولتير : انني لا اعرف رجالاً عظامًا الاَّ الذين قدَّموا خدمات عظيمة

الجنس البشري . فالناس انما يُقاسون باعمالهم لا بما تملكهُ ايديهم على حد قول ابن الوردي

قيمة الإنسان ما يُحسِنهُ أكثر الإنسان منهُ أم أقلّ

وفي الاحتفال المئويّ لمدينة دنثر ماس (الولايات المتحدة) فُضّ كتابٌ مختومٌ فاذا فيهِ الجملة الآتية : " ان التربية في الدّين المترتب على الجيل الحاضر للجيل المقبل " ومع هذهِ الجملة سفتجة بقيمة عشرين الف دولار لإنشاء مكتبة وطنية ومدرسة للعلوم العالية (اكاديمية) . وكان المرسل جورج بيبودي احد افراد زمانهِ وهو قد نشأ بين مخالب الفقر فتدرّج حتى صار صرّافاً تُعد ثروتهُ بالملايين . وأُقيمت لهُ في تلك المدينة بعد عدة سنوات مأدبةٌ اكراميةٌ فتبرّع في اثنائها بمئتين وخمسين الف دولار للمدرسة نفسها وقال : " ان الصدق الثابت الغير المتقلقل ، والاستقامة الغير الهيّابة المخلصة ، والشرف الذي لا تشوبهُ شائبة قول او عمل غير لائق ، لهي صفاتٌ تُكسب صاحبها من العظمة ما لا يوصلهُ اليهِ النجاح الماديّ والرخاء . فهي وحدها اركان العظمة "

وشرف ا .ت . ستوارت واستقامتهُ قد أكسباهُ شهرةً طائرة . فهو قد بدأ حياتهُ في نيويرك بصفة استاذ مدرسة وكسبهُ اليوميّ اقل من دولار فما زال يتسلّق قُمَم النجاح حتى جمع نحواً من اربعين مليون دولار وليس بين هذه الملايين كلها دولار مُدنّس

ولمّا هجم الرعاع في ثاني ايلول سنة ١٨٩٢ على سجون باريس الغاصّة بجماعات الاعيان والكهنة وأعملوا فيهم الفؤوس والحراب لح مونو ، وهو احد الثائرين ، في وسط هذه المذبحة الأب سيكار الذي كان قد قضى معظم حياتهِ في تعليم الصمّ والبكم ولم يكن يعرفهُ الاّ بالوجهِ والسمعة . فوقفَ بينهُ وبين الثائرين صائحاً : " هاكم صدري فمرّوا عليهِ قبل ان تصلوا الى هذا الوطني الصالح . انكم لا تعرفون من هو . فانا انبئكم أنّ هذا هو الأب سيكار الذي هو بمقام الأب للصمّ والبكم . فهو من اكبر المحسنين

وأنفعهم لوطنه. "فلم يكتفِ النملة المتألمون بالامتناع عن إيلاء هذا الأب بل قبلوهُ وحملوهُ الى منزلهِ على الاكف. فالاخلاق الفاضلة تؤثر تأثيرًا عظيمًا حتى على مثل هذا الجمهور المتلطخة ايديهِ بالدماء

وهل نعدُّ من تدلُّك ملامحهُ البهيمية الشرسة على انهُ انما جمع ثروتهُ بالاخذ دون العطاء رجلاً مفلحًا؟ أو لا نقرأ على جبينهِ المقطّب آلام الارامل واليتامى؟

وهل من أمات الآخرين ليحيي نفسهُ، وهدم بيوت غيرهِ ليبني بيتهُ، يُعدُّ امرءًا عصاميًا؟ وهل في طاقة امرئ ان يكون غنيًا حقًّا اذا كان يجعل الآخرين فقراء، أو ان يكون سعيدًا. وعلامة البخل الراسخ ظاهرةٌ على كل ملامحهِ باتم جلاء، كما تظهر علامات الجوع على هيئة الذئب؟ وما اقلَّ ما نرى وجوه الاشخاص الحاصلين على نجاح مفرط - كما يحسب الناس النجاح - أنيسةً صافيةً جميلة. فالطبيعة تكشف ما هو متسلطٌ على قلب المرء من الاميال على محيّاهُ وفي تصرُّفاتهِ

وما من احدٍ يستحق اكليل الشرف اذا كان في حياتهِ من الخاسرين، ومن كان يعيش ليأكل و يشرب ويجمع مالاً فقط فليس في الحقيقة من المفلحين. فالعالم لا يتحسن حالهُ بوجودهِ فيهِ على الاطلاق، لانهُ لم يمسح دمعةً عن وجه كئيب، ولا أوقد نارًا في بيت يرتجف اهلوهُ من البرد، وابس في قلبهِ حنوٌّ، وهو لا يعبد الله بل المال

وفي ايام حركة القائلين بالغاء الاسترقاق في اميركا ألَّف خصومهم جمعيَّةً عظيمة باسم "اللجنة الاتحادية المنقذة" واجتمعت هذه اللجنة في كاسل غاردن في نيويرك وقرَّرت ان تُوضعَ اسماء التجار الذين لا يقاومون "المتعصبين" في قائمة سوداء ويُسحقوا ماليًا. اما التجار بوئن وماك نامي فأعلنوا أنهم يريدون ان يبيعوا حريرهم ولكنهم يأبون ان يبيعوا مبادئهم. فأحدث موقفهم المستقلّ ضجَّة عظيمة في طول البلاد وعرضها، وتهافت الناس على الشتري من هؤلاء الاشخاص الذين لا يبيعون مبادئهم

فالعالم ينقلب دائمًا عن اشخاص ليسوا كالسلع المعروضة للبيع ، شرفاء خالين من كل الشوائب ، ملء قلوبهم إخلاص ، ضمائرهم ثابتة ثبوت الحُك في اتجاهو الى القطب الشمالي ، يتصدّون للدفاع عن الحق ولو اهتزّت السماء وارتجّت الارض ، يتكلمون بالصدق غير هيّابين ولا وَجلين ، لا يتصلّفون ولا يفرّون ، ولا يهِنون ولا ينكسرون ، يُقدمون عند الحاجة ولا يتباهون بشجاعتهم ، يعرفون واجباتهم ويتممونها ، لا يكذبون ولا يتملّصون ، لا يخافون ان يقولوا : لا بتأكيد ولا يخجلون ان يقولوا : لا اقدر ان أفعل هذا الأمر

ولما جُرح السر فيليب سدني في زتفن جرحًا ميتًا وبرّح بهِ الظمأ لفرط ما سال من دمهِ جُلِب لهُ ماء واتفق اذ ذاك أن مُرَّ من امامهِ بجنديّ جريح محمول على مِحفّةٍ[1] فنظر الجندي الى الماء نظرةَ الرّاغب . فألحّ سدني بعطائهِ الماء قائلاً له : " انك أحوج اليهِ مني " . وقد مات سدني ولكن صنيعهُ هذا وحدهُ يكفي لأن يجعل الناس يذكرون اسمهُ بالثناء في حين ان اسم الملك الذي خدمهُ قد انطوى في ظلمات النسيان

" وما أشبه هذا العمل بما جاء في اخبار العرب عن كعب بن مامة الايادي الذي خرج في ركب معهم رجلٌ من بني النمر بن قاسط وكان ذلك في معظم الصيف فضلوا وقلّ ماؤُهم فكانوا يتصافنون الماء . وذلك ان يُطرَح في القعب حصاةٌ ثم يُصَبّ فيهِ من الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشرب كل واحدٍ قدر ما يشرب الآخر . ولما نزلوا للشرب ودار القعب[2] بينهم حتى انتهى الى كعب رأى الرجل النمري يحدّد النظر اليهِ فآثرهُ بمائهِ وقال للساقي اسقِ اخاك النمريّ . فشرب النمريّ نصيب كعب من الماء ذلك اليوم . ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر فتصافنوا بقيّة مائهم فنظر اليهِ النمريّ كنظرهِ امس وقال كعب كقولهِ أمس . وارتحل القوم وقالوا : " يا كعب ارتحل " فلم يكن له قوّةٌ للنهوض . وكانوا قد قربوا من الماء فقالوا له : " رِدْ يا كعب

(١) هودج (٢) القدح الضخم الجافي

إيّك وزّاد". فعجز عن الجواب . ولما يئسوا منهُ خيّلوا عليهِ بثوب يمنعهُ من السّبع ان يأكله وتركوهُ مكانهُ فمات "

وذكرت فلورنس نيتنغال عن جنودٍ أُصيبوا بالزحير (الدوسنطاريا) فلم يشاؤوا ان يعلنوا حقيقة ما بهم لئلا يزيدوا أعباء رفقائهم الجنود واستمرُّوا على الذهاب الى الاستحكامات فكانت لهم أسرَّة الموت . فلا ريبَ في أنَّ في صنيع من يضحّي بوقتهِ وقوّتهِ وحياتهِ عند الحاجة لموضوع غير نفسهِ – سواء دعا ذلك الموضوع ملكهُ ، او وطنهُ ، او جنسهُ ، او اخوانهُ في البشرية – شيئًا من التديُّن الحقيقيّ أكثر مما في كل ما وُضع حتى الآن من الصيامات النسكيّة والتقشُّفات والاعترافات

قال امرسون : انني قرأت ان الذين سمعوا اللورد شاتام كانوا يشعرون بان في الرجل شيئًا أجمل من كل ما يقولهُ . وقد شكوا من كارليل انهُ بعد ان سرد جميع اعمال ميرابو لم يجدوا فيها ما يصوِّب إعجابهُ بهِ . وغراخوس واجس وكليومانس وغيرهم من الابطال الذين ذكرهم بلوطرخس [1] اذا تصفحتَ اعمالهم لا تجدهم مُعادلين للشهرة التي أحرزوها . والسر فيليب سدني والسر ولتر رالي لهما سمعةٌ كبيرة وأعمالٌ قليلة . وانَّنا لا نجد أقلَّ جزء من اهمية وشنطن الشخصية في تعداد مآتيهِ . وشهرة شيلر الطائرة اعظم جدًّا من كتبهِ . ولا نستطيع ان نعلّل ما نراهُ هنا من عدم التساوي بين شهرة الرجل واعمالهِ بقولنا ان صدى الرعد أبعد مدًى من قصفهِ . والحقيقة أنَّ في هؤلاء الاشخاص وأمثالهم شيئًا خفيًا جعلَ الآمال المعلَّقة عليهم فوق ما قاموا بهِ من الأعمال . فمُعظم قوَّتهم كان مستترًا . وهذا ما ندعوهُ بالاخلاق وهي قوَّة احتياطيةٌ تفعلُ فعلها مباشرةً بحضور الشخص نفسهِ وبدون واسطة . والتأثير الذي يُحدِثهُ الآخرون ببراعتهم أو بلاغتهم يُحدثهُ صاحبُ الاخلاق بنوع من المغنطيسية . فهو لا يُبرز الاَّ نصف قوَّتهِ . وفوزهُ انما يكون بإظهار افضليتهِ لا بالحراب المشتبكة .

---

(1) مؤرخ يوناني مشهور وضع كتابًا عن تراجم عظماء الرجال من اليونان والرومان (٥٠–١٢٠)

فهو يستظهر(١) لان مجرّدَ حضوره يغيّر مجرى الاحوال

وفي كل بلادٍ من البلدان رجالٌ ونساءٌ يتغلّبون قبل ان يتكلموا . فهم يُحدثون تأثيرًا لا تناسب بينهُ وبين مواهبهم على الاطلاق . والناس يستغربون امرهم ويتساءلون عمَّا هو سرّ مقدرتهم هذه . ولا غروَ أن نرى الناس على اختلاف طبقاتهم يعتقدون بأصحاب الاخلاقِ ويتبعوهم فانّ الاخلاق قوّة . ولم يُحدث قيصر على الشعب الروماني قطُّ تأثيرًا اعظم ما أحدثهُ وهو ملقًى على ارض مجلس الشيوخ وقد مزّقتهُ الخناجر ايَّ ممزّق فكانت جراحهُ الدامية أفواهًا ناطقةً بالدفاع عنهُ

وقد قيل عن الجنرال شريدن : " انهُ لو كان لهُ مبدأ(٢) لتسلّط على العالم بأسرهِ " . وما أقلَّ عدد الشبان الذين يصدّقون ان نجاحهم في الحياة يتوقف على ما هم متحلّون بهِ من الأخلاق اكثر مما على ما اقتبسوهُ من المعارف . فالاخلاق لا المهارة هي التي سبَّبت انتخاب وشنطن ولنكلن لرئاسة جمهورية اميركا . وقد دفع وبستر لاجلها ثمنًا غاليًا هو شرفهُ ومبادئهُ . ولمَّا سمع احد المزارعين انهُ أخفق في الانتخاب قال : " ان الجنوب لا يدفع ثمن ارتقائهِ ابدًا "

فما هو المبدأ الذي كان يعوز نبوليون ووبستر ؟ أما هو الأمانة حتى الموت لِأَسمى غايةٍ من الكمال تمكَّنت البشرية من إنتاجها حتى الآن ؟ فهذا ما نستحسنهُ ونحترمهُ في الاشخاص المقتدرين الذين أصولهم راسخةٌ في الارض وفي اخلاقهم من الصلابة ما يحفظهم في مراكزهم كشجر السنديان في حين كلُّ ما حولهم يدور مترنحًا

وقد قال كوسوث(٣) لما وُعد في احدى ممالك الشرق بالحماية والمساعدة على شرط ان يُغيّر دينهُ : " انني لم أتردد قط في الاختيار بين الموت والعار . فانا مع انني كنت حاكمًا لشعب كريم لم اجمع ثروةً اتركها لاولادي , وهذا خبزٌ لي من سمعة سيئة . فلتكن مشيئة الرب . اني مستعدٌ للموت " وقال في وقت آخر : " ان يديَّ فارغتان ولكنهما نقيّتان "

---

(١) يتغلب (٣) احد مشاهير هنغاريا وزعيم الثورة التي شبّت فيها سنة ١٨٤٨

ودُعي بتراركَ[1] مرّةً الى المحكمة لتقديم شهادة فلمّا تقدّم ليحلف اليمين حسب العادة قيل لهُ ان المحكمة لها من الثقة بصدقهِ ما يجعلها تكتفي بكلامهِ دون ان يُقسم على صحة ما يقولهُ

وعُرِضت على هوغ ميلر وظيفة امين صندوق في مصرف كبير فرفضها معتذرًا بقلّة خبرتهِ في الحسابات وبانهُ ليس في وُسعهِ ان يقدّم كفيلاً. فقال لهُ المستر روس رئيس المصرف: اننا لا نطلب منك تقديم كفالة. وكان ميلر يجهل ان المستر روس يعرفهُ. فاخلاقنا دائمًا تحت المراقبة سواء شعرنا بذلك ام لم نشعر

وكتبت فيتوريا كولونا الى زوجها عند ما ألحّ عليهِ أُمراء ايطاليا في ان يترك معاضدة الاسبانيين الذين كان مرتبطـــاً معهم بأوثق روابط الاخلاص: "تذكَّرْ شرفك الذي تسمو بهِ على الملوك. فبهِ وحدهُ لا بالالقاب ولا بالأُبهة تنال المجد وهذا المجد سيكون موضوع سعادتك وفخرك الذي تورثهُ بنيك طاهرًا نقيًّا"

ولما كان ثورو في حالة الاحتضار دنا منهُ صديقٌ كلفينيٌّ وسألهُ بقلق: "هل أجريت مصالحتك مع الله يا هنري؟" فأجابهُ ذلك العالم الطبيعيّ بصوتٍ ضعيف: "لا عِلم لي بأني اختصمت مع الله على الاطلاق"

وكان لنكلن مع أنهُ رئيسٌ لشعب عظيم موضوعَ هزء لاعيان اوربا والدوائر المتأنقة فيها. وكانت الصحف الاوربية المصورة تنشر عنهُ رسومًا هزليّةً انتقاديةً ممثّلةً ما هو عليهِ من السماجة وعدم اللياقة، وكان الساسة يتعضون من بساطة أوراقهِ الرسميّة ويودّون لو جعلها اكثر مطابقة للاصطلاحات. أما هو فكان يجيبهم: "ان الشعب يفهمها". وكان القوم في وشنطن نفسها يهزأُون بهِ وينعتونهُ "بالقرد" "والجلف البليد" "والساتير"[2] وما شاكل ذلك من النعوت. وقد قال مرّة عند مطالعتهِ هذه الانتقادات المؤلمة: "ويحك يا ابرهيم لنكلن أانسان انت ام كلب"

---

(1) شاعر ايطاليّ شهير (١٣٠٤–١٣٧٤) (٢) حيوان خرافيّ من معبودات القدماء نصفهُ انسان والنصف الآخر تيس

وقال بعد التراجع عن فربدربكسبرج : "لو علمت أنّ في غير الجحيم انسانًا يكابد فوق ما أُكابدهُ لرثيت لهُ". ولكنّ عامّة الشعب كانت تشاركهُ في عواطفهِ . وقد مرّت على العَمَلة المساكين في اوربا اوقاتٌ كادوا يهلكون فيها جوعًا بسبب الحاجة الى القطن ومع ذلك لم يرفعوا صوتًا في مطالبة حكوماتهم بالتدخل لرفع الحصر الذي وضعهُ لنكلن . فالطبقة العاملة في العالم كلهِ كانت واثقةً بهِ ومشاطرةً اياهُ الشعور

ولم يقم انسانٌ قط صحّ فيهِ قول الشاعر الانكليزي كما صحّ في لنكلن من " ان جميع العناصر امتزجت فيهِ بحيث ان الطبيعة تستطيع ان ترفع رأسها وتقول للعالم كلهِ : هوذا إنسان"

وكان لنكلن يتطلّع دائمًا الى الكمال التامّ في الاخلاق . وكان زملاؤهُ في المحاماة يقولون عنهُ انهُ " شريف الى حدّ العناد " فلم يكن يقبل بواسطة من الوسائط ان يتولّى الدفاع عن شخص ليس الحقّ في جانبهِ او ان يواصل الدفاع عن موكّلهِ بعد ان يثبت لهُ انهُ غير مصيب في دعواهُ ، أو أن لا أمل بنجاحهِ . وقد حدث انهُ بعد ان قضى وقتًا طويلاً في درس دعوى كان قد تناول عليها اجرةً مائتي دولار من احدى السيدات أعاد اليها المبلغ قائلاً : " ايتها السيدة ليس لديكِ أقلّ حجّةٍ تستندين اليها في دعواكِ ". فقالت لهُ : " ولكنك قد استحققت هذه الاجرة بتعبك " فاجابها : " كلاّ إنكِ غير مصيبة في هذا فانا لا اتناول اجرةً مقابل إتمامي واجباتي "

فمن الواجب ان يكون في حياة المرء شيء أعظم من مهنتهِ او إنشاآتهِ ، واكبر من الكسب او الثروة ، وأعلى من العبقريّة ، وأبقى على الأيام من الصيت . والأفراد والشعوب يُعلّقون رجاءهم على التربية والتهذيب وتأثيرات المدنية المتنيّة ، ولكنّ هذه وحدها لا تقدر ان ترقّي شعبًا أو تنجّيهُ . فان الفنون والبذخ والانحطاط ما برحت رفيقاتٍ متحاباتٍ على مدى العصور

وإذا كان في العالم قوّةٌ تجعل الناس يشعرون بتأثيرها فانما هي الاخلاق .

فقد يكون المرء على جانبٍ قليل من التهذيب والمهارة ، ولا يكون له مُلْكٌ ، ولا مركز في المجتمع ، ومع ذلك يحصل على نفوذٍ ، ويضمن لنفسهِ الاحترام ، اذا كان ذا اخلاق سامية

فالعمل السديد ينقر على وترٍ ممتدٍ في العالم بأسرهِ ملامسٍ لكل ادراكٍ أدبيٍّ متّصل بكلّ بيئةٍ يهتزّ على طول خط امتدادهِ وينقل اهتزازاتهِ الى عرش الله عزّ وجلّ

سأل لويس الرابع عشر وزيرهُ كولبرت كيف لا يمكنهُ وهو متسلِّطٌ على مملكة عظيمة كثيرة السكان كفرنسا ان يقهر مملكةً صغيرةً كهولندا . فقال له الوزير : "يا مولاي ان عظمة بلد من البلدان لا تقوم بسعة مساحتهِ بل باخلاق سكّانهِ"

وان اخلاق الرجال العظـــام في أُمّةٍ هي تَمهر تلك الأُمّة . فقد قال دبّاغٌ انكليزيٌّ أحرزت جلودهُ شهرةً واسعةً انهُ لم يكن ليجيد دبغ الجلود كل هذه الإجادة لو لم يكن قد طالع مؤلفات كارليل . وقيل ان فرنكلن أصلح أساليب معمل بتمامهِ في لندن . وارسطو وتينيان كان كلٌّ منهما يُذكي قريحة الآخر ويُذيع صيتهُ . وقد قيل : "قل لي بمن انت معجبٌ فأقول لك من أنت" . فان مطالعة كتابٍ او الوقوف على اثرٍ فنّيٍ لمَمّا يضعنا في الحالة الفكرية التي كان فيها مؤلف ذلك الكتاب او منشئُ ذلك الأثر عند وضعهِ له . وهل ميخائيل انجلو ميت ؟ سل عن ذلك مئات الالوف الذين تأملوا في آثارهِ الخالدة في رومية بنفوس متهللة تجد انهُ قد عاش وساد الوفًا من الاعمار . وهل وشنطن وغرانت ولنكن امواتٌ ؟ انهم لم يكونوا قطُّ احياء كما هم الآن . فما من قلبٍ او منزلٍ اميركيٍّ إلاّ يحتفظ باخلاقهم بمودّةٍ وإجلال

تمثّلْ لنفسك اذا استطعت مصر بدون موسى ، وبابل بدون دانيال ، واثينا بدون ذيموستين وفيدياس وسقراط وافلاطون . وماذا كانت قرطاجة لمئتي سنة خلت قبل المسيح بدون هنيبال ؟ وماذا كانت رومية بدون قيصر وشيشرون

ومرقس اوريليوس ؟ وما هي باريس بدون نبولبون وهيغو والأب هياسنت ؟ وما هي انكلترا بدون نيوتن وشكسبير وملتن وبيت وبارك وغلادستون ؟

وقد كان اسم دانتي كلمةَ السرّ لاهل ابطاليا في خلال كل عصور الانحطاط التي اجتازتها تلك البلاد وكانت اقوال شيشرون وسيبيون وغراخوس المهيجة ترنُّ أصداؤُها في أدمغة عبيدٍ كثيرين . وقد قال بيرون : " ان الطليان في هذا الاوان يتكلمون " دانتي " ويكتبون " دانتي " ويفكرون " دانتي " مغالين في ذلك مغالاةً تكاد تكون مضحكة ، الاّ ان ذلك النابغة يستحق إعجابهم " . وبلاد اليونان نفسها لم تكن في عهد انحطاطها بمعزلٍ عن تأثير نوابغ عصرها الذهبيّ . وهم لا يزالون ذوي سلطةٍ في المعمور بأسرهِ وقوّتهم الآن في مملكة الفكر والشعور أشدُّ منها حين كانوا أحياء . وعقولنا انما هي مكيَّفة بتأثير عقول الذين ندعوهم امواتًا وتأثير عقول الذين لا يزالون رفقاءنا في الحياة ولا يقلُّ التأثير الاوّل عن الثاني . فدسانير إيماننا تتقدّس وتتشرّف بتعبُّد الشهداء الذين نشاطرهم ما قاسوهُ من الآلام تحت الاضطهاد بمشاركتنا لهم في العواطف . واعمالنا هي كما تُوحي الينا تصوُّراتنا ان نفعل لو وُجدنا في مثل تلك الاحوال

والحياة الدافلة التي لا غرض لها تدع أثرها الواضح على الاخلاق كما جعل الخالق عزّ وجلّ على جبهة قايين أثرًا دالاًّ على جريمتهِ . ومن الجهة الأُخرى نرى أناسًا يُعنى بهم كل مخلوق حتى كلاب الأزقة . فالاخلاقُ قوّةٌ

ونحن نشبه الحشرات التي تتلوّنُ بالوانِ الاوراق والنباتات التي تغتذي بها ، لأننا عاجلاً أو آجلاً نصير مشبهين غذاء عقولنا والمخلوقات التي تعيش في قلوبنا . وكلُّ عمل وقول ومعاشرة في حياتنا تُكتب بقلمٍ حديديٍّ في تركيب كياننا. وأشباحُ فُرصنا المقتولة وقوّاتنا المبدَّدة ووقتنا المُضاع تنهض ابدًا لتعنِّفنا ولا نشاء ان تهجع . وعلينا ان نعلم ان النظير لا يولِّد الاّ النظير ، وانّ ثمرة البلوط اذا نبتت فانما تصير بلوطة ، وانّ شبيهَ الشكل منجذبٌ اليهِ ، وأنّ بين الاشياء المتقاربة نسابةً تؤلف

بينها ، وان كلاً منها يُكسب الآخر مزاياهُ لا غيرُ وليس في طاقتهِ ان يفعل عكس ذلك

فمعاشرةُ الصالح انما تُكسِبُ صلاحًا ، ومعاشرةُ الخبيث تكسِب شرًّا ." وقد قال الشاعر العربيّ

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي"

ولا عبرة بكون معاشراتنا بطيئةً أو في طيّ الخفاء فان صُوَرَها تظهر عاجلاً أو آجلاً على وجوهنا وفي سلوكنا . وما تولَع بهِ قلوبنا يظهر في عيوننا ، ويتجلى في تصرفاتنا ، ويكشف سرّنا ، ورفقاؤُنا وصداقاتنا وعداواتنا ومجاهداتنا وانتصاراتنا وانكساراتنا وتهتكاتنا وأميالنا ومكايدنا وشرفنا وخزينا كل هذه تعلّق كتاباتها التي لا تمحى على نوافذ نفوسنا وتعلنها للملإ . والقلوب السوداء تُلقي على وجوه اصحابها ظلالاً سوداء لا يستطيع كلُّ ما فيهم من قوّة الارادة ان يُزيلها . ويا للمشهد الذي يتمثّل على محيّا الرجل المتهتك ! فثمّة الحانات و بيوت الفجور واهلُ الخلاعة والرفقاء الدنِسون والمناظر المقزّزة النفوس والاستعطافات والصدود والمصارعات للفوز بالأماني والمقاصد الخائبة والانكسارات المحزنة . وما أسطع النور المتألّق على وجوه الذين انتصروا على التجارب ونظّموا قواهم في الجهاد لترقية النفس والسير بها في طريق الكمال !

وأعظمُ رجل في نظري هو من يُعتقني من قيود الاشياء المحيطة بي ويُطلق لساني ويُزيل السدود الحائلة دون استعمال قواي ومواهبي . فهو بمثابة عدسةٍ لبصري الحاسر(١) أرى بها الأشياء أجلى وأوضح الى مسافة أبعد . فتهتزُّ اعصابي لشعوري بما اكتسبتهُ من القوة الجديدة ويرتجف كياني بأسرهِ بالمجاري المغنطيسية المتصلة بي من نفس أخرى

وان الغضب لا يُنتجُ الاّ الغضب ، والبغض انما يُولد البغض ، فالعواطف تنتقل

(١) الكليل والضعيف

بالعدوى . ويذكر الممثلون انهم كثيرًا ما يذهبون الى ملعب التمثيل والغمُّ مستولٍ على افئدتهم والكآبة آخذة منهم كلّ مأخذ في حين يكون عليهم ان يمثّلوا ادوارًا بهجةً مفرحةً فلا يكون من تناسب بين حالاتهم النفسيَّة وما يترتب عليهم ان يظهروا بهِ من المظاهر. ولكنّ ناموس المصاحبة والتلقين هو من القوّة بحيث انهم لا يكادون يقفون مواقف الاشخاص التي يمثّلونها حتى تتولّد فيهم الشواعر الحقيقية المختصة بها

قال امرسون : ان الاخلاق معروفة دائمًا . فما كانت السرقات تجلب الغنى ، ولا الصدقاتُ تجلب الفقر. وان القتل يبوح بسرّهِ من داخل الجدران الحجريَّة . واقلُّ مزيج من الكذب — كشائبة العجب مثلاً ومحاولة احداث تأثير موافق والظهور بمظهر ملائم — انما يُفسدُ النتيجة المقصودة في الحال . فقل الصدق تجد ان الطبيعة وكلّ ما فيها تساعدك مساعدةً غير منتظرة

وان الاخلاق لهي رأس مال الفقير

قال ڤولتير بينما كان يُعدُّ كتابهُ "تاريخ لويس الرابع عشر" : "انني لما طلبت منك بعض نوادر عن عصر هذا الملك لم أعنِ الملك نفسهُ بقدر ما عنيت الفنون التي أزهرت في ايامهِ . فانا أُوثر ما يتعلّق من التفاصيل براسين وبوالو وسيلي وموليير ولبران و بوسيه و پوسين وديكارت وأمثالهم على ما يتعلّق منهـــا بمعركة ستنكرك . فان الذين يقودون الجحافل والاساطيل لا يبقى بعدهم الّا اسمهم وما من نتيجةٍ تحصل للجنس البشريّ من الفوز في مائة معركة . اما الرجال العظام الذين تكلمتُ عنهم فقد أوجدوا مسرّاتٍ طاهرةً دائمةً للاجيال المقبلة . فترعةٌ تضمّ بين بحرين ، أو صورةٌ من صنع پوسين[1] ، او مأساةٌ بديعةٌ ، او حقيقةٌ مكتشفةٌ ، لهي أثمن بألف مرّة من حوادث البلاط ووقائع الحرب. وانت تعلم ان الرجال العظام عندي هم في الدرجة الاولى والابطال في الأخيرة . وانني أدعو عِظامًا كلّ الذين يتفوّقون

(١) احد مشاهير المصورين الفرنسيين (١٥٩٤—١٦٦٥)

في عملٍ ما هو نافعٌ أو بديع . اما مكتسحو(١) البلدان فليسوا الاّ ابطالاً "

ووُجِدت على قبر ملك مصريٍ عاش في عصرٍ وثنيٍ منذ أكثر من اربعين قرنًا الكتابة الآتية : " انني لم أُوْذِ ولدًا ، ولا ظلمتُ ارملة ، ولا أهنت راعيًا ، ولم يكن في ايامي متسوّلون ، ولا هلك احدٌ جوعًا ، ولما جاءت سنو المجاعة زرعت كل اراضي مملكتي حتى أقصى حدودها الشمالية والجنوبية وأطعمت كلَّ سكانها موجدًا لهم القوت . فلم يمت فيها احدٌ جوعا . وقد جعلت الارملة تعيش كما لو كان لها بعل " . فهل يقدر متسلِطٌ في عصرنا هذا المتنوّر ان يقول مثل هذا القول

ففي الكون أناسٌ يتخذون الشرفَ رفيقًا لنفوسهم ، ويجسّمونهُ في اعمالهم ومعايشهم ، وألسنتهم تنطق بهِ ، وهم يحيون فيهِ ومعهُ وبهِ ، وايديهم مخلصةٌ لهُ ، وهم مفعمون منهُ ، يحبونهُ وهو لهم بمثابة اله ، لا يحوّلهم عنهُ مالٌ ولا أكاليل ولا شهرة . وهو يجعلهم ظُرَفاء شُرَفاء عُظَماء مُقدِمين مستقيمين

قال فيلبس بروكس : لم يصل احدٌ الى العظمة الحقيقية الاّ وقد شعر بان حياتهُ مختصةٌ ببني جنسهِ ، وان ما أعطاهُ اياهُ الله فقد اعطاهُ اياهُ ليخدم بهِ الجنس البشريّ



(١) اكتسح البلاد أغار عليها واخذ كل ما فيها

الفصل الثالث عشر

الشَغَف بالتدقيق

التدقيق هو الأخ المتائم للاستقامة — س . سيمونس

العبقرية في الطاقة الغير المحدودة في تحمُّل المشاق — كارليل

انني امقت عمل الشيء ناقصاً . فاذا كان صواباً فاعمله بجسارة واما اذا كان خطأ فدعه ولا تعمله — جيلبن

لو كنت اسكافاً لكان فخري ان أمتاز على كل الأساكفة ولو كنت تنكاريا[1] لما استطاع تنكاري آخر ان يصلح قدرًا قديمة العهد مثلي — أغنية قديمة

اذا كان امرؤ يجيد تأليف كتاب، أو انشاء عظة، أو صنع مصيدة للفار، إجادةً يمتاز بها على جاره فان الناس يشقون طريقاً نافذًا الى بيته ولو بنى منزله في الغابات — امرسون

اشترى رجلٌ ساعةً من محل جورج غراهام[2] في لندن وسأل صاحب المحل كم من الزمن تبقى هذه الساعة دالّةً على الوقت الصحيح بدون خلل . فقال له : "يا سيدي انني قد صنعت هذه الساعة وضبطتها بنفسي . فاصطحبها حيث شئت . واذا جئتني بعد سبع سنوات وقلت لي انه قد حصل فيها خلل خمس دقائق فانني

---

(١) هو المعروف عند العامة بالسنكري (٢) ساعاتي وميكانيكي انكليزي مشهور (١٦٧٥–١٧٥٨)

أُعيد اليك ثمنها". وبعد مضيّ سبع سنوات عاد الرجل المذكور من الهند وقال: "يا سيدي هذه ساعتك أردُّها اليك"

فقال غراهام: انني اذكر الشرط الذي بيني وبينك فأرني الساعة وقل لي ما تشكو منها

قال الرجل: قد مرّ عليها عندي سبع سنوات وقد حدث فيها خللٌ يزيد عن خمس دقائق

فقال غراهام: أحقٌ ما تقول. فانا أُعيد اليك دراهمك اذًا

فقال الرجل: انني لا أتخلّى عن ساعتي فقد دفعت عليها عشرة أضعاف هذه القيمة

فاجابهُ غراهام: وانا لا أنقض كلامي لأي اعتبارٍ من الاعتبارات

وهكذا أعاد اليهِ القيمة واسترجع الساعة وصار يستعملها لضبط غيرها من الساعات عليها

وقد أخذ غراهام هذه الصناعة عن تامبيون وهو أدقُّ صُنّاع الآلات في لندن إن لم نقل في العالم كلهِ. وقد كان وجود اسمهِ على ساعة يُعدّ برهانًا قاطعًا على نفاستها. وقد جاء اليهِ مرّةً رجلٌ يسألهُ اصلاح ساعة محفور عليها اسمهُ تزويرًا فتناول مطرقةً وحطّمها ثم ناول الرجل الذي تولاّهُ الاستغراب ساعةً من أفضل ساعاتهِ قائلاً: "هاك ساعةً من صنعي يا سيدي"

وقد اخترع غراهام "الرقّاص الزئبقي المعوّض" و"ميزان الساعة الميت" و"آلة تصوير الاجرام السماوية" وكل هذه الآلات باقيةٌ على الحالة التي وضعها عليها. وقد ظلّت الساعة التي صنعها لمرصد غرينويش سائرةً مائة وخمسين سنة ولم تكن تُدار الاّ مرّة في كل خمسة عشر شهرًا. وقد دُفِن تامبيون وغراهام في دير وستمنستر(١) بسبب إتقان صنعهما

(١) مدفن العظماء في انكلترا

وعلى الملاّح لكي يستوثق من سلامتهِ ان يعرف بعدهُ بالضبط عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً وعن نقطةٍ معيّنة مثل غرينويش أو باريس أو وشنطن شرقاً أو غرباً . ويمكنهُ ان يحصل على هذه المعرفة حين تكون الشمس مشرقةً اذا كان لديهِ احدى الآلات المعروفة بمقياس الوقت . ولم تكن قد صُنعت بعدُ آلة مثل هذه . فوضعت اسبانيا في القرن السادس عشر جائزةً قدرها الف كَرَون لمن يكتشف طريقة صحيحة بنوع تقريبيّ لتعيين خط الطول . و بعد مرور مائتي سنة على ذلك وضعت الحكومة الانكليزية جائزة قدرها خمسة آلاف ليرة استرلينيّة لمن يخترع مقياساً للوقت يتمكن بهِ مركبٌ على مسافة ستة اشهر من بلادهِ من الحصول على خط الطول ضمن ستين ميلاً . و ٧٥٠٠ ليرة اذا كان يدلّ عليهِ ضمن اربعين ميلاً . وعشرة آلاف ليرة اذا كان يدلّ عليهِ بطريقة تقريبيّة ضمن ثلاثين ميلاً وعشرين الف ليرة اذا كان يدل عليهِ ضمن هذه المسافة بطريقة مدققة . فتبارى صنّاع الساعات في العالم في هذا المضمار ولكن جاءت سنة ١٧٦١ ولم يفز احدٌ منهم بالجوائز . وفي السنة المذكورة طلب جون هريسون امتحان مقياس الوقت الذي اخترعهُ . فجُرِّب في رحلة دامت مائة وسبعة واربعين يوماً من بورتسموث الى جمايكا ذهاباً واياباً فلم يخلّ الاّ بأقلّ من دقيقتين ، منها في الذهاب اربع ثوانٍ فقط . ثم جُرِّب في رحلة الى باربادوس استغرقت مائة وستة وخمسين يوماً فكان الفرق فيها خمس عشرة ثانية فقط . ففاز بجائزة العشرين الف ليرة بعد أن قضى اربعين سنة في العمل والتجارب وقد كانت دقّة بلهِ في حركتها لا تقلّ عن دقّة مقياس الوقت الذي اصطنعهُ

وجاء نجارٌ الى حدّاد في قرية في احدى ضواحي نيويرك بقرب اوّل خط حديدي أُنشئ وقال لهُ : " اصنع لي مطرقة يتجلّى فيها كل ما لديك من البراعة . فقد جئت انا وخمسة آخرين للعمل في الكنيسة الجديدة في هذه القرية وقد نسيت مطرقتي في البيت ". فقال لهُ الحداد واسمهُ داود مايدول مرتاباً : " تريد مطرقة

يتجلّى فيها كل ما لديّ من البراعة فهل تدفع الثمن الذي تستحقهُ مثل هذه المطرقة "
فقال : " انني أدفع لانني انما أُريد مطرقةً جيدة "

وقد كانت المطرقة التي صنعها لهُ جيدة بالفعل بل ربما كانت افضل مطرقة صُنعت حتى ذلك الحين . فقد جعل لها ثقبًا أطول من المعتاد وأدخل المقبض في موضعهِ ومتّنهُ بحيث لا يمكن ان يُفلت الرأس من مكانهِ فأُعجب النجّار بهذا التفنُّن والتحسين وأخذ يتباهى بها امام رفقائهِ فجاءوا جميعًا في اليوم التالي وأوصوا الحداد بصنع مطارق لكلٍّ منهم على نمط التي صنعها لزميلهم . ولما رأى الملتزم هذه المطارق أوصى الحداد بصنع اثنتين لهُ وطلب منهُ ان يتفنّن فيهما بحيث تجيئان افضل من التي بأيدي رجالهِ . فقال لهُ مايدول : " ليس في وسعي ان أصنع أفضل لانني متى صنعت شيئًا أفرغ فيهِ كل ما لديّ من البراعة بصرف النظر عن الشخص الذي أصنعهُ لهُ "

وما لبث صاحب الحانوت في القرية ان أوصاهُ بصنع اربع وعشرين مطرقةً وهي كمية لم يطلب منهُ احدٌ مثلها من قبل . وجاء الى القرية احد المتجرين بالآلات من نيويورك ليبيع بضائعهُ فاشترى كل ما وجدهُ في الحانوت من تلك المطارق وأوصى بان يبقى لحسابهِ كل ما يصنعهُ الحداد منها . وقد جمع داود ثروةً كبيرةً بصنعهِ آلات على النمط الذي توصل اليهِ ولكنهُ في اثناء حياتهِ الطويلة والمكللة بالنجاح لم يفتأ يدرس ليزيد مطارقهُ إتقانًا حتى في أدقّ اجزائها . وكانت هذه المطارق تباع عادةً بدون أقلّ إيضاح عن نفاستها لان الجميع كانوا يعدّون اسم "مايدول" المطبوع عليها ضمانةً لكونها أفضل آلة من نوعها صنعتها ايدي البشر

فالأخلاق قوّةٌ وهي أفضل إعلان في العالم

وقال مدير معمل حديد يشتغل فيهِ الوف من العمال : " ليس عندنا سرٌّ فنحن نُعنى بتطريق الحديد الذي نصنع منهُ الأسلاك والعوارض للسكك جيدًا . هذا هو السرّ الذي توصّلنا اليهِ ومن شاء ان يعرفهُ فليعرفهُ "

وقال جون هوبتن من نورثبريدج ماس لمشترٍ شكا من غلاء بعض الآلات

القطنيّة : " انني لا أُعنى بجعل الآلات التي اصنعها رخيصةً بل أُعنى بجعلها جيّدة". وقد فهم رجال العمل ما عناهُ بهذا الكلام وكان اصحاب معامل القطن في نيوانكلند عندما يريدون بيع آلات قديمة عندهم ويقصدون إظهار جودتها يذكرون عدد السنين التي استعملوها فيها ثم يقولون انها من واردات نورثبريدج صنع هويتن مقدّمين بذلك ضمانةً كافية على متانتها

وزار النقّاش ه. ك. برون منزل سيدة من اسرة وُرد في نيوبورغ على نهر الهدسن وأُعجب بتمثال رآهُ هناك صنعهُ أخو تلك السيدة وهو فتًى يافع ومثّل به رجلاً ايرلنديًّا يعمل في خدمة تلك الأُسرة في بروكلن منذ عدّة سنوات وقد أبرز فيهِ بأدقّ الأمانة ، ليس ملامحَ الشخص وسحنته فقط ، بل الرُّقعَ التي في بنطلونهِ ، والشقّ الذي في معطفهِ ، والتثنيـــات التي في قبّعتهِ الضيقة الحافّة الشبيهة بموقدة الغليون . فقال للسيدة : " يا سيدتي ان هذا الغلام سيكون له شأنٌ". وبعد ست سنوات دعاهُ ليكون تلميذًا في معملهِ . أمّا اليوم فان ج. وُرد هو أشهر نقّاشي اميركا على الاطلاق

قال اوليفر كرومويل لمصوّرٍ صوّرهُ وحذف شامةً كانت في وجههِ بقصد إرضائهِ : " صوّرني كما أنا بما فيَّ من الثآليل وغيرها"

وقال احد أعضاء مجلس العموم لعضوٍ آخر اثناء اشتباكهما في مناقشة : " انني أذكر يوم كنت تمسح حذاء والدي". فاجابهُ الآخر على الفور : "ان هذا صحيح لكن ألم أكن أمسحهُ جيدًا ؟ "

وقالت سيدةٌ مُسنّة : ان هنالك طريقة سهلة لمعرفة النيل اذا كان جيدًا وذلك بأن تُلقى كتلةٌ منهُ في الماء فإما أن تغوص او ان تعوم ولا ادري اي الحالتين تدلّ على الجودة فتحقق ذلك بنفسك

وذكر جون غاف ان واعظًا زنجيًّا كان يريد ان تدهن لهُ الرعيّة ظاهر منبرهِ

فأطبق انجيلهُ فجأة وقال : يا اخوتي ان الانجيل سيبقى في موضعهِ على هذا المنبر ريثما تجمع صدقات كافية لشق هذه الدُّملة

ولما أُصيب ولنكتون بالصَّمم استشار طبيبًا مشهورًا في امرهِ فوضع لهُ هذا في أُذنهِ مادةً كاويةً شديدةً سبّبت لهُ التهابًا هدّد حياتهُ بالخطر . فاعتذر الطبيب وأعلن اسفهُ الشديد وقال ان هفوتهُ هذه ستقضي على مركزهِ وشهرتهِ . فقال لهُ ولنكتون : لا تخشَ من هذا فاني لن أُذكرها ابدًا . فقال الطبيب : اذًا اسمح لي يا مولاي بأن استمرّ على العناية بك لئلاَّ يترع الناس ثقتهم بي . فقال لهُ ذلك الدوق الحديدي : أمّا هذا فلا لأَنهُ يكون ضربًا من الكذب

وقال غلامٌ لأَبيهِ : انني رأيت ليلة أمس في شارعنا عددًا عظيمًا من الكلاب اتيقّن انهُ خمسمئة . فاجابهُ الأب : أمّا انا فاتيقّن انهُ لا يبلغ هذا المقدار . فقال الابن : لا بأس ولكنني موقنٌ انهُ كان هنالك مائة . فقال الأب : ولا هذا ممكن ايضًا لان عدد كل ما في قريتنا من الكلاب لا يبلغ مائة . فقال الولد : حسَن ولكن لم يكن هناك أقلّ من عشرة وانني لمتأكد ذلك . فقال الأب : ولا أُصدّق هذا ايضًا لانك تكلمت بتأكيد عن وجود الخمسمئة كما تتكلم الآن عن وجود العشرة . فقد ناقضت نفسك مرّتين ولهذا لا أُصدّقك الآن . فقال الولد مرتبكًا : حسن ولكنني قد نظرت هناك كلبنا "داش" وكلبًا آخر على الأقلّ

واننا نتعجب هذا الغلام لما أتاهُ من المبالغة رغبةً منهُ في الإنباء بحادثة غريبة . لكن هل نعدُّ أصدقَ منهُ كثيرًا الذين يقولون : انهم لم يروا مطرًا غزيرًا كهذا من قبل . ونسمعهم كلَّ يوم يقولون : ان هذا أحرُّ يومٍ من ايام الصيف او أبردُ يومٍ من أيام الشتاء

وما من شيءٍ يجلُّهُ كلُّ الناس ويستحسنونهُ مثل الحقيقة المجرَّدة الخالية من كل تصنُّعٍ ومخادعةٍ وكيد . فانها تدلُّ لاوّل وهلةٍ على قوّة في الأخلاق وصفاء نيّةٍ يكتسبان ثقة الجميع

أما التفوّه بأقوال عذبة تحاشيًا للإغاظة ، والتزامُ الصمت هربًا من التصريح بالحقيقة ، وتعمّد الإبهام ، والتملّص ، والاحتيال ، وقول ما هو موافقٌ بدلاً مما هو واقعٌ ، والتنازل عن الحقيقة ، واستعمال كلام ذي وجهين ، والمغالاةُ ، والتظاهر بالموافقة على رأي سواك في حين انك غير موافق عليهِ في الباطن ، والتضليل بلمحة طرف أو بحَني رأس أو بابتسامة أو بحركة أخرى ، وعدم الاخلاص ، والادّعاء بعلم ما لا تعلمهُ ، او التفكيرُ بما لا تفكّر بهِ ، او الشعورُ بما لا تشعر بهِ ، فهذه كلها ليست الاّ مظاهرَ متنوِّعةً للرِّياء والتزويرِ الناشئين عن عدم مراعاة الدقّة

واننا لا نرى في الطبيعة كَذِبًا ولا عدم ضبط ولا عملاً غير معتنًى بهِ . فالورد يُزهر ، والبلّور يتكوّن اليوم بما كانا يظهران بهِ من الإتقان في اللون والشكل في جنة عدن غداةَ يوم الخليقة . وليست الوردة النابتة في حديقة الملكة ابهى منظرًا ولا أطيب شذًى ولا أتمّ صنعًا من التي تنمو وتزهر في وسط غابة الخنشار بجانب الطريق دون ان يعتني بها احدٌ ، او في احدى الوهاد البعيدة حيث لا تقع عليها عينُ بشر . والسيَّاراتُ تندفع في سيرها السريع وتجتاز مسافاتٍ لا نهاية لها تقريبًا ثم تعود الى خطِّ الاعتدال او مركز ميل الشمس الأَعظم في الثانية المعيَّنة ، وحركتها هذه هي المظهر المتماثل الشكل لارادة الله

سُئِل السر توماس بَرَوْن : هل يكذب الشيطان ؟ فقال : كلاّ لانهُ اذا كَذِب لا يظلُّ موجودًا . فالصدق ضروريٌّ للبقاء

وقد وجدَ سائحٌ في سيبيريا أُناسًا ينظرون اقمار المشتري بالعين المجرَّدة . فهؤلاء القوم لا يزالون متأخّرين في ميدان الحضارة ولكنهم يمتازون علينا بدقّة بصرهم . ومن الحقائق الغريبة أنَّهُ لم يتمّ اكتشافٌ فلكيٌّ واحدٌ بواسطة مرقبٍ كبير . فالذين وسَّعوا معرفتنا في هذا العلم انما كان مُعظم مراقباتهم بالآلات العادية تعضدها عقولٌ وعيونٌ مدرَّبة أدقَّ تدريب

ويبلغ ثمن العَدَسيَّة المحدَّبة المزدوجة التي قُطْرُها ثلاثةُ أقدامٍ ستين الف دولار

وإحكامها هو امرٌ في منتهى الدقَّة بحيث ان اليد البشريَّة هي الآلة الوحيدة المعروفة التي تصلح لصقلها الصقل النهائي . وقد قال الثان كلارك ان إمرار اليد على هذه الزجاجة مرَّةً واحدة اكثر مما يلزم يخِلّ بدقّتها . وقد حدث اثناء امتحان الزجاجة الكبيرة التي صنعها كلارك لروسيا ان العَمَلَة أداروها قليلاً فصاح بهم : رويدكم ايها الفتيان دعوها تبرد قبل ان تجرّبوها ثانيةً . فالتوازنُ دقيقٌ جدًّا بحيث ان حرارة ايديكم تؤثّر فيهِ

وشَغَفُ المستر كلارك بالتدقيق قد جعل اسمهُ مُرادفًا للضبط والإحكام في العالم كلهِ

وألحَّ البعض على المستر وبستر بأن يتكلم في موضوع سيُطرح على بساط البحث في مجلس الشيوخ الاميركيّ والجلسة على وشك الانفضاض . فقال : لا قِبَلَ لي بذلك اذ ليس لي من الوقت ما يكفي لِأَن استعدَّ للكلام في هذه القضيَّة". فقالوا له : "ولكنك يا مستر وبستر تتكلَّم دائمًا جيدًا في أي موضوع شئت ولا تقصّر ابدًا". فقال : "هذا هو السبب الحقيقي لامتناعي عن الكلام الآن . فاني لا اتكلَّم في موضوع قبل ان أُوَفّيهُ حقَّهُ من الدرس والتنقيب . وليس لي الآن متّسعٌ من الوقت لأدرس هذه القضيَّة . فلا يسعني اجابة طلبكم"

وكان المحامي الشهير روفوس شوات يدافع امام حاكم صلح في دعوى طفيفة بكل حماسة واهتمام بجزئيات المسئلة كما كان يدافع امام المحكمة العليا في الولايات المتحدة

وقال كاتبٌ شهير : علينا ان نفعل ما نحكم انهُ صواب بملء عنايتنا وقوّتنا واستقامة قصدنا . فليس ثمة من درجات نقيسُ بها أماناتنا للواجبات او نعيّن اهميَّة تلك الواجبات النِّسبيَّة في عين الله . وما يظهر لنا أنَّهُ تافهٌ قد يكون مقدّمة خفيَّة لما ينتج عنهُ عنها الحياة والموت

وكان اهل فلورنسة يقولون عندما يرون دانتي مارًا : "هوذا الرجل الذي زار الجحيم . وذلك لفرط ما كانوا يرون وصفهُ للعالم الأسفل مطابقًا للحقيقة

وقال القانون فرار: ان في هذه الحياة خسرانًا وحيدًا ممكن الوقوع وهو أن لا يكون المرء صادقًا بغاية ما في وُسعهِ

وقال غروف في اثناء كلامهِ عن بتهوڤن: "اننا ندهش اذا عرفنا مقدار الوقت الذي كان يبقى فيهِ في ذاكرة بتهوڤن البعض من افضل ألحانهِ الآلية المشهورة قبل ان يبدأ في استعمالهِ، أو الصورة الغير الناضجة المبهمة المبتذلة التي كان يكتبهُ فيها لاوَّل مرَّة، ولكنهُ كان كلما نقحهُ وحسنهُ يزداد جدَّةً ويصير أقرب الى السليقة" (١)

وكان ليوناردو دي ڤنسي يطوف ميلانو باسرها ليُغيِّر لونًا واحدًا او مسئلةً طفيفة جدًا في صورتهِ الشهيرة عن العشاء السرّيّ. وقال دودسلي ملتزم طبع مؤلفات پوپ وقد جُلب اليهِ كتابٌ بخط يد المؤلف لأخذ نسخةٍ عنهُ: "ان پوپ كان يكتب كلَّ سطر مرتين" وجيبون (٢) كتب مذكراتهِ تسع مرات والفصول الأُولى من تاريخهِ ثماني عشرة مرةً. وقال مونتسكيو عن احد مؤلفاتهِ لصديقٍ لهُ: "انك ستطالع هذا الكتاب في بضع ساعات ولكنني أؤكد لك انهُ كلفني من المشقة ما شاب لهُ شعري" فانهُ كان قد جعلهُ موضوع درسهِ في النهار وأحلامهِ في الليل والألف والياء بين أغراضهِ ومراميهِ

"وكان زهير بن ابي سلمى المُزنيّ أشعر شعراء العرب في الجاهلية ينظم القصيدة في اربعة اشهر ويهذبها بنفسهِ في اربعة اشهر ويعرضها على اصحابهِ الشعراء في اربعة اشهر فلا يشهرها حتى يأتي عليها حولٌ ولذلك سميت قصائدهُ بالحوليات

وقد قال الشاعر:

لا تعرضنَّ على الرواة قصيدةً ... ما لم تكن بالغتَ في تهذيبها
واذا عرضتَ الشعر غير مهذَّبٍ ... عدُّوهُ منك وساوسًا تهذي بها"

(١) الطبيعة (٢) مؤرخ انكليزي لهُ كتاب جليل عن انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٣٧–١٧٩٤)

قال جورج ربيلي : "ان من لا يكتب بأجود ما في وسعهِ في كل فرصة تعرض لهُ لا يلبث ان تتأصل فيهِ العادة بان لا يكتب جيدًا في اي فرصة كانت"

وقصد احد الباحثين المدققين في علم طبائع الهوامّ والحشرات ان يزداد تعمقًا في هذا العلم بأخذ بعض دروس على الاستاذ اغاسيز(١). فدفع اليهِ هذا الاخير سمكةً ميتةً وطلب منهُ ان يستعمل نظرهُ . وبعد ساعتين جاء ليمتحن هذا التلميذ الجديد فما لبث ان ألقى عليهِ الملاحظة الآتية : "انك لم تمعن النظر في السمكة بعدُ كما ينبغي . فعليك ان تعيد الكرّة" ولما جاء لامتحانهِ ثانيةً هزّ رأسهُ وقال : "انك لم تبرهن بعدُ على أنك تحسن استعمال نظرك" فحرّكت هذا الكلام همّة التلميذ وأكبّ على التحقيق وبلغ من اهتمامهِ في الاشياء التي لم يكن قد تنبّه اليها في المرّتين الأوليين أنهُ لم ينتبه للاستاذ اغاسيز حين جاء اليهِ ليمتحنهُ ثالثةً . فقال لهُ ذلك العالم الطبيعيّ عندئذٍ "حسبك فقد رأيت أنك تحسن استعمال نظرك"

وقال رينولدس انهُ يستطيع ان يواصل تنقيح صورةٍ من الصور الى ما شاء الله

وأوصى رُبّان احد مراكب صيد الحيتان في نانتكت الرجل الواقفَ عند السكّان بان يسير بالسفينة متّجهًا نحو نجمة القطب ولكنهُ أُوقظ قبل الفجر لطلب مشورتهِ لأنّ الرجل كان قد سار متجهًا نحو نجمة أُخرى

وكان ستيفن جيرارد التدقيق مجسّمًا . فانهُ لم يكن يأذن للعاملين في خدمتهِ ان يحرفوا قيد شعرة عن اوامرهِ الحديدية . وكان يعتقد ان لا رجاء بالحصول على نجاحٍ مذكور الّا بمراعاة التدقيق التامّ في كل شيء . ولم يكن يُخلّ بوعدٍ لهُ اقل إخلال . وكان مشهورًا عند الناس أنّ كلامهُ لم يكن "جيدًا تقريبًا" بل "جيدًا على الاطلاق" . ولم يكن يدع شيئًا للتقادير بل كان يحسب كل طفيفة من طفائف عملهِ ويضع خططها وترتيباتها بالضبط . فكان أشبه بنبوليون من حيث التدقيق والضبط

(١) عالم طبيعي سويسري مشهور (١٨٠٧–١٨٧٣)

حتى في أصغر الامور . على ان كل هذا لم يمنع زملاءهُ التجار عن ان ينسبوا نجاحهُ الباهر الى حسن البخت

وفي سنة ١٨٠٥ فوَّض نبوليون خيام المعسكر العظيم الذي كان قد ألَّفهُ على شاطىء المانش وأمَّر جيشهُ القويَّ بالزحف والاتجاه نحو الدانيوب . ولم يكن مع فرط ما في دماغهِ من المشاريع المتنوّعة والمتّسعة ليكتفي بإصدار امرهِ ويدعَ لقوّادهِ ترتيب الجزئيات المتعلقة بهِ بل انهُ كان يهتمُّ اشد الاهتمام بالجزئيّات التي يعدُّها الضباط الأدنَون اقلَّ من ان تستحقَّ ملاحظتهم . وقبل ان يُنفَخ في البوق المسير وضع جميع الخطط معيِّنًا الطريقَ الذي تسير فيهِ كلُّ فرقةٍ والبومَ والساعةَ اللذين تترك فيهما هذه المحطة او تلك والدقيقة التي تبلغ فيها وجهتها بضبطٍ . وقد أُنفذت اوامرهُ كلها بالحرف فكانت نتيجةُ ذلك الزحف التاريخيِّ انتصارَ اوسترلتز[1] الذي قرَّر مصير اوربا لمدة عشر سنوات

وكان احد وُعاظ الفرنسيين حين يتكلم في كاندرائية نوتردام تغصّ تلك الكنيسة على رحبها بعلية باريس المتهافتين لسماع عظاتهِ البليغة الأنيقة المؤثرة . وهذه النتيجة الباهرة انما كانت نتيجة تدقيقهِ ومثابرتهِ على العمل فانهُ لم يكن يلقي في السنة الّا خمس او ست عظات

وكان السر ولتر سكوت[2] حين يريد الكتابة عن قصر خربٍ يزورهُ ويقيِّد في مذكرتهِ أسماءَ كل الاعشاب والازهار البريّة النامية حولهُ قائلاً ان الكاتب لا تكون كتابتهُ طبيعيةً الّا بالتجائهِ الى امثال هذه الوسائط

(١) اوسترلتز قريةٌ في مورافيا انتصر فيها نبوليون على الروس والنمسويين في ٢ كانون الاول سنة ١٨٠٥ وبعدُ انتصارهُ هذا أمجد انتصاراتهِ (٢) روائي انكليزي مشهور (١٧٧١ – ١٨٣٢)

ولم يكن المؤرخ ماكولي[١] يدوّن جملةً الأَّ بعد ان يجهد سبكها بمنتهى ما يستطيعهُ من الاحكام

وكان لدى غارفيلد[٢] علاوةً على مجموعات الاقصاصات التي كان يقتطفها من الصحف والمجلات صندوقٌ كبيرموَّلف من خمسين قسماً عليها عناوين مختلفة هاك بعضها "نوادر. قوانين انتخابية ومأموريات. السياسة العامة. حكم جنيف. قرارات برلمانية. الرجال العموميون . سياسة الدولة. الرسوم. الصحافة. تاريخ الولايات المتحدة". وكان يودِع في هذه الخانية كل فقرة يمكن ان تكون ذات قيمة يوماً ما . فاذا اراد الاستعداد لموضوع من المواضيع بقتضي الاعتناء فما من خطيب آخر يستطيع ان يجاريهُ في ايراد الحقائق والشواهد . فالاشخاص المدققون من المولعين بالترتيب والترتيبُ من لوازم الاخلاق السامية

أرسل تاجرٌ في سان فرنسيسكو الى تاجر آخر في سكرامنتو البرقية الآتية: "عُرِض عليَّ عشرة آلاف كيل حنطة بسعر ٠٠ ادولار فهل اشتري لحسابكم او ترون السعر غالياً ." فجاءهُ الجواب الآتي . "لا سعر غالٍ" بدلاً من "لا . سعر غالٍ" كما قصد المرسل ان يقول . فسبَّب إهمالُ النقطة خسارة الف دولار للتاجر الذي من سكرامنتو . وكم من الوفِ اضاعوا ثروتهم او حياتهم , وكم من حوادث مخيفة وقعت بسبب عدم التدقيق في إرسال بعض رسائل

قال الرئيس نتل : ان العلام الملازم التدقيق هو المفضَّل في كل حين . فما من تاجر يضع لديهِ مستخدمين ويظلُّ ألزم لهم من ظلّهم كأنهم خدّاعون او حمقى . واذا وَجَد نجارٌ ما ان لا بُدَّ لهُ من البقاء الى جانب اجيرهِ ليستوثق من إتقانهِ للعمل , أو رأى صرّافٌ ان لا مندوحة لهُ عن مراجعة اعمدة مستلم دفاترهِ كل حين , فغنيٌّ عن البيان ان كلاًّ منهما يتملصُ من ذلك المستخدم الأرعن باسرع ما يمكنهُ ويفضّل ان

(١) مؤرخ وسياسيّ انكليزي يعَدّ التاريخ الذي ألفهُ عن انكلترا من خيرة ما كُتب في هذا الموضوع (١٨٠٠-١٨٥٩) (٢) احد رؤساء حكومة الولايات المتحدة (١٨٣١-١٨٨١)

يتمّم العمل بنفسه على ان يستخدم رجلاً يتممهُ له على ذلك النمط

وقال صاحب معمل مُفلح: اذا صنعت دبوسًا وأتقنته فانك تكسب به اكثر ما تكسب من آلة بحاريّة تصنعها بدون أن تتقنها

وقال فيلدز: إنّ من النساء من ينفق ما يخيطه ابدًا، وما يركّبه من الازرار ينقطع لاوّل سحب. ومنهن من يستعملن الابرة نفسها والخيط نفسهُ ولا تستطيع ان تنتزع زرًّا من معطفك او صُدْرتك التي خطتها الك ولو جذبته بعنفٍ قرنًا كاملاً

فالتهاونُ والإهمالُ والتراخي وعدمُ المبالاة في ادارة الشؤون المالية الفاظٌ يمكن كتابتها بكل صدق على قبور الوف ممن كانوا في حياتهم من الخاسرين، وكم بين كتّاب المحالّ التجارية وأمناء الصناديق ورجال الدين وأساتذة الكليات من فقدوا مراكزهم ونفوذهم بعدم تدقيقهم وإهمالهم

وقد قال كوران: "انك تكون اعظم رجال زمانك يا غراتان اذا شريت بعض اذرع من السلك الاحمر وأحكمت بها ربط سفاتجك واوراقك" فقد تحقق كوران ان الاشخاص المحافظين على الترتيب هم مُدقّقون وأن هذا يستلزم لهم النجاح والفلاح

وروى برع ان رجلاً فتح محلاً تجاريًا واستمرّ يفتحه ويقفله كل يوم في الساعة نفسها والدقيقة نفسها، وهو لا يبيع شيئًا وواظب على ذلك عدة اسابيع فما لبثت مُواظبتهُ أنْ لفتت اليهِ الأنظار وفتحت له مجال الكسب والتقدم

وكان ا. ت. ستوارت محافظًا على النظام مدققًا في كل معاملاتهِ، حريصًا على جعل الترتيب سائدًا في كل فرعٍ من فروع مخزنهِ يُعاقب مستخدَميهِ بشدّة على كل تقصيرٍ يبدو منهم، مُشدِّدًا في المراقبة على جميع تشعبات عملهِ واقفًا على كل دقيقة من دقائقهِ، وكان يعمل بدون ملل

ومنذ باشر جوناس شيكرنغ صنع البيانات واتخذ ذلك مهنةً له جعل يبذل منتهى العناية والجهد في إتقان كل ما يصنعهُ منها، ولم يكن يعتبر شيئًا من الاشياء التي تتعلق بهذه الصناعة تافهًا او غير جدير بالاكتراث، ولم يكن للوقت ولا للتعب قيمةٌ

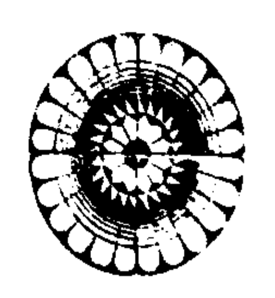
في نظرهِ بالنسبة الى الإحكام والاتقان . وما لبث ان أنشأ معملاً خاصاً بهِ . وقرَّر أن يصنعَ آلةً تُخرج اكثرَ ما يمكن من الالحان بأقلّ ما يمكن من التعب وتكون مقاومةً للتقلُّبات الجوية حافظةً لصحة انغامها ونقاوتها . وجعل الإتقانَ هدفهُ الأسمى وقرر ان يكون كل بيانو يصنعهُ أفضلَ من الذي سبقهُ . وبقي حتى بعد ان طعن في السنّ يختبر بنفسهِ كل آلةٍ تخرج من مصنعهِ ولا يَكِلُ ذلك الى احد آخر . ولم يكن يتسامح باقلّ خللٍ او عدم انتظام في مصنوعات معملهِ ولا في المبيع وقد عُرِف بالبساطة والصراحة والاستقامة . فكانت نتيجة ذلك انهُ أحرز قصب السبق على كل من باراهُ . وكان لاسمهِ من التأثير ما حمل احد صانعي البيانات على أن سعى لدى المجلس الاشتراعي في ولاية ماساشوست فأذن له بتغيير اسمهِ وجعلهِ شيكرنغ ثم كتب هذا الاسم على بيانانهِ . فأقام عليهِ شيكرنغ الدعوى لدى ذلك المجلس نفسهِ وأرغمهُ على الرجوع الى اسمهِ الاول . فللأخلاق قيمةٌ تجاريةٌ لا تقلُّ عن قيمتها الأدبية

وجوزف ترنر كان والدهُ يقصد أن يجعله مُزيّناً ولكنهُ أظهر ميلاً شديداً الى التصوير حتى أذن له والدهُ بتعاطي هذا الفنّ بعد ان مانعهُ عنهُ زمناً . فما أبطأ ان ظَهَر حذقهُ الّا انهُ كانت تنقصهُ الوسائط اللازمة فصار يتعاطى ايّ عمل تيسّر له وفي الغالب يُصوّر صوراً لكتب الدلالة على البلدان وللتقاويم (الروزنامات) . ومع بخس الاجرة التي كان يتناولها على ذلك لم يكن يعمل عملاً بدون عنايةٍ . فكانت رسومهُ تستحق اضعاف ما يتقاضاهُ عليها من الأثمان . ولكن أثمانها جعلت ترتفع بالتدريج وصار يُعهَد اليهِ في اعمال أرفعَ درجةً لان الناس من طبعهم ان يبحثوا عن الاشخاص المعروفين بأمانتهم ويستعملوهم في اعمال عالية بقدر ما تُؤهّلهم مقدرتهم . وهكذا اخذ يترقّى وجعل يعمل لحسابهِ الخاص لثقتهِ بان صُوَرَهُ لا تعدم مشترين وكانت اثمانها تزداد كلما ازداد ادراك الناس لما فيها من البراعة الفائقة وهو امرٌ لم يتمكن الناس من فهم سرّهِ حتى في عصرنا هذا . فحاز قصب السبق على المصورين المشهورين في تصوير المناظر البرّية المتنوعة وترك دروساً نادرة في المشاهد

الطبيعية برسوم لم يقم بمثلها احدٌ قبله. فاصبح اسم ترنر في هذا الفرع من التصوير اعظم اسم حفظه التاريخ كاسم شكسبير في عالم الأدب

وكان حبُّ الاتقان عند وندل فيلبس عجيبًا . فكل كلمة من كلماته تمثّل فكرهُ بتمام الدّقة ، وكل جملة على ما ينبغي من الطول والايقاع . ولم يكن يتفوّه بعبارةٍ قبل ان يزنها ويمحّصها ، وقد كان من مميّزات انشائهِ الإحكامُ التام ، وهو اول خطيب قانونيّ أنجبتهُ اميركا . وما في جملهِ من الانتظام والتوازن يستحق الاعتبار

وكان اسكندر دوماس يُعنى اشدّ العناية في كتابة مسودّاته . واستشارهُ مرّةً صديقٌ له كان قد أنشأ رسالةً وعرضها على عددٍ من ارباب المطابع فلم يقبل احدٌ منهم ان يلتزم نشرها فنصحهُ بأن يدفعها الى نسَّاخ ينسخها له بخطٍ جميل وأن يُغيّر عنوانها ففعل ما اشار عليهِ بهِ ثم عرضها على احد ارباب المطابع ممن كانوا قد رفضوها أوّلاً فقبلَها هذا بملءْ الرغبة. وهذا شأنُ كثيرٍ من الرسائل الجزيلة القيمة فان ملتزمي النشر يرفضونها لرداءة خطها. فعلينا ان نلتمس التدقيق كما نلتمس الحكمة او الكنز المطمور او أيّ شيء آخر نودُّ الحصول عليهِ . واجتهد ان تتعوّد التدقيق في عملك ، واجتنب التهاون في ادارة شؤونك المالية كما تجتنب الطاعون. فالإهمال وعدم المبالاة يذهبان بثروةِ صاحب الملايين سريعًا . وقلما ترى رجلاً مفلحًا الاّ وهو مدقّقٌ مُجِدّ. فالتدقيق يدل على الاخلاق السامية والاخلاق قوّة



الفصل الرابع عشر

تعمَّد الايجاز

وجدتُ ان هنالك غايةً من غايات الكمال يمكنني ادراكها وهي أن اكون موجزًا فصممت على أن أدركها — جاي

ان الايجاز هو خير ما يؤثر في الكلام سواء في من كان عضوًا في مجلس الاعيان ام في من كان خطيبًا — شيشرون

ان الكلمات أشبه باوراق الشجر فحيثما تتراكم وتتكاثف يندر ان نرى تحتها ثمرًا — بوب

ان الايجاز روح الحصافة

كلما كانت الصلاة أخصر كانت أفضل وقعًا — لوثر

ليكن كل ما تقوله او تكتبه سهل المأخذ — جون نيل

ان الايجاز حسنٌ جدًا سواء فهم المخاطب قصدنا أم لم يفهم — بتلر

لا شيء يغلب الأ الجمع — بكستون

تعمَّد الايجاز وسر نوًا الى غرضك وأبدأ قريبًا جدًا من حيث تريد ان تنتهي فالايجاز روح الحكمة كما هو روح الحصافة . والجواهر لا تُعدَّل فيها بالنسبة الى ثقل وزنها ، والهواء الذي ندفعه الى جانبٍ بتنفسنا اذا ضُغط حصلت له قوة البارود وشق اصلب الصخور ، والكلام المُقنع اذا أُرسلتهُ كالسيل اللطيف فانهُ يمرّ في عقل

السامع مرورًا ولا يبقي عليهِ أثرًا لما فيهِ من رواسب وأما اذا دفعتهُ كالشلال فانهُ يجرف كل شيءٍ امامهُ . والألفاظ رخيصةٌ ومتوفرةٌ دائمًا واما الافكار التي توقظ الجماهير وتحملها على التفكير فانما تأتي كما يُستخرج الذهب من المناجم

والقذيفة من الرصاص أفعل مفردةً منها متعددةً في الطلقة الواحدة فاذا شئت ان تعمل عملاً جوهريًا فاجمع قواك ، واذا اردت ان يستفيد الآخرون من جهدك فلخِّصْ كلامك . فقد كان روفوس شوات يعبِّر في دقيقة عمّا لا يستطيع معاصروهُ ان يعبّروا عنهُ بجلاءٍ الاّ في ساعة

وكان هوراس غريلي يخصّص عمودًا من جريدة "النيويرك تريبون" للبحث في موضوعٍ فيتلقَّف ثرلو ويد الموضوع نفسهُ ويعالجهُ في "الباني ايفنن جورنال" بكلمات قليلة مفرغًا اياها في قالبٍ يجعلها اشدّ إقناعًا

وقد كان سيروس فيلد يقول لزائريهِ : " عليكم بالايجاز فان الوقت ثمينٌ . وان المحافظة على المواقيت والاستقامة والايجاز هي كلمات السرّ في هذه الحياة . وإيّاك ان تكتب رسالةً طويلة فان رجل العمل ليس لهُ وقت لمطالعتها ، واذا كان لك ما تقولهُ فاختصر ما استطعت فما من قضيةٍ مهما كانت هامّة لا يُستطاع سردها في صحيفة واحدة . ولما كنت اعمل لمدّ السلك البرقي في المحيط الاتلانتيكي منذ عدة سنين كان يعرض لي احيانًا ان اكتب كتابًا هامًا الى انكلترا . وكنت أعلم ان كتابي ستُطالعهُ الملكة وكبير الوزراء . ولهذا كنت أكتب اولاً ما أودّ إيضاحهُ فاملأً بهِ عدة صحائف ثم أُراجعهُ عشرين مرة وفي كل مرة احذف بعض كلمات من هنا وهناك وأختصر بعض جمل وأظلُّ على هذا المنوال حتى أجمع كل ما أُريد سردَهُ في صحيفة واحدة . ثم أُرسل كتابي بالبريد فأتلقى الجواب عليهِ في وقتهِ ويكون جوابًا مرضيًا . فهل تظنّ اني كنت احصل على هذه النتيجة الحسنة لو كانت رسالتي تستغرق ست صحائف ؟ لا لعمري . فالايجاز موهبةٌ نادرة "

" زُرْ رجل العمل في ساعات العمل واذكر لهُ حاجتك باسلوب عمليّ وجيز .

تُعَدُّ بين القضايا العامَّة عُد الى عملك ودع رجل العمل يواظب على عملهِ"

وكان ا . ت . ستوارت يعدّ وقتهُ بمثابة رأس مالهِ . ولم يكن يُؤذَن لأحد بالدخول الى مكتبهِ الخاصّ الأ بعد ان يذكر حاجتهُ لخفيرٍ واقف على الباب الخارجيّ ثم لخفيرٍ آخر على باب المكتب . واذا ادّعى الزائر ان لهُ شأنًا خاصًّا اجابهُ الخفير: ليس لدى المستر ستوارت شؤون خاصة . ومتى أُذِن لهُ بالدخول طُلِب منهُ ان يعمد الى الايجاز . وقد كان العمل في بناية ستوارت العظيمة يجري بترتيب وسرعة يُدهشان من يباريهِ من التجّار . فلم يكن هناك توانٍ ولا تباطوء ولا إضاعة وقت بلا طائل بل كان "العمل" كلمة السر هناك من الصباح الى المساء . ولم يكن ستوارت يدع احدًا يسوقهُ الى حديث صداقة اثناء اوقات العمل . والخلاصة انهُ لم يكن يُضيّع دقيقة

قال فنلون : ان حسن الذوق الخالص يقتضي ان نقول كثيرًا في كلمات قليلة، وان نختار الجيّد من افكارنا، ونوردَ ما نقولهُ بترتيب وانتظام، ونتكلّم بسكينة

وقال سوذي : اذا شئت ان تكون فعالاً فأوجز. فشأن الاقوال شأن أشعة الشمس كلما كانت أقصر كانت أشدّ إحراقًا

وقال سنيل : ان المرء اذا لم يكن لهُ مأربٌ الاّ ان يسرد الحقيقة الخالصة فإن في وُسعهِ ان يُورد معاني كثيرة في جُمل قليلة

وحكماء اليونان السبعة كان السبب الأهمّ في ما حصلوا عليهِ من الشهرة إيراد كلٍّ منهم جملة واحدةً في كلمتين او ثلاث

وحكمة الشعوب انما هي مُدرجة في امثالها

قال تيرون ادواردز : ليكن لك شيء تقولهُ ثمّ قُلهُ وتوقّف حالما تفرغ من إيرادهِ

الفصل الخامس عشر

جائزة الثبات

ان كل عمل نبيل هو في اوّل الامر مستحيل – كارليل

ان النصر يختصّ بمن هو أشدُّ ثباتاً – نبوليون

ان النجاح في معظم الامور يتوقف على ان يعرف المرء الى متى ينبغي له أن يصبر حتى ينجح
مونتسكيو

ان السعي المتواصل والثقة يزحزحان الصعوبة ويذللان ما يظهر انهُ مستحيل – ارميا كوليار

اذا كنت غير ثابت كالماء فلن تبرع

ان الاعصاب التي لا ترتخي والعين التي لا تكلّ والفكر الذي لا يتشتت هي التي تحرز الغلبة دائماً
بارك

اندفع الممثل الانكليزي ادمون كين الى منزلِهِ وصاح بامرأتهِ المرتعبة وقد بلغ منهُ التهيُّج اعظم مبلغ: "لقد فُتح في وجهي باب التوفيق فسيكون لكِ عربة تركبينها وسيذهب ولدنا شارل للدرس في كلية ايتون" (١) وكان هذا الممثّل اسمر اللون أجشّ الصوت شديد الانصباب على درس مهنتهِ والتمرُّن عليها حتى ان ذلك ترك

(١) ايتون بلدة صغيرة في انكلترا فيها كلية شهيرة أُسست سنة ١٤٤٠

اثرًا في ذرّيتهِ . وكان قد وضع في ذهنهِ منذ حداثتهِ ان يجهد تمثيل دور السرجيل اوفرّاك في رواية مستجر اجادةً لم يتوصَّل اليها احدٌ من قبل. فما زال دائبًا في التمرُّن عليهِ لا يحوّلهُ عنهُ شأنٌ من الشؤون حتى انهُ لما مثَّلهُ أبدع فيهِ إبداعًا استوقف أبصار اهل لندن بأسرهم وجعلهم يترامون على قدميهِ

وبعد أن ألقى شريدن اول خطابٍ لهُ في مجلس العموم الانكليزي قال لهُ المخبر وُدفول : "يسوءُني ان اقول لك انك لست من فرسان هذا الميدان وخيرٌ لك ان تعود الى ما كنت منصرفًا اليهِ من الشؤون." فأطرق شريدن برأسهِ هنيهة مفكرًا ثم رفع بصرهُ وقال : "بل انني من اهل هذه الحلبة وسترى ما يكون من شأني . "فهذا الرجل نفسهُ هو الذي القى بعدئذٍ خطابهُ الرنَّان ضد ثارن هستنغ وهو الخطاب الذي وصفهُ الخطيب فوكس بانهُ أبلغ خطاب أُلقي في مجلس العموم

وقال برنارد باليسي الذي هجر منزلهُ في جنوب فرنسا سنة ١٨٣٨ وهو في الثامنة عشرة من سنيهِ : "لم يكن لي من الكتب سوى كتابَي السماء والارض المفتوحين امام عيون الجميع" وكانت صناعتهُ تلوين الزجاج ولكنهُ كان ميالاً الى الفنّ وقد رأى يومًا كأسًا ايطاليَّةً بديعة الصنع فراقهُ منظرها ووضع في ذهنهِ من ذلك الحين ان يكتشف صناعة الميناء كما كانت تلك الكأس مطلية واصبح هذا الامر شاغلَ افكارهِ كما يشغل العشقُ قلبَ المغرم الدَّنِف[1]. وظلَّ شهورًا بل سنوات برمّتها يقوم بكل انواع الاختبارات ليعلم الموادَّ المستعملة في صناعة الميناء . فبنى أتّونًا كان نصيبهُ فيهِ الفشل . ثم بنى أتّونًا آخر أحرق فيهِ كثيرًا من الحطب واتلف كثيرًا من العقاقير والاواني الفخاريّة العاديّة وأضاع وقتهُ حتى فتكت بهِ يد الفقر الشديد ولم تبقَ لهُ طاقةٌ على مشترى وقود فجعل يُجري تجاربهُ في أتّون عاديّ. فلم تُسفر مساعيهِ عن ثمرةٍ ما ولكن عزمهُ لم ينثنِ فقرّر ان يعيد تجاربهُ من اولها .وبعد

(١) المريض من العشق

فقليل صار لديهِ ثلاثمئة قطعة مشويّة ولما فتح الاتون وجد الدهان ذائبًا على واحدة منها وهو لامعٌ جميل

فبنى أتونًا للزجاج رغبةً منهُ في إتقان اختراعهِ وكان يحمل الآجرّ على ظهرهِ. ثم باشر التجربة ولكن الميناء لم يكن ليذوب مع انهُ أبقى النار مضطرمةً ستة ايام بدون انقطاع . وكان قد نفد كل ما لديهِ من المال فاستدان مبلغًا وشرى بهِ اواني وحطبًا واضرم النار حتى نفد ما عندهُ من الوقود ولم يذب الدهان فنزع سياج حديقتهِ وأوقدهُ ولكن على غير جدوى، فجاء باثاث بيتهِ وأوقدهُ ولكن عبثًا، فكسر رفوف بيت المؤونة وألقاها في الأتون . فكان عندئذٍ ان شدّة الحرارة اذابت الدهان وانكشف لهُ السرُّ العظيم، وفاز الثباتُ فوزهُ المبين

وكتب احد ارباب المكاتب الى وكيل لهُ : اذا عملت اسبوعين بجدّ ولم تبع كتابًا واحدًا فانك مُصيبٌ نجاحًا

وقال كارليل : اعرف عملك واكبَّ عليهِ واعمل فيهِ كجبار

وقال رينولدس : على من شاء ان يبرع في التصوير او في اي فنٍّ آخر ان يُوجّه كل قوى عقلهِ الى ذلك الموضوع وحدهُ من الدقيقة التي يستيقظ فيها الى حين يذهب للرقاد

وقال المصوّر ترنر : لا سرّ عندي النجاح الاّ العمل بجدّ

وقال وليم وبرث : "ان من يتردّد دائمًا بين أمرين لا يدري ايهما يفعل اولاً لا يفعل شيئًا منهما . ومن يعزم ثم يرضى ان يتغيّر عزمهُ لأول معارضة يلقاها من صديق لهُ، وينتقل من رأي الى رأي ومن خطّة الى خطّة لدى كل نزوة خاطر تعرض لهُ لا يعمل عملاً عظيمًا او مفيدًا على الاطلاق . وبدلاً من ان يتقدّم يظلّ جامدًا في مكانهِ بل يتأخر على الارجح في كل شيء"

فالثباتُ هو الذي شيّد الاهرامَ في سهول مصر، وبنى هيكلَ أورشليم الفخم،

وسوّر الامبراطورية الصينية بالالماس ، ونسلّق جبال الألب الشامخة الملفعة بالغيوم، وسيّر البواخر على متن المحيط الاطلانتيكي الواسع ، وشقّ غابات العالم الجديد وأحلّ محلّها عددًا من الدول والشعوب ، وصاغ تماثيل المرمر النفيسة المتجلية فيها آثارُ النبوغ ، وأبرزَ مشاهد الطبيعة الأنيقة مُصوَّرةً على النسيج ، ونقش مادة الظلّ التي لا منظر لها على سطوح معدنية ، وجَعل ملايين من المغازل في حركة ، وأطار عددًا لا يحصى من الوشائع ، وربَط الوفًا من الافراس الحديدية الى مركبات الشحن وجعلها تسرع في انتقالها من مدينة الى مدينة ومن أُمّةٍ الى أمّة ، وحَفرَ الأنفاق في الجبال الصخرية ، وأزال المسافات بسرعة البرق ، وجعل مياه العالم بيضاء بأشرعة مئات من الشعوب تجوب كل البحار وتسير الى كل الاقطار ، وحصر الطبيعة بمظاهرها التي تعدّ بالألوف ضمن نطاق علوم عديدة ، وتعلّم نواميسها ، وتنبأ عن حركاتها المستقبلة ، وأحصى ما فيها من العوالم التي تبلغ الربوات وعيّن مسافاتها ومساحاتها وسرعة سير كلٍّ منها

وان البنس البطيء لهو أسلم من الدولار السريع ، والخابُّ[1] المتمامل يسبق المضمَّر المُهيج[2] ، وان العبقرية تثب وتستعجل ثم تكلّ وأمّا الثبات فانهُ يعمل بالتدريج ويكسب ، والجوادُ الذي يعمل كلَّ نهارهِ يُحرز قصب السبق ، والرجل الذي يعمل بعد الظهر ينال الفخر ، والضربة الاخيرة تُوصل المسمار الى محلهِ

وسأل احد مخبري الصحف توماس اديسون : هل ما قمت بهِ من الاكتشافات كان يأتيك بطريق البداهة او يخطر في ذهنك وأنت أرِقٌ في فراشك ليلاً ؟

فاجابهُ : انني لم اعمل قط شيئًا حريًّا بالذكر بطريق المصادفة ولاتمّ لي شيءٌ من اختراعاتي اتفاقًا ما عدا الحاكي (الفونوغراف) . وعندما أُقرّر الحصول على نتيجةٍ ما

(١) هو الفرَس الذي يسير الخبب وهو ضربٌ من العدو ينقل فيهِ الفرس ايامنهُ جميعًا وأياسرهُ جميعًا وهو أقلّ انواع عدو الخيل (٢) المضمّر هو الفرس الذي يربط ويكثر ماؤهُ وعلفهُ حتى يسمن ثم يقلل ماؤهُ وعلفهُ مدةً ويركض في الميدان حتى يهزل . والمهيج الجادّ في جريهِ

أتابع العمل في سبيلها وأوالي التجارب واحدةً بعد أخرى حتى أتوصّل اليها. وما برحت حاصراً اهتمامي بما هو نافعٌ تجاريًا من الاختراعات . اما عجائبُ الكهرباء التي لا فائدة منها سوى انها تُدهش الجمهور فليس لي وقتٌ أبذله في سبيلها مطلقًا . واذا بدأتُ في امرٍ فانهُ يظلُّ شاغلاً كل افكاري ومستغرقًا كل اهتمامي لا يقرّ لي قرارٌ حتى أُنجزهُ

فمن كان هذا شأنهُ من الانصراف بملء قواهُ الى عملهِ فلا شكّ في انهُ يعمل شيئًا. واذا كان ذا مهارةٍ ودهاء فان نجاحهُ يكون عظيماً

وما أشدّ ما صارع بلوَر الأقدار حتى تمكّن من تغيير حظهِ . فاول قصةٍ أَلّفها كان نصيبها الفشل ولم تكن قصائدهُ باحسن حظًّا . وخُطَبهُ في عهد شبابهِ كان يقابلها خصومهُ بالهزءِ والسخرية ولكنهُ شقّ طريقهُ الى الشهرة بين الاستهزاآت والانكسارات

وقد قضى جبون عشرين سنة على كتابهِ عن "انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها". وقضى نوح وبستر ستًّا وثلاثين سنة في تأليف معجمهِ . ولا ريب ان في قضائهِ حياة باسرها في جمع الالفاظ ووضع تعريفات لهـــا الدليل صبر عجيب . وجورج بنكروفت واصل العمل ستًّا وعشرين سنة في تأليف كتابهِ "تاريخ الولايات المتحدة" ونيوتن اعاد كتابة مؤلَّفهِ "تاريخ الشعوب القديمة" خمس عشرة مرة . وقد كتب تيتيان الى شارل الخامس : "انني اقدّم الى جلالتكم صورة العشاء السرّي بعد أن واصلت العمل فيها كل يوم تقريبًا مدة سبع سنوات". ومضى في صورة بياترو مارتير ثماني سنوات . وجورج ستفنسن ظلّ خمس عشرة سنة يشتغل في إتقان قاطرتهِ ووط عشرين سنة في آلتهِ لاستقطار البخار وهارڤي استمر في ابحاثهِ ثماني سنوات بطولها قبل ان اعلن اكتشافهُ الدورة الدموية وقد دعاهُ وقتئذٍ زملاؤهُ الاطباء دجّالاً مفلوق الدماغ . وقد انتظر خمسًا وعشرين سنة بين المثالب والتعييرات ريثما اعترف رجال العلم بصحة اكتشافهِ العظيم

ونيوتن اكتشف ناموس الجاذبية قبل ان بلغ الحادية والعشرين . ولكنّ خطأً زهيدًا في قياس محيط الارض حال دون إثبات صحة مذهبهِ فبعد مرور عشرين سنة على ذلك أصلح هذا الخطأ وأثبت ان دوران السيارات في افلاكها انما هو بموجب الناموس نفسهِ الذي بهِ تقع التفاحة الى الارض

وقال سذرن الممثل الكبير انهُ قد قضى الشطر الاول من حياتهِ التمثيلية وهو يطرَد من الخدمة بسبب عدم جدارتهِ

وذكر يشوع رينولدس عن جون رسكن انهُ قال : لا تتكل ابدًا على ذكائك فانك اذا كنت ذا ذكاء فان الاجتهاد يكمّلهُ واما اذا لم يكن لك ذكاء فان الاجتهاد يقوم مقامهُ

ويعتقد المتوحشون انهم اذا غلبوا عدوًّا تحلُّ روحهُ فيهم وتُقاتل في المستقبل دفاعًا عنهم . وهكذا روح انتصاراتنا تحلُّ فينا وتساعدنا على احراز الانتصارات المقبلة

فالأحوال المعاكسة تولّد قوّةً ، والمعاكسة تصيّرنا أقدر على المدافعة ، والتغلُّب على عقبةٍ ما يزيدُنا قوّةً للتغلُّب على العَقَبة التالية

كان رجلٌ مسكين أشيب الناصية خارجًا على متن برذَونهِ من رتاج قصر الحمراء في غرناطة في شهر شباط سنة ١٤٩٢ وهو مطرق الرأس لفرط اليأس المستحوذ عليهِ . وكان هذا الرجل قد رسخ فيهِ الاعتقاد منذ حداثتهِ ان الارض مستديرة وحدث أن التُقطت على مسافة اربعمئة ميل في البحر قطعة خشب عليها بعض نقوش ووُجدت على شاطئ البورتغال جثتان غير شبيهتين باجسام البشر المعروفين فاعتقد ان الامواج قذفت قطعة الخشب والجثتين من اراض مجهولة الى الغرب فطلب من ملك البورتغال يوحنا ان يُساعدهُ لكي يسافر بقصد اكتشاف تلك الاراضي فعلّلهُ هذا بالمساعدة حينًا ثم أرسل بعثةً خاصةً بهِ للقيام بهذا الامر خفيةً عنهُ . واشتدّت بهِ الفاقة فاخذ يرسم خرائط لكسب ما يدفع عنهُ غائلة الهلاك جوعًا

وتسوّل وفقد امرأته وتخلّى عنه اصحابه ودعوهُ مجنونًا . فلجأ الى فرديناند وايزابلا ملك اسبانيا وملكتها وطلب منها مساعدته لإنفاذ فكرتهِ فعقدا مجلسًا من حكماء مملكتهما لمشاورتهم بالامر فقابل هؤلاء الحكماء رأي كولمبس القائل بامكان الوصول الى الشرق بالسفر بحرًا الى جهة الغرب بالاستخفاف والازدراء

فقال لهم كولمبس : انّ الشمس والقمر مستديرتان فما يمنع ان تكون الارض كذلك. فقال له احد الحكماء : اذا كانت الارض كرة فما الذي يحفظها في الفضاء

فقال كولمبس : وما الذي يحفظ الشمس والقمر في الفضاء

فقال طبيب عالمٌ : كيف يستطيع الناس ان يدبوا ورؤوسهم متجهة الى الاسفل واقدامهم الى الاعلى أشبهُ بالذباب الذي على السقف . وكيف تنمو الاشجار وجذورها في الهواء

وقال فيلسوف آخر : لو صحّ ما تقول لانسكبت مياهُ البحيرات والبرك ولسقطنا من اماكننا

وقال كاهن : ان هذا الرأي مخالف للتوراة . فقد جاء فيها : ان السماء مبسوطة كالخيمة . فلا شك في ان الارض مسطّحة والقول بأنها مستديرة بدعة في الدين

فخرج كولمبس من قصر الحمراء قانطًا وهو يفكّر في ان يلجأ الى الملك شارل السابع . واذا بهِ يسمع صوتًا يناديهِ باسمهِ . وذلك ان صديقًا قديمًا له أقنع الملكة ايزابلا بمساعدتهِ قائلاً لها انها تكسب مجدًا عظيماً بنفقة زهيدة اذا صحّ ما يقوله هذا الرجل . فقالت له الملكة : انني سألبّي طلبهُ وارهن حلاي للحصول على المال . فادعُهُ ليعود

فعاد كولمبس وتغيّر بعودتهِ وجه العالم . ولم يقبل احدٌ من البحّارة ان يسافر معهُ برضاهُ فأرغمهم الملك والملكة على ذلك . وبعد مضيّ ثلاثة ايام على سفرهِ بمركبهِ الذي قلما كان يزيد على قوارب الصيد رفعت السفينة "بينتا" علامة الاستغاثة لانكسار احد صواريها فاستولى الرعب على البحارة ولكن كولمبس هدّأ مخاوفهم اذ جعل يصف

لهم ما سيجدونهُ في الهند من الذهب والحجارة الكريمة . ولما صاروا على مسافة مائتي ميل غربًا عن جزائر كنار يا كفَّ البركار عن الاشارة الى نجمة القطب . فاستعد البحارة للتمرُّد ولكن كولمبس قال لهم ان نجمة القطب ليست الى الشمال تمامًا . وبعد مسير الفين وثلاثمئة ميل عن وطنهم وكان كولمبس قد قال لهم انهم لم يجتازوا بعدُ الاَّ الفًا وسبعمائة ميل رأوا عوسجةً عليها شيءٌ من الثمر عائمةً على الماء وشاهدوا بعض طيور برّية محلِّقة في الجوّ على مقربة منهم والتقطوا من البحر قطعة خشب عليها نقوش غريبة الشكل . وفي ١٢ تشرين الاول من تلك السنة رفع كولمبس علَمَ كاستيلية على العالم الغربيّ

وقال ديكنس : ما أعظم الجهد الذي بذلتهُ في فنّ الاختزال وإتقانهِ . ولا أُضيف الى ما سبقت لي كتابتهُ عنهُ الاَّ الإشارة الى ما تذرَّعت بهِ في هذا الوقت من حياتي من الثبات والصبر في سعيي المتواصل حتى نضجت ثمرتهُ

وسيروس فيلد كان قد اعتزل الاعمال بعد ان جمع ثروة طائلة واذا بهِ تملكتهُ فكرة انشاء مواصلات برقية بين اوربا واميركا بواسطة مدّ اسلاك في قعر المحيط الاتلانتيكي . فاندفع في هذا المشروع بكل ما أُوتيهُ من عزمٍ . وكان من لوازم العمل التمهيديّ في هذا المشروع مدّ سلك برقيّ على مسافة الف ميل من نيويرك الى سانت جونس في الارض الجديدة[1] وانشاء سلك برقي وطريق على مسافة اربعمئة ميل في وسط الغابات الكثيفة في داخل الارض الجديدة ومدّ سلك آخر على مسافة مئة واربعين ميلاً في جزيرة كاب بريتون وسلك غيرهِ في سانت لورنس وكل ذلك يتطلب جهدًا كبيرًا

وقد تمكن بالعناء الشديد من الحصول على معاضدة الحكومة البريطانية للشركة التي أسّسها . أمّا في اميركا فقد لقي مشروعهُ مقاومةً عنيفة ولم يقرر له مجلس الاعيان

(١) جزيرة انكليزية في اميركا الشمالية يدعوها الانكليز Newfoundland والفرنسويون la terre neuve

ن . ت

المساعدة الاّ باكثرية صوت واحد . فحُملت الاسلاك على البارجتين "اغاممنون" احدى بوارج الاسطول الانكليزي في سباستوبول " ونياغارا" احدى البوارج الجديدة البديعة في البحرية الاميركية. الاّ ان هذه الاسلاك بعد أن مُدَّت على مسافة خمسة اميال علقت بالآلة وانقطعت فأُعيد مدُّها و بعد اجتياز مائتي ميل في البحر انقطع المجرى الكهربائي فجأة فجعل الرجال يسيرون فوق البارجتين بتهيُّج وحزن كما لو كان الملاك يهدِّدهم . على انهُ لما أوشك المستر فيلد ان يُصدر امرهُ بقطع الاسلاك عاد المجرى الكهربائي كما كان قد اختفى بغتةً و بطريقة غامضة . ولكنهُ بينما كانت السفينة تسير في الليلة التالية بسرعة اربعة اميال فقط في الساعة والسلك يسير بسرعة ستة اميال أُوقفت الحركة فجأة لان السفينة مالت الى جانبها ميلاً ثقيلاً وانقطع السلك

ولم يكن فيلد بالرجل الذي تثنيهِ المصاعب فاستصنع سبعماية ميل من الاسلاك زيادةً عما لديهِ واستخدم رجلاً ذا حذق عظيم في اختراع آلة جديدة لنصب السلك الطويل . وساعدهُ في استنباط هذه الآلة مخترعو الاميركان والانكليز. ولما تمَّ لهم ما أرادوا ربطوا شطرَي السلك في منتصف المحيط الاتلانتيكي وافترقت البارجتان احداهما متجهة الى ايرلندة والأُخرى الى الارض الجديدة وجعلت كلٌّ منهما تمدُّ اثناء مسيرها ذلك السلك الثمين المرجيّ بهِ الوصل بين القارتين . وقبل أن تصير المسافة بين البارجتين ثلاثة اميال انقطع السلك فرُبط ولما صارت ثمانية اميال انقطع المجرى الكهربائي فأُعيد ربط السلك و بعد أن تمَّ مدُّهُ على مسافة مائتي ميل تقريبًا انقطع على مسافة عشرين قدمًا من البارجة اغاممنون فعادت السفينتان الى شاطىء ايرلندة

فخارت عزائم مدبري العمل والجمهور تشاءم وارباب الاموال تولاَّهم الجبن والخوف ولقد كان أُهمل المشروع بتاتًا لولا صدق عزيمة وثبات المستر فيلد الذي ظلَّ مكبًّا على العمل ليلاً ونهارًا وهو يكاد لا يذوق طعامًا ولا يغمض لهُ جفن واخيرًا أُقيمت تجربة ثالثة حالفها النجاح وتمَّ فيها نصب السلك بتمامهِ بدون انقطاع

وتبودلت بهِ عدة رسائل على مسافة سبعماية فرسخ من الاوقيانوس ولكن المجرى الكهربائي عاد فانقطع بغتةً

فتلاشت الثقة تماماً الاّ في صدر سيروس فيلد وواحد او اثنين من اصدقائهِ . فواصلوا مساعيهم بجدٍ ومثابرة حتى أقنعوا الناس بتقديم رأس مالٍ كافٍ للقيام بتجربة أُخرى . فشُحن سلك جديد افضل مما تقدَّمهُ على الباخرة (غرايت ايسترن) فسارت بهِ الهُوينى وهي تمدُّهُ اثناءَ تقدُّمها . ولما صارت على مسافة ستماية ميل عن الارض الجديدة انقصف السلك وغرق . وبعد محاولات عديدة لرفعهِ صُرِف النظر عن هذا المشروع مدة سنة

أمَّا المستر فيلد فان كل هذه المصاعب لم تُثبِّط عزيمتهُ بل عاد الى متابعة جهادهِ وألَّف شركة جديدة وأنشأ سلكاً جديداً أمتن جداً من كل ما سبق لهُ استعمالهُ وفي ١٣ تموز سنة ١٨٦٦ باشر تجربتهُ الاخيرة فانتهت بإرسالهِ البرقية الآتية الى نيويورك :

عن هارتس كونتنت في ٢٧ تموز

وصلنا الى هنا الساعة التاسعة من هذا الصباح . وكلُّ شيءٍ على ما يرام والحمد لله . وقد نجز مدّ السلك وهو يعمل بنظامٍ تامٍ سيروس فيلد

وقد التُقط السلك القديم ايضاً ورُبط وأُوصل الى الارض الجديدة ولا يزال السلكان يعملان حتى الآن وحالتهما تدلّ على انهما يصلحان للعمل سنوات عديدة ايضاً

واننا نقرأ في سفر الرؤيا العبارة الآتية : من يغلب فسأُعطيهِ ان يجلس معي في عرشي

ويقول العارفون ان الفضل في نجاح الرجال المفلحين يعود لثباتهم اكثر مما لمواهبهم الطبيعية أو اصدقائهم أو الاحوال الموافقة لهم . فالعبقرية ترتعش ازاء الكدّ ، والمواهب السامية تُلقي سلاحها امام الاجتهاد المُفرط ، والبراعة شهيَّة ولكنَّ الثبات أشهى منها

وسأل شابٌ الموسيقيّ الشهير جيراديني : كم قضيت من الوقت حتى أتقنت توقيع على الآلات . فاجابهُ : اثنتي عشرة ساعة في كل يوم مدة عشرين سنة . وسُئل

ايمان بتشر كم قضى من الوقت حتى كتب عظته الشهيرة عن "ملكوت الله" فقال : زهاء اربعين سنة

وكان طالب علمٍ صيني* قد وهنت عزيمته لتقصيراته المتتابعة فألقى كتابه الى جانب وهو يائس ثم حانت منه التفاتة فرأى امرأة مسكينة تصقل قضيب حديد على حجر لتصنع منه ابرة فراعهُ ما رآهُ من صبرها ومواظبتها وعاد الى الدرس بعزمٍ اشدّ. وهو اليوم واحدٌ من ثلاثة هم اعظم علماء الصين

وقالت الممثلة الشهيرة مالبران[1] "انني اذا أهملت التمرُّن يومًا واحدًا أُلاحظ الفرق في تمثيلي بنفسي ، واذا أهملته يومين لاحظ ذلك أصدقائي ، واذا أهملته اسبوعًا كاملاً فان جميع الناس يشعرون بتقصيري "فأبنت بذلك ان الاجتهاد والثبات هما سرُّ مقدرتها العجيبة

وحينما يتعلَّم ولدٌ في الهند الشرقية الرِّماية يُوجبون عليهِ ان يتمرَّن ثلاثة اشهر على جذب الوتر الى أُذُنهِ قبل أن يأذنوا له بتناول السهم

وكان بنيامين فرنكلين متشبثًا بأَربهِ الى الدرجة القصوى . ولما باشر عمله في الطباعة في فيلادلفيا حمَل ادواتهِ على عجلة ذات دولاب واحد وساقها بنفسهِ في الشوارع . واكترى غرفةً واحدة جعلها له مكتبًا ومحلَّ عمل وحجرة منامة . ووجد له في تلك المدينة خصماً رهيبًا فدعاهُ الى غرفتهِ وأَراهُ قطعة من الخبز كان قد تغدى منها وقال له : "انك لا تستطيع ان تُهلكني جوعًا الاّ اذا قدرت ان تعيش معيشةً أرخص من معيشتي"

وكلُّ يعلم الخطب الذي حلَّ بكارليل اثناء تأليفهِ كتابهُ "تاريخ الثورة الافرنسية" فانهُ بعد أن أنجز وضع المجلد الاول منهُ وجهَّزهُ للطبع أعار جارًا له مسودَّتهُ فتركها ذلك الجار على ارض غرفتهِ وكان أنَّ الخادمة جاءت في غيابهِ وأخذتها وأوقدت بها النار . فكان ذلك خطبًا مؤلمًا ولكن كارليل لم يكن ممن يهولهم الصِّعاب فشمَّر عن

(١) هي ممثلة ومغنية ايطالية مشهورة (١٨٠٨–١٨٣٦)

ساعد الجدّ وأكبّ عدة اشهر على مراجعة مئات من المؤلفات الخطيرة وكثيرٍ من مخطوطاتهِ حتى وُفق الى إعادة كتابة ما أُحرق في دقائق قليلة

واودبيون العالم الطبيعي قضى سنتين وهو حاملٌ بندقيتهُ ومفكرتهُ يتجوّل في غابات اميركا و يصوّر ما فيها من الطيور . ثم جعلها في صندوق أحكم إقفالهُ وتغيّب حينًا من الزمن . فلما عاد فتح صندوقهُ فوجد عشّ جرذانٍ نروجية في وسط رسومهِ وقد تَلفت تلك الرسوم بأسرها — فشقّ الامر عليهِ ولكنهُ ما أبطأ ان حمل بندقيتهُ ومفكرتهُ وعاد الى الغابات . فأعاد اخذ رسومهِ وجاءت افضل من الاولى

وسُئل ديكنس مرّةً ان يقرأ احدى مختاراتهِ على الجمهور فأجاب : ان لا وقت لهُ لذلك لأنّ من عادتهِ ان لا يتلو قطعة على الجمهور الاّ بعد ان يُكرّر تلاوتها لنفسهِ يوميًا مدة ستة اشهر . ثم قال : ان قوتي المخترعة او التصوُّرية لم تكن لتفيدني كما افادت لولا عادة الانتباه اليومي للامور المبتذلة بصبرٍ وكدّ

وادبسون(١) جمع ثلاثة مجلدات من مخطوطاتهِ قبل ان باشر تأليف "السپكتاتور"

وما من احد الاّ يُعجَب بالرجل الثابت العزم . فان مرقس مورتون ظلّ يرشّح نفسهُ لحاكميّة ولاية ماساشوست ست عشرة مرّة حتى ان خصومهُ انفسهم منحوهُ اصواتهم في المرّة الاخيرة لفرط إعجابهم بجرأتهِ وثباتهِ فتمّ انتخابهُ بأكثرية صوت واحد . فمثل هذا الثبات ينتصر دائمًا

وقد صرّح وبستر انهُ لما كان تلميذًا في اكاديمية فيلبس اكستار لم يكن يستطيع ان يخطب امام التلاميذ . وقد قال انهُ كان يستظهر القطعة و يراجعها في غرفتهِ ولكنهُ كان حين يُدعى لإلقائها في القاعة ويرى كل العيون شاخصةً اليهِ تسودّ الغرفة في عينيهِ ويذهب من ذاكرتهِ كلُّ ما استظهرهُ . الاّ انهُ قد صار بعدئذٍ اعظم خطيب

(١) هو جوزف ادبسون سياسيّ وكاتب انكليزي مشهور عرف بانتقاداتهِ الصائبة (١٦٧٢ — ١٧١٩)

في اميركا . والخطاب الرنّان الذي القاهُ في مجلس اعيان الولايات المتحدة ردًّا على هاين يُنَكَّ في ان ذيمستين جاء بأبلغ منهُ . وعنادهُ الشديد يتمثل بمحادثة جرت له في تلك الاكاديمية . فان الرئيس فرض عليهِ مرّةً استظهار مائة بيت من اشعار فرجيل عقابًا له على تلهيهِ بصيد الحمام . وكان قد علم وبستر ان الرئيس مُزمع السفر بالقطار بعد ظهر ذلك النهار . فاختلى في غرفتهِ واستظهر سبعمئة بيت . ولما قرُب ميعاد سفر القطار ذهب الى حجرة الرئيس لإلقاء تلك الأبيات عليهِ . فانتهى من المائة وظلّ مواصلاً الإلقاء حتى بلغ المئتين . فجعل الرئيس ينظر الى ساعتهِ بقلق وكاد ينفد صبرهُ ولكن وبستر إستمرّ على الإلقاء فقاطعهُ الرئيس سائلاً : "ما عدد الأبيات التي لا تزال مستظهرًا لها ". فقال : "نحو خمسمئة" وعاد الى الإلقاء

فقال له الرئيس : لك اذًا ان تقضي بقيّة نهارك في صيد الحمام

وقد عُرف الكتّاب الكبار بعنادهم وتشبثهم بمقاصدهم . وما نراهُ لهم من الآثار لم يأتِ عفو القريحة بل انهم قد هذّبوهُ ونقّحوهُ مرارًا حتى أكسوهُ من الرونق والطلاوة ما أخفت معهُ كل علامة من علامات كدِّهم وعنائهم

فالاسقف بتلر واصل العمل عشرين سنة في تأليف كتابهِ " المقارنة " وبعد كل هذا الجهد لم يكن راضيًا عنهُ كل الرضى حتى أوشك ان يجعلهُ فريسةً للنار . وقال روسو انهُ انما كسب ما كسبهُ من السهولة والطلاوة في انشائهِ بقلقهِ الدائم وتنقيحاتهِ الغير المتناهية لكتاباتهِ . وفرجيل (١) قضى احدى عشرة سنة في سبك "الاينابيد" . ومفكرات الرجال العظام امثال هوثورن وامرسون تروي بأفصح بيان عما تجشّموهُ من المشاقّ وما طووهُ من الأعوام في مراجعة كتابٍ يمكن تصفحهُ في ساعة . وقد قضى مونتسكيو (٢) خمسًا وعشرين سنة في تأليف كتابهِ " روح الشرائع " في حين انهُ يمكنك ان تطالعهُ

(١) هو اشهر شعراء اللاتين القدماء (٧٠–١٩ ق.م) (٢) كاتب افرنسي كبير له مؤلفات جليلة اجتماعية وغيرها (١٦٨٩–١٧٥٥)

في ستين دقيقة . وبقي آدم سميث[1] عشر سنوات يعمل في وضع كتابه "ثروة الشعوب" وهزئ باوربيذوس[2] مرّة روائيٌ مناظر له لانه قضى ثلاثة ايام على سبك ثلاثة ابيات في حين ان ذلك الروائي نظم في المدّة نفسهـــا خمسمائة بيت . فقال له اوربيذوس : "ان الأبيات الخمسمئة التي نظمتها في ثلاثة ايام ستموت وينسى الناس امرها واما الأبيات الثلاثة التي نظمتها أنا فانها ستحيا الى الأبد"

وكتب اريوسطو[3] مقالته "وصف عاصفة" على ستة عشر شكلاً مختلفة , وقضى عشر سنوات على كتابه "اورلندو فريوزو" وباع منه مئة نسخة ثمن الواحدة خمسة عشر بنسًا . ولما باشر بارك طبع كتابه "رسائل الى لورد شريف" وهي من أبدع الآثار الادبيّة أعاد المسودّات الى المطبعة مشحونةً بالتبديلات والتنقيحات حتى رفض صاحب المطبعة ان يُصلحها وفضّل ان يُعاد تنضيد حروفها . وآدم نكر قضى ثماني عشرة سنة في اعداد كتابه "نور الطبيعة". والكتاب الذي ألّفه ثورو واصفـــًا به مشاهد نيو انكلند الطبيعيّة وجعل عنوانه "اسبوع على ضفاف نهرَي الكونكورد والمريماك" لم يُصادف شيئًا من الرواج وقد أعاد اليه الكتبيّون سبعمائة نسخة من الألف التي طبعها . وقد كتب في مفكرته : "ان مكتبتي تحتوي على تسعمائة مجلّد منها سبعمائة بقلمي" الاّ انه عاد الى تناول قلمهِ وهو في ذلك الموقف أمضى عزمًا منه في كل حين

وان الحجر المتدحرج لا يتجمّع عليهِ شيءٌ من الطحلب , والسلحفاة المواظبة تسبق الأرنب السريع الطائش . وان ساعة في النهار على مدّة اثنتي عشرة سنة تزيد على مدّة الاربع السنوات القانونيّة المخصّصة للدرس في مدرسة عالية . وقد كان دأب كثيرين من عظماء الرجال مطالعة مجلّدٍ واحدٍ ومراجعته مرارًا . قال بلوَر : "ان الصبر هو

(١) عالم اقتصادي سكتلندي (١٧٢٣–١٧٩٠) (٢) شاعر يوناني قديم له روايات تمثيلية بديعة (٤٨٠–٤٠٦ ق.م) (٣) شاعر ايطالي كبير (١٤٧٤–١٥٣٣)

الشجاعة التي يمتاز بها المنتصر ، وهو الفضيلة العظمى التي يجب ان يتسلح بها الرجل المجاهد ضد الحظ ، والفرد المجاهد ضد العالم ، والروح المجاهدة ضد المادة . بل هو الفضيلة التي أوصى بها الانجيل . ومهما بالغ المرء فلا يستطيع تحديد أهمية الصبر من الوجهة الاجتماعية ولا تعيين منزلته في المنافسات والتأسيسات"

وان عدم الثبات كثيرًا ما يكون سبب الفشل فيجعل صاحب الملايين اليوم متسوّلاً في الغد . وهل لك ان تريني انتصارًا عظيمًا بالحقيقة لم ينتج عن الثبات . وان احدى الصور التي خلّدت اسم تيتيان[1] انما اتمّها بعد تفرّغه لها ثماني سنوات ، وأتمّ أخرى بسبع . وهل تعرف كيف أحرز الكتّاب المعروفون ما أحرزوهُ من الشهرة ؟ انهم توصّلوا الى ذلك باستمرارهم على الكتابة سنوات عديدة بلا مقابل وتحبيرهم المئات من الصفحات على سبيل التمرّن فقط ، وقضائهم نصف عمرهم في العمل كما يعمل المجرمون المحكوم عليهم بالتجذيف في السفن وما من عِوَض يرجونه لقاء اتعابهم الاّ الشهرة

قال بارك : لا تيأس ابدًا واما اذا عملت فاعمل عمل اليائس

وقد كان الأقدمون يمثلون الاله هرقل مُلتفًا رأسهُ بجلدِ أسد ومخالبهُ مجموعة تحت ذقنهِ دلالةً على اننا اذا تغلّبنا على مصائبنا فان تلك المصائب تصير أعوانًا لنا .

فما أعظم مجد الارادة التي لا تُغلَب



(١) مصوّر ايطالي شهير هو اوّل من اتقن التصوير بالالوان (١٤٧٧–١٥٧٦)

التوزيع :
مكتبة الشواف
الرياض العليا - شارع الثلاثين
هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ /٤٦٢٢٦٣٠


حصريات


مجلة
الابتسامة